دعوة إلى جلسة قطع الرأس

مكتبة
419

فلاديمير
نابوكوف

ترجمة يوسف بن عمارة

مكتبة | 419

دعوة إلى جلسة قطع الرأس

- دعوة إلى جلسة قطع الرأس
- فلاديمير نابوكوف
- دار كلمات للنشر والتوزيع
- الطبعة الأولى ٢٠١٧

دولة الكويت / محافظة العاصمة

تلفون : ٠٠٩٦٥٩٩١١٩٩٣٤

تويتر : @Dar_kalemat

إنستجرام : Dar_kalemat

Dar_Kalemat@hotmail.com

INVITATION TO A BEHEADING

Copyright © 1959, Vladimir Nabokov

All rights reserved

مكتبة ٢٠١٩٥٥

ISBN: 978-99966-1-935-9 : ردمك

دعوة إلى جلسة قطع الرأس

INVITATION TO A BEHEADING

رواية

فلاديمير نابوكوف

Viadimir Nabolov

مكتبة 419

ترجمة

يونس بن عمارة

٢٠١٧

KALEMAT

مكتبة

تابعونا على فيسبوك
جديد الكتب والروايات

telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya

إلى ڤيرا

مقدمة

عنوان الأصل الروسي لهذه الرواية هو «بريغلاشيني نا كَزن» . وعلى الرغم من الازدواجية المزعجة للاحقة ، اقترحتُ جعل العنوان كالتالي «دعوة إلى الإعدام» ؛ لكن ، من جانب آخر «بريغلاشيني نا أوتسيشيني غولوفي» («دعوة إلى قطع الرأس») هو ما كنت أود قوله حقا بلغتي الأم ما لم أتوقف عند تتمة مماثلة .

لقد ألّفت الأصل الروسي بالضبط منذ ربع قرن في برلين ، حوالي خمسة عشر عامًا بعد الهروب من النظام البلشفي ، وقبل أن يصل النظام النازي حجمه الكامل من الاحتفاء . والسؤال عما إذا كانت رؤيتي لكلاهما في صورة مهزلة وحشية مملة واحدة كان له أي تأثير على هذا الكتاب أم لا ، لا ينبغي أن يهم القارئ الحصيف في شيء كما هو الحال معي .

نُشرت «بريغلاشيني نا كَزن» مسلسلة في مجلة روسية للاجئين ، سوفرمانّيا زابيسكي ، التي كانت تصدر في باريس ، ولاحقا في عام ١٩٣٨ صدرت مطبوعة في كتاب واحد في هذه المدينة عن دار نشر دوم كنيجي .

ظن المراجعون اللاجئون ، الذين كانوا متحيرين بشأنها لكنهم أحبوها ، أنهم ميزوا فيها نزعة «كافكاوية» ، وهم لا يعرفون بأنني لم أكن أجيد اللغة الألمانية وأنني كنت جاهلا تماما بالأدب الألماني الحديث ، وأنني لم أقرأ بعد أي ترجمات انجليزية أو فرنسية لأعمال كافكا .

لا شك أن هناك بعض الروابط الأسلوبية بين هذا الكتاب وقصصي المبكرة (أو روايتي المتأخرة 'منحنى شرير') ؛ لكن لا رابط بينها وبين 'لو شاتو' أو المحاكمة .

لا مكان للانتماءات الروحية في مفهومي عن النقد الأدبي ، لكن إن كان علي اختيار روح تقربني سيكون حتما انتمائي لذلك الفنان العظيم بدلا من ج . اتش . أورويل أو غيره من المروجين الشعبيين للأفكار المنمقة والخيال الدعائي . وبالمناسبة ، لم أستطع أن أفهم أبدا لماذا كل كتاب أنشره يحثّ المراجعين على الدوام للانطلاق سريعا في بحث عن أعلام مشهورين قليلا أو كثيرا بغرض المقارنة المتحمسة . فخلال العقود الثلاثة الماضية ألقوا في وجهي (لائحة ، بعضها كان قذائف غير مؤذية) منها : غوغول ، تولستوي ، جويس ، فولتير ، ساد ، ستاندال ، بلزاك ، بايرون ، بييربوم ، بروست ، كلايست ، ماكار مارنسكي ، ماري ملك-كارثي ، ميريديث (!) ، سرفانتس ، شارلي شابلن ، البارونة موراساكي ، بوشكين ، رسكن ، وحتى سبستيان نايت . مع ذلك فإن كاتبا واحدا لم يُذكر قط في هذا الصدد ، الكاتب الوحيد الذي يجب أن أعترف بامتنان بتأثيره عليّ في فترة كتابة هذا الكتاب ؛ ألا وهو الكئيب المسرف ، الحكيم الحاذق ، الساحر والممتع تماما : بيير دي لالاند الذي اخترعتُه .

وإذا ما ألفتُ في يوما ما قاموسا للتعريفات يفتقر إلى عبارة واحدة تترأسها ، فإن هذا المُدخَل العزيز سيكون «أن تختصر ، أو توسع أو من ناحية أخرى تغير أو تتسبب بتغيير من أجل تحسينات متأخرة لكتابات المرء نفسه في الترجمة» .

بصفة عامة تنمو الرغبة في القيام بذلك بما يتناسب مع طول

الفترة الزمنية الفاصلة بين النموذج و التقليد ؛ لكن عندما طلب مني ابني أن أتحقق من ترجمة هذا الكتاب وعندما اضطررتُ بعد عدة سنوات لإعادة قراءة الأصل الروسي ، وجدت مع شعور بارتياح أنه لم يكن هناك شيطان التصحيح الابداعي لأحاربه . جسدت لغتي الروسية في عام ١٩٣٥ رؤية محددة بعبارات دقيقة تتلائم معها ، والتصويبات الوحيدة التي يمكن أن يستفيد منها نقلها للغة الانجليزية هي التصويبات النمطية العادية ، لأن الوضوح في الانجليزية يبدو أنه يتطلب أقلَ التركيبات دقة واثارة من اللغة الروسية . أثبت ابني أنه مترجمٌ مناسب على نحو رائع ، وترسخ بيننا ذلك الاخلاص للكاتب الذي يأتي في المقام الأول ، بغض النظر عن مدى غرابة النتيجة . فليحيا المدقق وليسقط أولئك السذج الذين يعتقدون أنه لا بأسَ إن أعيدت صياغة «الروح» (عندما تمضي العبارات قدما بنفسها في ابتهاج ساذج ومبتذل -في ضواحي موسكو على سبيل المثال- ويُختزل شكسبير مرة أخرى في لعب دور شبح الملك) .

قال كاتبي المفضل (١٧٦٨-١٨٤٩) ذات مرة في رواية نُسيت تماما الآن : «كان لديه كل شيء للجميع ، لقد جعل الطفل يضحك والمرأة ترتجف ، وسبّب للإنسان دوارا مفيدا ، وجعل أولئك الذين لا يحلمون أبدا يحلمون» لا يمكن لـ«دعوة إلى جلسة قطع الرأس» أن تدعي أي شيء من هذا القبيل . إنها عزف كمان في فراغ . سيراها الدنيوي خدعة ، وسوف يتحول الرجال المسنون عنها سريعا إلى الروايات الرومانسية المحلية وحيوات الشخصيات العامة ، ولن تفتتن بها أي امرأة نوادي ، وأولئك اللؤماء سيرون في الصغيرة إيمي أختا للصغيرة لوليتا ، أما تلاميذ الطبيب المشعوذ الفييني فسيضحكون

عليها ضحكا مكبوتا في عالمهم البشع المكون من الذنب المشترك والتربية التدريجية .

ولكن (كما قال كاتب خطابات عن الظلال في إشارة إلى ضوء مصباح آخر) : أنا أعرف (je connais) بضعة (quelques) قراء سيقفزون ، نافشين شعرهم .

أوك كريك كانيون ، أريزونا
٢٥ يونيو ١٩٥٩

وكمجنون يظن نفسه إلها
ظننا أنفسنا خالدين .

* دي لالاند : خطابات عن الظلال .

الفصل الأول

وفقا للقانون أُعلن حكم الإعدام إلى س . سنسيناتوس بهمسة . نهض الجميع وتبادل الابتسامات . وضع القاضي العجوز فمه قريبًا من أذنه ولهث للحظة ، ثم أدلى بهذا الإعلان وتحرك ببطء بعيدًا ، كما لو كان يفكّ نفسه . عندئذ أُخذ سنسيناتوس مرة أخرى إلى القلعة . كان الطريق يتلوى حول قاعدتها الصخرية ويختفي تحت البوابة مثل ثعبان في صدع ما . كان هادئا إلا أنه احتاج لأن يسندوه أثناء سيره عبر الممرات الطويلة نظرا لأن خطاه لم تكن ثابتة كطفل تعلّم المشي لتوّه أو كأنه على وشك الانهيار تماما كرجل يحلم بأنه يمشي على الماء انتابه فجأة شكّ : ولكن هل هذا ممكن؟ استغرق روديون السجّان وقتا طويلا لفتح باب زنزانة سنسيناتوس ، لقد جرّب المفتاح الخطأ وكانت هناك الضجّة المعتادة . وفي الأخير أذعن الباب . وفي الداخل كان المحامي ينتظره مسبقا . كان يجلس على السرير وغارقا في التفكير من دون معطف زيّه الرسمي (الذي نسيه على كرسي في قاعة المحكمة ، كان يوما حاميًا ، يوما أزرقًا من كل النواحي) ووثب بنفاذ صبر عندما أُدخل السجين . ولكن سنسيناتوس لم يكن في مزاج للحديث . حتى لو كان خياره البديل أن ينعزل في هذه الزنزانة بثقب بابها الذي يشبه فجوة في قارب فهو لا يبالي ، طلب أن يترك لوحده وهكذا أذعن الجميع لرغبته وغادروا .

وهكذا نقترب من النهاية . الجانب الأيمن لا يزال جزءاً غير

مختبرا من الرواية والذي كان خلال قرائتنا المبهجة يجعلنا نشعر بخفة عبر اختبار آليّ ما إذا كان لا يزال هناك الكثير المتبقي أم لا (وأناملنا التي لطالما سعدت بالسُمك الهادئ والمؤمل) ستصبح فجأة ، من دون أي سبب على الإطلاق ، ضئيلة تماما ، بضع دقائق من القراءة السريعة ، التي تمّت بخفة . . . ويالللفظاعة! كومة الكرز التي بدا لنا شكلها أحمر داكنا وأسود لامعا أصبحت فجأة ثمارا منفصلة فإحداها هناك ذات الندبة فاسدة قليلا وهذه ذابلة وجافة منكمشة حول نواتها (وتلك الأخيرة قاسية وغير ناضجة بلا شك) يا للفظاعة! خلع سنسيناتوس سترته الحريرية وارتدى ثياب نومه وضرب رجله قليلا ليوقف الارتجاف وبدأ بالتمشي داخل الزنزانة . لمعت على الطاولة ورقة فارغة وقد برز بوضوح أمام هذا البياض ، قلم رصاص مبري بعناية يشبه حياة أي رجل عدا سنسيناتوس ، تلمع سطوحه الخشبية الستة . نزل اصبع السبابة لأسفل . وكتب سنسيناتوس : «على الرغم من كل شيء أنا نسبيٌ وقبل كل شيء كان لدي هواجس ، هواجس بشأن هذه النهاية» . كان روديون يقف على الجانب الآخر من الباب ويرمقه بانتباهٍ قائدٍ صارم من خلال ثقب الباب . شعر سنسيناتوس بقشعريرة باردة خلف رأسه . شطب ما كتبه للتو وبدأ يظلل الورقة بهدوء وبدأت تظهر تدريجيا زخرفة جنينية وتحوّلت إلى قرن كبش . فظيع! حدق روديون عبر الكوة الزرقاء إلى الأفق كانت ترتفع تارة وتنخفض أخرى . من أصيب بدوار البحر؟ سنسيناتوس . اندفع بقوة وهو يتعرّق ، كان كل شيء غارقا في الظلام وكان بإمكانه أن يحس بكل مسام شعره . دقّت الساعة -أربع أو خمس مرات- يصحبها ذبذبات وذبذبات أخرى وأصداء مرتدة تليق بسجن . صوت أقدام ، بينما أنزل عنكبوت

(كان الصديق الرسميّ للسجين) نفسه على خيط من السقف . ومع ذلك لم يطرق أحد على الجدار ، حيث كان سنسيناتوس حتى الآن هو السجين الوحيد (في كل هذه القلعة الهائلة!) .

في وقت لاحق أتى روديون السجّان ودخل وعرض عليه أن يرقص معه الفالس . وافق سنسيناتوس . وبدآ بالدوران . تقافزت المفاتيح من على حزام روديون الجلديّ وكانت تنبعث منه رائحة العرق والتبغ والثوم ، كان يدندن ويزفر من خلال لحيته الحمراء وكانت مفاصله الصدئة تصرّ (لم يعد كما كان من قبل ، للأسف فقد أصبح الآن سمينا وقصير النفس) قادتهم الرقصة إلى الرواق . كان سنسيناتوس أضأل بكثير من شريكه . كان سنسيناتوس خفيفا كورقة شجرة . جعلت حركات رقصة الفالس أطراف شاربه الطويل والرفيع تهتز ، وعيناه الكبيرتان الصافيتان تبدوان مريبة كما هو الحال دائما مع الراقصين الهيّابين . كان فعلا ضئيلا بالنسبة لحجم رجل مكتمل النمو . كانت مارثا تقول دائما أن أحذيته ضيقة جدا عليها . كان هناك حارس آخر يقف عند منعطف الرواق ، مجهول الاسم يحمل بندقية ويرتدي قناعا يشبه الكلب وشاشًا يغطيّ فمه . رقصوا بشكل دائرة بالقرب منه ثم انسلوا عائدين إلى الزنزانة وشعر سنسيناتوس بالأسف لأن بهجة الحضن الودي كانت قصيرة جدا .

وبكآبة مبتذلة دقّت الساعة مرة أخرى . كان الوقت يمضي بسرعة حسابيّة ، فالآن حلّت الثامنة . بدا أن النافذة البشعة الضئيلة يمكنها أن تدخل ضوء غروب الشمس وظهر متوازي أضلاع متوهج على الجدار المقابل . امتلأت الزنزانة إلى السقف بأضواء الشفق الزيتية مشكّلةً ألوانا مدهشة . هذا ما يجعل المرء يتسائل ،

هل هذه لوحة جامحة رسمها أحد الفنانين هناك على الجانب الأيمن من الباب ، أو أنها كوّة أخرى ، نافذة للزينة من ذلك النوع الذي لم يعد موجودا الآن؟ (في الواقع كانت ورقة مصقولة معلقة على الحائط تحتوي على عمودين يسردان تفاصيل «قواعد السجناء» ، بجوانبها المقوسة والحروف الحمراء للعناوين ، والنقوش والختم القديم للمدينة -والذي يمثله تَنّور مجنّح- توفر كل المواد اللازمة للإنارة المسائية) وكان نصيب الزنزانة من الأثاث يتكون من طاولة وكرسي وسرير . أما العشاء (كان المحكوم عليهم بالإعدام يحقّ لهم أن يحصلوا على نفس وجبات الطعام التي يتناولها الحرّاس) ينتظر من مدة هناك وهو يبرد تدريجيا في صينية الزنك . اشتدت الظلمة . وفجأة غمر المكان ضوء كهربائي ذهبيّ اللون مركّز جدا .

أنزل سنسيناتوس قدميه من السرير . تدحرجت كرة بولينغ في رأسه من مؤخرة عنقه إلى صدغه توقفت للحظة وبدأت بالتدحرج مرة أخرى . في غضون ذلك فُتح الباب ودخل مدير السجن .

كان يرتدي كما هي عادته دائما بذلة فْراك ويحتفظ على نحو رائع بوقفة مستقيمة وصدره للأمام ، احدى يديه في حضنه والأخرى وراء ظهره . كان شعره المستعار رائعًا ، أسود كالقار ، بمفرق شمعي يغطيّ رأسه بعذوبة . كان وجهه صارما دون ود بخدين سميكين شاحبين مع بعض تجاعيد قديمة ، خاليا من الحياة إلا من عينين -وفقط عينين- منتفختين . حرّك ساقيه بهدوء في سراويله المستقيمة تمشى بخطوات كبيرة من الجدار إلى الطاولة وقارب السرير لكن وعلى الرغم من صلابته المهيبة اختفى بهدوء وتلاشى في الهواء . مع ذلك مرّت دقيقة ليفتح الباب مرة أخرى صاحبها هذه

المرة صوت الصرير المألوف وكان يرتدي كعادته بذلة فْراك وصدره للأمام ، ودخل نفس الشخص .

«لقد بلغنا من مصادر موثوقة أن مصيرك قد تمّ البتّ فيه» بدأ كلامه بصوت جهير قوي وتابع «لقد رأيت من واجبي ، سيدي العزيز أن . . .»

قال سنسيناتوس : «لطفٌ . منك . هذا» (كانت جملة بحاجة إلى ترتيب)

قال سنسيناتوس مضيفا بعد أن نظف حنجرته «أنت لطيف جدا»

«رحمة» هتف المدير غافلا على عدم لباقة التلفظ بهذه الكلمة . «رحمة! لم أفكر بشيء . الواجب . لطالما . لكن لماذا ، إن سمحت لي بأن أجرؤ على السؤال ، لم تلمس طعامك؟» .

نزع المدير الغطاء ورفع إلى أنفه المرهف زبدية اليخنة المتخثرة . أخذ قطعة بطاطا بأصبعين وبدأ بمضغها بقوة وشرع بالفعل في التقاط المزيد من طبق آخر وهو يرفع حاجبيه .

قال باستياء «لا أدري أي طعام تريده أفضل من هذا» ورمى أصفاده ثم جلس إلى الطاولة لكي يكون مرتاحا أكثر بينما يأكل حلوى الأرز .

قال سنسيناتوس : «أود أن أعرف كم سيطول الأمر؟»

«رائع حلوى السابايون![1] كنت أود لو أنني أعرف كم سيطول

---

(١) هي حلوى إيطالية تصنع من صفار البيض والسكر والنبيذ الحلو (عادة يستخدم نبيذ مارسالا لكن كان يُستخدم أصلاً نبيذ موسكاتو كوت أستي) وبعضهم يضعون البيضة كاملة (الصفار والبياض) . المترجم .

الأمر لكن للأسف أنا نفسي لا أعرف . فالأمر يبلغني دائما في اللحظة الأخيرة لقد اشتكيت من الأمر عدة مرات وبإمكاني أن أعرض عليك كل مراسلاتي بشأن الموضوع إن رغبت في ذلك»

«إذا ربما قد يكون غدا صباحًا؟» سأل سنسيناتوس .

«لو كنت مهتما وسألتني عن الطعام لقلت لك» قال المدير «نعم ، لقد كان لذيذا جدا وممتعا للغاية هكذا كنت لأجيبك ، والآن من أجل الهضم اسمح لي أن أقدم لك سيجارة . لا تخف ، فعلى الأرجح هذه هي السيجارة قبل الأخيرة» تابع بظرافة .

«ليس من الفضول أن أسأل» قال سنسيناتوس «صحيح أن الجبناء فضوليون دائمًا . لكني أؤكد لك . . حتى لو كنت عاجزا عن التحكم في ارتجافي وما إليه فذلك لا يعني أي شيء . فالفارس ليس مسؤولا عن ارتعاش حصانه . لقد أردت أن أعرف لهذا السبب : تعويض الحكم بالإعدام هو أن يعرف المرء بالضبط الساعة التي سيموت فيها . لا بد أنه ترف كبير لكن المرء يستحقه تماما . ومع ذلك فقد تُركت في هذا الجهل الذي لا يمكن أن يتحمله سوى أولئك الذين يعيشون في الحرية . وعلاوة على ذلك لدي في رأسي العديد من المشاريع التي بدأت وتوقفت في أوقات مختلفة . . .لا ينبغي علي أن أتابعها ببساطة إذا لم يكن الوقت المتبقي حتى اعدامي كافيا لإنهائها على نحو منظم . هذا السبب الذي . . .»

«أوه ، حسنا هل تكرمت وتوقفت عن التمتمة» قال المدير بضيق صدر . «في المقام الأول هذا مخالف للقوانين وثانيا أنا أقول لك الآن بالروسية الواضحة وللمرة الثانية ، أنا لا أعرف ، كل ما أستطيع أن أقوله لك هو أنه من المتوقع أن يحين مصيرك المحتوم في أي يوم منذ الآن ، وعندما يأتي فعلا ، ويستريح ويعتاد على البيئة

المحيطة به لا يزال عليه أيضا أن يختبر الأداة لو أنه طبعا لم يجلب معه أداته الأمر الذي يحدث غالبًا . كيف كان التبغ؟ ليس قويا جدا؟» .

«لا» ، أجاب سنسيناتوس ، وهو يتأمل شارد الذهن في سيجارته . «فقط يبدو لي أنه وفقا للقانون . . . ليس أنت ، ربما ، لكن مدير المدينة . . من المفترض أن . . .»

«لقد حظينا بحديثنا ، وهذا يكفي» قال المدير . «في الحقيقة لم آت إلى هنا للاستماع إلى الشكاوى لكن من أجل . .» طرفت عيناه وفتّش أولا في أحد جيوبه ثم في الآخر ، وأخيرًا استخرج من جيب صديريته الداخلي صفحة من الورق المخطط كان من الواضح أنها مزقت من كراسة مدرسية .

«لا يوجد منفضة سجائر هنا» قال وهو يومئ بسيجارته «آه ، حسنا دعنا نغرقها في ما تبقى من هذه الصلصة . . حسنا . . أود أن أقول أن الضوء قوي إلى حد ما . ربما لو أننا . . أوه . . . حسنا لا تهتم ، ستعتاد على الأمر» .

نشر الورقة ، لم يرتدي نظاراته ذات الاطار القرنيّ لكنه أمسك بها أمام عينيه وبدأ يقرأ بوضوح :

«أيها السجين! في هذه الساعة الحاسمة ، وعيوننا . .أعتقد أنه حريّ بنا أن نقف» . قال مقاطعا نفسه بقلق وهو ينهض من كرسيه . وقف سنسيناتوس أيضا .

«أيها السجين في هذه الساعة الجليلة ، وعيوننا مفتوحة عليكم وقضاتكم مبتهجون ومن أجل الاعداد الملائم لأولئك الذين يتشنج جسدهم بحركات لا ارادية مباشرة بعد قطع الرأس ، أتوجه إليكم بكلمة أخيرة . إنه من واجبي -وهذا ما لن أنساه أبدًا- أن أوفر لكم

اقامة مؤقتة في السجن مع كل وسائل الراحة التي يسمح بها القانون . ولذلك سأكون مسرورا أن أكرس كل اهتمام ممكن لأي تعبير عن امتنانكم ، وسيكون من الأفضل على أية حال أن يكون بصيغة مكتوبة على جانب واحد من الورقة» .

«هنا» قال المدير وهو يطوي نظارته . «هذا كل شيء . لن أشغل وقتك أكثر من هذا . أعلمني عندما تحتاج لأي شيء» .

جلس على الطاولة وبدأ في الكتابة بسرعة مما يشير إلى أن المقابلة انتهت . خرج سنسيناتوس .

على جدار الممر انطبع ظل روديون وهو ينحني على ظل كرسي المرحاض فقط مع طرف ضئيل من لحيته الضاربة للحمرة . أضف إلى ذلك عند منحنى الجدار كان الحارس الآخر يخلع قناعه الرسمي ويمسح وجهه بكمّه . بدأ سنسيناتوس ينزل الدرجات . كانت الدرجات الحجرية ضيقة وزلقة بدرابزين شبحيّة تلتف لولبيا بشكل غير محسوس . وعندما وصل للقاع مضى مرة أخرى على طول الممرات . كان هناك باب يحمل لافتة «مكتب» فيما يشبه انعكاس المرآة مفتوحا على مصراعيه ، بينما لمع ضوء القمر على محبرة وسلة مهملات كانت تخشخش وتهتز بقوة تحت الطاولة ، لا بد أن فأرا ما قد سقط فيها . سنسيناتوس ، وبعد مروره بالعديد من الأبواب الأخرى تعثر ثم نهض ووجد نفسه في فناء صغير مليء بأشعة متنوعة من ضوء القمر المتشظي . هذه الليلة كانت كلمة السر هي الصمت ، ورد الجندي عند البوابة بصمت على صمت سنسيناتوس وتركه يمر وهكذا كان الحال عند جميع البوابات الأخرى . تاركا ورائه الكتلة الضبابية للقلعة بدأ في الانزلاق على منحدر مغطى بالعشب النديّ ليصل إلى درب ضبابي بين

المنحدرات لمرتين وثلاثة قطع التواءات الطريق الرئيسي -عندما نفض عنه آخر ظلال القلعة ، ركض على نحو مستقيم وأكثر حرية- ليؤدي جسر مائي على جدول ناشف سنسيناتوس إلى المدينة . ارتقى إلى قمة منحدر حاد واستدار نحو اليسار في الغَردن ستريت وجرى مارا بشجيرات ذات أزهار رمادية . لمعت نافذة مضاءة في مكان ما وهزّ كلب خلف أحد السياجات سلسلته لكنه لم ينبح . بينما كان النسيم يفعل كل ما في وسعه لتبريد عنق الهارب المكشوف . وبين الحين والآخر كانت تهبّ نفحة من الأريج تعبق من حدائق تمارا . كم كان يعرف جيدا هذه الحديقة العامة! هناك ، كانت مارثا ، عندما كانت عروسا تخاف من الضفادع والخنافس . . .هناك كلما بدت الحياة لا تطاق يمكن للمرء أن يتجول بقبضة من زهر البنفسج في فمه بينما تتلألأ الدموع في عينيه . . . ذاك العشب الأخضر في منتزه تمارا ببركه الراكدة ودندنات تسمع من فرقة موسيقية بعيدة . . .استدار في مَترفَكت ستريت ومرّ بأطلال مصنع قديم ، فخر المدينة ، عابرا أشجار الزيزفون الهامسة والبيوت الخشبية البيضاء المبهرجة لعمال التلغراف كانوا يحتفلون دائما بعيد ميلاد شخص ما ، ليخرج إلى تلغراف ستريت . من هناك سار في زقاق يمضي صعدا ومرة أخرى بدأت أشجار الزيزفون في الهمهمة المكتومة . كان هناك رجلان ، على المقاعد ربما ، كانا يتحدثان بهدوء في ظلام الحديقة العامة . «أقول أنه على خطأ» قال أحدهم . أجاب الآخر بصوت غير مسموع وتنهد كلاهما بصوت امتزج بسهولة مع حفيف أوراق الشجر . ركض سنسيناتوس إلى ساحة دائرية حيث كان القمر يطل على التمثال المألوف لشاعر يبدو كرجل ثلج ، مكعب للرأس ، والساقان مضمومتان لبعضهما ، وبعد

أن خطى بضع خطوات أخرى كان في الشارع الذي يسكن فيه . على اليمين كان القمر يلقي أنواعا مختلفة من الأشعة على جدران المنازل المتشابهة لهذا فقط عبر تعبير الظلال ومن خلال الشريط الفاصل بين نافذتين عرف سنسيناتوس منزله . كانت نافذة مارثا في الطابق العلوي مظلمة ولكنها مفتوحة . لا بد أن الأطفال كانوا نائمين في الشرفة المحدبة ، لمح ومضة من شيء ما أبيض هناك . هرع سنسيناتوس إلى الدرجات الأمامية واندفع فاتحا الباب ليدخل إلى زنزانته المضاءة . التفت حوله ، لكنه كان محتجزا بالفعل . يا للفظاعة! كان قلم الرصاص يلمع على الطاولة . وكان العنكبوت جاثما على الجدار الأصفر .

«أطفئوا الأنوار!» صاح سنسيناتوس .

أطفأ مراقبه عبر ثقب الباب الأضواء . بدأ الظلام والصمت في الامتزاج معا لكن الساعة قاطعتهما لتدق أحد عشر مرة ، توقفت هنيهة ثم أضافت دقة أخرى ، كان سنسيناتوس مستلقيا يحدّق في الظلام بينما كانت النقاط المضيئة تتلاشى وتختفي تدريجيا . اتحد الظلام والصمت تماما . عندئذ وعندها فقط (أعني ، الاستلقاء ممددا على سرير السجن بعد منتصف الليل بعد يوم فظيع رهيب ، لا أستطيع ببساطة أن أخبرك إلى أي مدى كان يومًا فظيعا) عندها بدأ س . سنسيناتوس يقيّم وضعه بجلاء .

في البداية على خلفية هذا المخمل الأسود الذي رسم في الليل الجانب السفلي من الجفون ظهر وجه مارثا وكأنه في حلية معلقة بقلادة ، بمظهرها الجميل الورديّ وجبينها الساطع وحاجباها الطفوليان المنحنيان الرفيعان اللذان يميلان للفوق عاليا فوق عينيها الواسعتان ذات اللون البندقيّ . بدأت عيناها تطرف ثم التفتت

برأسها وكان هناك وشاح مخمليّ أسود على عنقها الناعم الأبيض بينما كان الهدوء المخملي لفستانها يلمع عند الأسفل ممتزجا مع الظلام . هكذا شاهدها من بين الناس عندما قادوه إلى مقاعد المتهمين التي كانت قد طليت حديثا لهذا لم يجازف بالجلوس عليها لكنه وقف بجانبها (ولا يزال يحتفظ بالخضرة الزمردية على يديه بينما صوّر الصحفيون بجشع بصماته التي تركها على ظهر المقعد) لا يزال بإمكانه أن يرى أجنبتهم المتوترة ، لا يزال باستطاعته رؤية البنطلونات المبهرجة للرجال المتأنقين والمرايا اليدوية والأوشحة الملّونة للنساء المتأنقات لكن الوجوه كانت غامضة ومن بين كل المتفرجين لم يتذكر سوى مارثا بعيونها الواسعة . كان محامي الدفاع والمدعيّ العام يضعان الماكياج كلاهما ويشبهان بعضهما جدا (كان القانون يوجب أن يكونا أخوة أشقاء لكن بما أن ذلك غير متاح دائما فقد استخدما الماكياج) ألقيا بفصاحة وسرعة الخمسة آلاف كلمة المسموح بها لكلاهما . تكلما بالتناوب وكان القاضي الذي يتابع تبادلهما السريع يحرك رأسه يمينا وشمالا وكانت كل تلك الرؤوس الأخرى تتبعه ، ما عدا مارثا التي كانت نصف ملتفتة بقيت دون حراك كطفل مندهش بينما كانت عيناها مثبتتان على سنسيناتوس وهي تقف بإزاء مقعد الحديقة الأخضر اللامع . فاز محامي الدفاع ، المتحمس لقطع الرأس بالطريقة التقليدية بسهولة على المدعي العام المبتكر وأنهى القاضي القضية .

لا تزال شذرات من هذه الخطابات حيث كلمات مثل «شفافية» و«غموض» تصعد للسطح وتنفجر مثل فقاقيع ، يتردد صداها في أذني سنسيناتوس واستحال الحماس إلى تصفيق وظل وجه مارثا الذي يشبه صورة في قلادة في مجال رؤيته واختفى فقط

عندما نطق القاضي -الذي اقترب منه جدا لدرجة أنه استطاع رؤية منخريه الواسعين لأنفه الكبير الداكن ، الذي برزت في نهاية الطرف الأقصى لأحدهما شعرة طويلة منفردة- بلكنة لزجة هامسة «بعد الموافقة الكريمة للحضور ، ستحال لارتداء القبعة الحمراء» وهي عبارة مجازية اخترعتها المحاكم لكن معناها الحقيقي يعرفه كل تلميذ في المدرسة .

«وهكذا أعدوا لي الثياب بشق الأنفس» فكّر سنسيناتوس وهو يبكي في الظلام . «حسبوا انحناء عمودي الفقري بدقة كبيرة على نحو غامض ، أشعر بقيدي المحكم بين قدميّ ، لا يزال هناك العديد من الأميال التي سأمشيها في حياتي . أشعر ببالي مرتاحًا . . .»

دقّت الساعة نصف دقة معلنة حلول ساعة ما غير معروفة .

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

مكتبة

الفصل الثاني

قُدمت له جرائد الصباح مع كوب فاتر من الشوكولاتة جلبها له روديون ، الصحيفة المحلية «صباح الخير أيها الناس» وصحيفة يومية أكثر أهمية «صوت الشعب» كانت تزخر كالعادة بصور فوتوغرافية ملونة . في الأولى وجد واجهة منزله ، كان الأطفال ينظرون من الشرفة وكان حموه يطل من نافذة المطبخ ومصور فوتوغرافي يظهر من نافذة مارثا وفي الثانية كان هناك المنظر المألوف من هذه النافذة يطل على الحديقة مظهرا شجرة التفاح والبوابة المفتوحة ومشهد المصور الفوتوغرافي وهو يصوّر الواجهة . بالإضافة إلى ذلك وجد صورتين له تمثله في ميعة الشباب . كان سنسيناتوس ابنا لعابر سبيل مجهول ، وقد قضى طفولته في مؤسسة كبيرة وراء نهر ستروب (فقط في العشرينيات من عمره التقى صدفة بالثرثارة النحيفة التي كانت تبدو لاتزال صغيرة جدا سيسيليا س . حيث أقنعته بقضاء ليلة على البرك بينما لا تزال في سن مراهقتها) . ومنذ سنواته المبكرة استطاع سنسيناتوس عبر صدفة غريبة وسعيدة أن يدرك الخطر الذي هو فيه وتمكن بعناية من اخفاء ميزة معينة . كان منيعا ضد أشعة الآخرين ما نجم عن ذلك انطباع غريب عندما يبتعد عن حارسه كما لو أن عقبة مظلمة منفردة في عالم الأرواح هذا كانت شفافة بالنسبة لبعضها البعض ، على أية حال تعلّم كيف يختلق الشفافية مستخدما نظاما معقدا من الخداع البصري إن جاز التعبير ، كان عليه فقط أن ينسى نفسه لكي يسمح بضياع

لحظيّ في التحكم بالذات ، في التلاعب بالجوانب والزوايا المضاءة ببراعة التي يظهر فيها روحه لينطلق هناك فورا صوت الانذار . في خضم الاثارة في لعبة ما كان رفاقه ينسونه فجأة ، كما لو أنهم أحسوا أن نظرته الصافية واللون اللازوردي لعينيه كانت موجودة لكن خداعا ماكرا أخفاها وفي الحقيقة كان سنسيناتوس عندئذ مُعتما . في بعض الأحيان ، في خضم صمت مفاجئ ، كان المعلم بحيرة بالغة يضيّق عينيه محدقا قدر ما يستطيع فيه لمدة طويلة وفي الأخير يقول : «ما خطبك يا سنسيناتوس؟» عندئذ يتمالك سنسيناتوس نفسه ويحكم التشبث بنفسه إلى صدره مما ينقل تلك الذات إلى مكان آمن .

وبمرور الوقت أصبحت الأماكن الآمنة أقل مما كانت عليه : فالتوهج المزعج لاهتمام الناس كان يخترق كل مكان وكان ثقب الباب متموضعا على نحو يجعل من كل نقطة في الزنزانة متاحة لمرمى بصر المراقب على الجانب الآخر . لذلك لم يجعد سنسيناتوس الصحف الملونة ولم يرمها كما فعل قرينه (القرين ، أو الغَنغرل gangrel الذي يرافق كل واحد فينا ، أنت وأنا وهو ويفعل ما نود فعله في تلك اللحظة ذاتها ، لكن لا يمكن . . .) وضع سنسيناتوس بهدوء تام الصحف جانبا وأنهى كوب الشوكولاتة ، أصبحت القشدة البنية التي كانت تغطي الشكولاتة بقايا باهتة على شفتيه ثم ارتدى سنسيناتوس ثوبا أسودا (كان طويلا عليه) ونعلا أسود مع زخارف وقلنسوة سوداء أيضا وبدأ في التمشي في الزنزانة كما كان يفعل كل صباح منذ اليوم الأول له في السجن .

قضى طفولته في الضواحي الريفية . لعبوا الكرة ولعبة الخنزير وسيقان أبي الطويلة وقفزات الضفادع والدمى و لعبة المطاردة . كان

ذكيا ورشيقا لكنهم لم يكونوا يحبون اللعب معه . وفي فصل الشتاء كانت تلال المدينة تتغطى ببساط جميل من الثلج ، والممتع في الأمر كان الانزلاق لأسفل فوق ما تسمى زلاجات سابوروف «الزجاجية» . كم كان الليل يحلّ بسرعة عندما كان المرء يعود للمنزل بعد التزلج . . . أي نجوم ، أي تفكّر وحزن هناك في الأعلى وأي جهل في الأسفل . كانت ألنوافذ المنزلية تتوهج بلون كهرماني وقرمزيّ في الظلام الحالك القارس ، كانت النساء ترتدين فرو الثعالب فوق الفساتين الحريرية يجرين عبر الشارع من منزل لآخر بينما كانت «عربة صغيرة» كهربائية تثير زوبعة صغيرة لامعة من الثلج أثناء انزلاقها على سكتها المغطاة بالثلوج .

انبعث صوت صغير : «أركادي إليتش ، ألقِ نظرة على سنسيناتوس . . .»

لم يكن غاضبا على المخبرين ، لكن عددهم ازداد وعندما كبروا في السن أصبح الأمر مخيفا . كان سنسيناتوس الذي بدا لهم حالك السواد كما لو أنه أُقتطع من صخرة بحجم الجبلِ من الليل استدار سنسيناتوس الغامض على هذا النحو ومن ثم حاول أن يلتقط الأشعة بتسرع يائس آملا أن يعيقها بطريقة ما ليبدو شفافًا . أولئك الذين من حوله فهموا بعضهم بعضا من الكلمة الأولى بما أنه ليس لديهم أي كلمات تنتهي على نحو غير متوقع ربما بحرف غابر ، حرف أوبسِلامبا[1] يصبح طائرا أو منجنيقا تستتبعه وقائع عجيبة ، في المتحف الصغير المغبر على الجادة الثانية ، حيث اعتادوا

---

(١) حرف على الأرجح أن نابوكوف ابتكره بنحت بين حرفين يونانيين upsilon وlambda أوبسليون ولامبدا . المترجم .

أن يأخذوه عندما كان طفلا ، وحيث سيتلقى هو ذاته اتهاماته في وقت لاحق ، كان هناك مجموعة من الأغراض الرائعة والنادرة لكن جميع سكان المدينة باستثناء سنسيناتوس كانوا يرونها مجرد أشياء محدودة وشفافة كما كانوا يرون بعضهم البعض . فالشيء الذي لا اسم له ، لا وجود له . ولسوء الحظ فإن كل شيء لديه اسم .

«الوجود اللاموجود ، المادة اللامحسوسة» قرأ سنسيناتوس على الجدار حيث كان الباب يغطيها عند فتحه .

«الاحتفال الدائم بعيد القديس الذي تحمل اسمه ، لا يمكنك ببساطة أن . . .» كُتب في موضع آخر .

هناك إلى اليسار ، كتب بخط واضح وغليظ دون أي سطر زائد عن الحاجة : «انتبه إلى أنه عندما يخاطبونك . . . .» أما البقية فقد مُسحت .

وإلى جانبها كُتب بخط صبياني أخرق : «سأقوم بجمع الغرامات من الكتّاب» ، موقعة بـ«مدير السجن» .

ويمكن للمرء أيضا أن يلمح خطًا آخر ، كان غامضا وقديمًا : «قيّموني بينما لا أزال حيًا ، بعد ذلك يكون الأوان قد فات» .

يقول سنسيناتوس : «على أي حال فقد تم تقييمي ، واستأنف رحلته ، وهو يقرع أصابعه بخفة على الجدران . «لكن كيف لا أريد أن أموت! اختبأت روحي تحت الوسادة . أوه ، لا أريد! من القسوة أن أترك جسدي الدافئ . أنا لا أريد أن . . . انتظروا لحظة . . . اسمحوا لي أن أغفو قليلا» .

اثنا عشر ، ثلاثة عشر ، أربعة عشر . في سن الخامسة عشر ذهب سنسيناتوس إلى العمل في ورشة لعب ، حيث تم تعيينه هناك بسبب منزلته الوضيعة . في المساء كان يتغذى على الكتب

القديمة في حضن المويجات الفاتنة والمتراخية للمكتبة العائمة التي بنيت إحياء لذكرى الدكتور سينيوكوف الذي غرق في تلك البقعة بالذات من نهر المدينة . صوت صرير السلاسل والمعرض الصغير بظلال مصباحه برتقالي اللون ، هدير الأمواج وسطح الماء العذب الملّون بضوء القمر ، وهناك بعيدا تنعكس الأضواء على الشبكة السوداء للجسر المهيب . لكن في وقت لاحق بدأت الكتل القيّمة تعاني من الرطوبة مما استوجب في نهاية المطاف أن يجفف النهر وتوجه جميع المياه إلى ستروب عبر شق قناة خاصة لذلك .

كافح لفترة طويلة في المحل مع تفاهات معقدة وعمل على دمى قماشية لتلميذات المدارس ، هنا نرى بوشكين صغيرا مشعرا يرتدي فراء ، ودمية غوغول تشبه جرذا يرتدي صديرية مبهرجة ، ودمية صغيرة تمثل المسكين العجوز تولستوي بأنفه الضخم في ثياب الفلاحين والعديد من الدمى الأخرى ، على سبيل المثال دمية دوبروليوبوف ترتدي نظارات دون عدسات وكانت كلها مغلفة بالأزرار . وبعد أن طوّر على نحو مفتعل ولعا آملا بهذا القرن الأسطوري : القرن التاسع عشر ، كان سنسيناتوس مستعدا لأن يستغرق تماما في غياهب هذه التحف الأثرية ليجد هناك ملجأ مزيفا لكن شيئا آخر صرفه عن ذلك .

فهناك ، في ذلك المصنع الصغير كانت تعمل مارثا ، بشفتيها النديتين نصف المفتوحة تصوّب خيطا في سَم الإبرة . «مرحبا ، سنسناتيك!» وهكذا انطلقت تلك النزهات المبهجة في حدائق تمارا الواسعة جدا جدا (الفسيحة لدرجة أن التلال البعيدة تبدو ضبابية من شدة بعدها) حيث ، دون سبب واضح كانت أشجار الصفصاف تبكي في ثلاثة جداول والجداول في ثلاثة شلالات كل منها له

قوس قزحه الصغير الذي يصبّ في البحيرة حيث تطفو بجعة جنبا إلى جنب مع انعكاسها . المروج المستوية وشجيرات الورديّة وأيكات أشجار البلوط والبستانيين المرحين بأحذيتهم الطويلة الخضراء وهم يلعبون الغميضة طوال اليوم ، كان هناك أحد المغارات وبعض المقاعد الريفية حيث ترك ثلاثة ظرفاء ثلاثة أكوام صغيرة أنيقة (لقد كانت خدعة فهي مجرد محاكاة مصنوعة من قصدير مصبوغ باللون البنيّ) كان هناك احدى صغار الغزلان يتجه نحو الدرب المشجّر قبل أن تتحول عيناك إلى أشعة الشمس المتلألئة ، هذا ما كانت عليه تلك الحدائق حينئذ! وهناك كانت مارثا تثرثر كالأطفال بجواربها البيضاء وحذائها المخملي ونهدها الجميل وقبلاتها الوردية بطعم الفراولة البرية . لو كان المرء فقط يستطيع أن يراها من هنا ، على الأقل قمم الأشجار ، على الأقل مجموعة بعيدة من التلال . . .ربط سنسيناتوس ثوبه على نحو أكثر احكاما . بدأ سنسيناتوس بتحريك الطاولة وسحبها إلى الوراء وكما لو أنها صرخت بغضب : أن أحرّك كرها ، أي ارتجاجات انتقلت عبر الأرضية الحجرية! انتقلت ارتجاجاتها إلى أصابع سنسيناتوس وحنكه بينما يسحبها نحو النافذة (وهناك نحو الجدار في مكان ما مرتفع ، مرتفع جدا كان هناك التجويف المائل للنافذة) . سقطت الملعقة بصوت عال ، وبدأ الكأس بالرقص وقلم الرصاص بالتدحرج وأحد الكتب ينزلق فوق الآخر . رفع سنسيناتوس المقعد ذو المسند إلى الطاولة . وأخيرًا صعد بنفسه . لكن بطبيعة الحال لم يرَ شيئا عدا السماء الفاترة مع بضعة شعيرات مشطت إلى الوراء بخفة وبقايا من السحب لم تكن تحتمل الزرقة . بالكاد استطاع سنسيناتوس أن يرى أبعد من القضبان التي تنتصب ورائها نافذة

النفق بقضبان أخرى على طرفها حيث انعكاس ظلالها يتضاعف على الجدران المقشرة للمنحدر الحجري . هناك على الجانب كتب بنفس الخط الجيد ، نفس الخط المتهكم الذي كتبت به نصف الجملة الممحوة التي قرأها من قبل ، وكانت تقول : «لا يمكنك رؤية أي شيء . لقد حاولت ذلك أيضا» .

كان سنسيناتوس يقف على رؤوس أصابعه ويمسك القضبان الحديدية بيديه الضئيلتين والتي كانت شاحبة البياض من الاجهاد ووجه مغطى بالمشبك المشمس بينما التمع اللون الذهبي لشاربه الأيسر وتألق قفص صغير ذهبي في كل بؤبؤ من عينيه بينما في الأسفل خلفه كان عقبا قدميه يرتفعان من النعلين الكبيرين جدا .

«لو تماديت قليلا لسقطت» قال روديون الذي كان يقف بالقرب منذ نصف دقيقة كاملة والآن كان يشد بإحكام ساق الكرسي المرتجف . «لا بأس ، لا بأس يمكنك النزول الآن» .

كان لروديون عيون زرقاء بلون القَنْطُريون[1] وكما هو الحال دائما بلحيته الحمراء الرائعة . كان هذا المحيّا الروسي الجميل يرنو إلى أعلى نحو سنسيناتوس الذي رفسه بقدمه العارية ، بلا شك قرينه داس عليه أما سنسيناتوس فقد كان قد نزل بالفعل من الكرسي لمطاولة . أخذه روديون في حضنه مثل طفل رضيع وأنزله بلطف وهدوء من ثم حرّك الطاولة التي صرّت بما يشبه عزف الكمان إلى مكانها السابق وجلس على الحافة ودلى القدم التي كانت في الهواء وشد الأخرى تجاه الأرضية مفترضا التقليد المبهج للأشرار

---

(١) قَنْطُريون : نَباتٌ من الفَصيلةِ المُرَكَّبةِ يَنبُتُ بَرّيًا في الحُقولِ ، أزهاره زرقاء أو أرجوانيّة أو بيضاء . المترجم .

الأوبراليين في مشهد الحانة ، بينما أمسك سنسيناتوس بحزام ثوبه باذلا قصارى جهده ألا يبكي .

كان روديون يغني بصوته الجهير يدير عينيه وهو يلّوح بالقدح الفارغ . كانت مارثا معتادة على أن تغني هذه الأغنية الحزينة أيضا . وانهملت الدموع بغزارة من عيني سنسيناتوس وفي أوج الأغنية رمى روديون القدح ليتحطم فوق الأرضية وينزلق على الطاولة . كانت أغنيته وكأن جوقة تؤديها على الرغم من أنه غنى لوحده . فجأة رفع كلتا ذراعيه وانصرف مغادرا . .

جاثما على الأرض نظر سنسيناتوس إلى أعلى من خلال دموعه ورأى ظل القضبان يتحرك بالفعل . حاول -للمرة المئة- أن يحرك الطاولة ولكن للأسف كانت سيقانها قد ثبتت للأرض منذ قرون . تناول تينة مجففة ثم بدأ مرة أخرى في التمشي داخل الزنزانة .

تسعة عشر ، عشرون ، واحد وعشرون . في الثانية والعشرين تم نقله إلى روضة أطفال كمدرس في القسم ف ، وفي ذلك الوقت تزوج مارثا . وما إن تولى بالكاد واجباته الجديدة (والتي تتمثل في ابقاء الأطفال الصغار منشغلين والذين كانوا عرجانا أو حُدْبا أو حُولاً) حتى رفعت شخصية هامة ضده اتهاما من الدرجة الثانية . فقد أعرب بحذر في شكل تخمين عن اقتراح بعدم أهلية سنسيناتوس القانونية لهذا العمل . إضافة إلى هذه المذكرة قام أعيان المدينة أيضا بدراسة الاتهامات القديمة التي قدمها من حين لآخر زملائه الأكثر تعليما منه في المعمل . قام رئيس لجنة التعليم وبعض الشخصيات الرسمية الأخرى بالانفراد به بالتناوب ليجروا عليه الاختبارات التي ينص عليها القانون . ولعدة أيام على التوالي

لم يسمح له بالنوم وأجبر على أن يتابع المحادثات التافهة السريعة حتى أصيب بالهذيان وأن يكتب رسائل إلى مختلف الكائنات والظواهر الطبيعية وأن يمثل بعض المشاهد وأن يقلد مختلف الحيوانات والتجّار والأمراض . وقد قام بتأدية كل هذا ، واجتياز كل هذا ، لأنه كان شابا وذكيا وفتيًا وتواقا للحياة ، للحياة لفترة من الزمن مع مارثا . أطلقوا سراحه على مضض وسمحوا له بأن يواصل العمل مع هؤلاء الأطفال من المستوى الأدنى الذي كان مستنزفًا بالفعل من أجل أن يروا ما الذي سيأتي منه . كان يأخذهم للتمشي ، في شكل أزواج بينما كان يدير مقبض صندوق الموسيقى الصغير المحمول الذي كان يبدو كمطحنة القهوة ، وفي أيام العطل كان يؤرجحهم في ساحة اللعب ، كانت المجموعة برمتها تحبس أنفاسها بينما ترتفع الأرجوحة عاليا ليصرخوا بقوة عندما تنزل . علّم بعضهم القراءة .

في ذات الوقت بدأت مارثا بخيانته خلال السنة الأولى من زواجهما ، في كل مكان ومع كل شخص . وعموما عندما كان سنسيناتوس يعود إلى المنزل كان يعلو وجهها نصف ابتسامة راضية بينما تضغط على ذقنها الممتلئ أمام عنقها كما لو كانت تلوم نفسها وتنظر إليه بعينيها العسليتان الصادقتان وتقول بصوت ليّن ناعم : «مارثا الصغيرة فعلتها مجددا اليوم» كان ينظر إليها بضع لحظات ويشد على راحة يديها إلى خده مثل فتاة من ثم يبكي دون صوت بعدها يعبر كل تلك الغرف المليئة بأقاربها ويغلق على نفسه في الحمام حيث يضرب برجليه الأرض ويترك الماء يجري وينساب لكي يغطيّ على صوت بكائه ونشيجه . في بعض الأحيان لكي تبرر لنفسها كانت تشرح له «أنت تعرف إلى أي مدى أنا مخلوق

لطيف ، إنه مجرد شيء تافه ، وما هو إلا منح راحة لرجل» .

وسرعان ما أصبحت حاملا ، وليس منه . كانت تحمل صبيا ، وعلى الفور حملت مرة أخرى ، ومجددا ليس منه ، وحملت هذه المرة بفتاة . كان الصبيّ كسيحا وذو مزاج شيطاني أما الفتاة فكانت بليدة الذهن بدينة وعمياء تقريبا . وبسبب اعاقتهم انتهى الأمر بكلا الطفلين في روضته وكان غريبا أن يرى مارثا الرشيقة الجميلة والمتوردة تعود إلى المنزل بهذا الكسيح وتلك الرضيعة البدينة . وشيئا فشيئا توقف سنسيناتوس عن مراقبة نفسه تماما وفي احدى الأيام في احدى تلك الاجتماعات المفتوحة في حديقة المدينة انبعثت موجة مفاجئة من التحذير وقال شخص ما بصوت عال «أيها المواطنون ، هناك بيننا . .» تبعتها كلمة غريبة منسية تقريباً وهبّت الريح عبر أشجار الخروب ولم يجد سنسيناتوس شيئا أفضل من أن ينهض ويغادر بعيدا وبشرود ذهن كان يقطف الأوراق من الشجيرات التي تحفّ الدرب . وبعد عشرة أيام تم اعتقاله .

«غدا ، ربما ،» قال سنسيناتوس وهو يسير ببطء داخل الزنزانة . «غدا ، ربما ،» قال سنسيناتوس وهو يجلس على السرير وهو يعتصر جبهته براحة يده . كان لأشعة غروب الشمس تأثيرا مكررا لدرجة أنه أصبح مألوفا . «غدا ، ربما ،» قال سنسيناتوس وهو يتنهد بحسرة . «هذا اليوم كان هادئا جدا ، لذلك في الغد عند الشروق ومبكرا . . . .»

للحظة من الزمن كان الكلّ صامتا -ابريق الماء الخزفيّ على الأرض الذي كان يعرض الشراب على جميع أسرى العالم والجدران والتي كانت أذرعها تلتف حول بعضها البعض كأربعة رجال يتهامسون بصوت غير مسموع حول سرّ ما ، والعنكبوت

المخمليّ الذي كان بطريقة ما يشبه مارثا ، والكتب السوداء الضخمة على الطاولة . . .

«ياله من سوء فهم» قال سنسيناتوس وهو ينفجرا ضاحكا فجأة . ثم وقف وخلع ثوبه وقلنسوته ونعاله . وخلع سراويل الكتّان وقميصه . ثم خلع رأسه مثل الشعر المستعار وخلع الترقوة مثل أحزمة الكتف وخلع قفصه الصدري مثلما يخلع درعًا . ثم خلع وركيه وساقيه وخلع ذراعيه مثل القفازات وألقى بهم في الزاوية . وما تبقى منه تلاشى تدريجيا ، وبالكاد ترك أثرا في الهواء . في البداية شعر سنسيناتوس بالبرودة من ثم انغمس كلية في بيئته السريّة وبدأ يحس بسعادة وحرية أنه . . .

دوى صوت البراغي الحديدية كالرعد وعلى الفور ارتدى سنسيناتوس ما ألقاه جانبا بما فيها قلنسوته . جلب روديون السجّان إليه دزينة من البرقوق الأصفر في سلة مستديرة مبطنة بأوراق العنب ، كانت هدية من زوجة المدير .

سنسيناتوس ، لقد أنعشك تمرينك الاجراميّ .

الفصل الثالث

استيقظ سنسيناتوس جراء أصوات جلبة القدر المحتوم الذي كان يسير في الممر .

على الرغم من أنه هيأ نفسه في اليوم السابق لمثل هذا الاستيقاظ إلا أنه لا يزال عاجزا عن تمالك أنفاسه وضربات قلبه . طوى ثوبه فوق قلبه حتى لا يرى ، ابق هادئا ، لا شيء يحدث (كما لو كان أحدهم يقوله لطفل لحظة كارثة مهولة) مغطيا قلبه ورافعا نفسه قليلا أرهف سنسيناتوس سمعه . تناهى إليه صوت خطى العديد من الأقدام وهي تمشي ، بعضها واضح والآخر ضعيف وكان هناك أصوات ، كانت كذلك مختلفة العمق ، ارتفع أحدها بسؤال والآخر ، الذي كان الأقرب رد بجواب . مسرعا من بعيد ، أصدر أحدهم أزيزا وشرع في الانزلاق على الأرضية الحجرية وكأنه يتزلج على الجليد . في خضم هذه الجلبة نطق صوت المدير الجهير بعدة كلمات لم تكن واضحة لكنها بالتأكيد كانت آمرة . وكان الشيء الأكثر اثارة للفزع هو أن كل هذا الصخب افتعله صوت طفلة ، كان لدى المدير ابنة صغيرة . ميز سنسيناتوس كل من النغمة الباكية لحاميه وغمغمة روديون . . . ومرة أخرى سأل أحدهم من بعيد سؤالا بصوت مدويّ ورد عليه أحدهم بجواب مدويّ . زفير غاضب ، طقطقة ، قعقعة كما لو كان أحدهم يتحسس بعصا تحت الكراسي . «ألم تعثر عليه؟» سأل المدير بوضوح . صوت خطوات تذهب بعيدا . صوت خطوات تذهب بعيدا . ذهبت بعيدا

ثم عادت . لم يستطع سنسيناتوس تحملها لفترة أطول وأنزل قدميه على الأرضية : لا ينبغي عليهم أن يسمحوا له برؤية مارثا بعد كل ما حدث . . . هل يجب عليّ أن أرتدي ملابسي ، أو أنهم سيجلبون لي زيا من عندهم؟ أوه ، لقد انتهينا منها ، تعال . . .

ومع ذلك فقد عذّبوه أطول لمدة دقيقتين أو نحو ذلك . فجأة فتح الباب وانزلق محاميه داخلا بسرعة .

كان منفوش الشعر تفوح منه رائحة العرق . كان يعبث بكمّه الأيسر وعيناه تجولان هنا وهناك .

«لقد أضعت زرّ كمي» هتف المحامي وهو يلهث بسرعة مثل كلب . «لا بد أنه كان معي عندما كنت مع حبيبتي الحلوة إيمي لطالما كانت تتكبد الخسائر -بسبب ذيول المعطف- في كل مرة كنت أسقطها-والقضية هي أنني سمعت شيئا ما- لكنني لم أنتبه إلى أي- انظر ، السلسلة لا بد لها من - لطالما كنت مولعا بـ- حسنا ، لقد تأخر الوقت الآن- ربما لازلت أستطيع- لقد وعدت كل الحرّاس-إنه أمر مؤسف ، على الرغم . . .»

قال سنسيناتوس بهدوء «خطأ أحمق بليد» ، «لقد أسأتُ تفسير الضجة ، هذا النوع من الأمور ليس جيدا لصحة القلب» .

«أوه ، شكرا ، لا تقلق بشأن ذلك ، إنها لا شيء» غمغم المحامي دون تردد . وبعينيه استكشف حرفيًا زوايا الزنزانة . كان من الواضح أنه يشعر بالضيق بسبب فقدان هذا الغرض الثمين . كان واضحا . أن فقدانه الغرض أزعجه . فالغرض كان ثمينا . لقد كان منزعجا لفقدانه الغرض .

وبتأوه طفيف عاد سنسيناتوس إلى السرير . أما الآخر فقد جلس على قدم السرير .

قال المحامي «عندما أتيت لرؤيتك ، كنت فرحا وأشعر بالبهجة . . . لكن الآن هذه التفاهة أزعجتني لأنه بعد كل شيء أمر تافه ، كما ستوافقني أن هناك أشياء أكثر أهمية حسنا ، كيف تشعر؟» .

«في مزاج لحديث خاصّ» أجاب سنسيناتوس وعيونه مغلقة . «أريد أن أطلعك على بعض الاستنتاجات التي توصلت إليها . أنا محاط بحفنة من المراقبين البائسين وليس من قِبل أناس عاديين . إنهم يعذبونني كما يمكن فقط للرؤى التي لا معنى لها أن تعذبني ، الأحلام السيئة ، بقايا الهذيان ، وهراء الكوابيس وكل ما يمر هنا إلى الحياة الحقيقية . من الناحية النظرية يمكن للمرء أن يستيقظ . لكنني لا أستطيع الاستيقاظ من دون مساعدة خارجية ومع ذلك فإني أخشى هذه المساعدة بشكل رهيب ، أصبحت روحي أكثر خمولا وقد اعتادت على قِماطها الدافئ . من بين جميع الأطياف التي تحيط بي ، أنت يا رومان فيسارويونوفيتش أكثرها شراً ربما ولكن من ناحية أخرى على ضوء منصبك المنطقي في عُرفنا المخترَع فأنت بطريقة حديثك ، ناصح ، مدافع . . .»

«في خدمتكم» ، قال المحامي وهو يشعر بالسرور لأن سنسيناتوس قد أصبح ثرثارا أخيرا .

«هذا ما أريد أن أسألك بشأنه ، على أي أساس يرفضون أن يخبروني بالتاريخ الدقيق لتنفيذ الاعدام؟ ، انتظر لحظة ، أنا لم أنتهِ بعد . من يسمى بالمدير تجنب أن يجيبني مباشرة وقد أشار إلى حقيقة أن . . .مهلا! أريد أن أعرف ، في المقام الأول ، من الذي يملك سلطة تعيين اليوم . وأريد أن أعرف في المقام الثاني كيفية الوصول إلى بعض مشاعر تلك المؤسسة أو الفرد أو مجموعة الأفراد . . .»

أما المحامي ، الذي كان نافذ الصبر لكي يتكلم ، فقد أصبح الآن لسبب ما صامتا . لم يبدِ وجهه المزيّن بالمكياج بحواجبه الزرقاء الداكنة وشفته الأرنبية الطويلة أي نشاط عقليّ معين .

«دع زرّ الكمّ جانبا» قال سنسيناتوس «وحاول أن تركّز» .

قام رومان فيساريونوفيتش بتغيير وضع جسده بِتخلُّج وشبك أصابعه المتوترة . في صوت حزين قال : «إنه بالضبط بسبب هذا . . .»

قال سنسيناتوس : «لأنني سأُعدم» «أنا أعرف ذلك . تابع!»

«دعنا نغيّر الموضوع ، أتوسل إليك» تباكى رومان فيساريونوفيتش . «ألا يمكنك حتى أن تبقى ضمن الحدود القانونية الآن؟ هذا أمر فظيع حقا . هذا يفوق طاقة تحمليّ . لقد أتيت لمجرد أن أسألك عما إذا كان لديك أي رغبات قانونية . . .على سبيل المثال» (وهنا أضاء وجهه) «ربما تود أن تحصل على نسخ مطبوعة من الخطابات التي ألقيت في المحاكمة؟ ، إن كنت ترغب في ذلك فعليك أن تقدم على الفور الالتماس اللازم ، الأمر الذي نستطيع أن نعدّه أنا وأنت الآن مع مواصفات مفصلة عن عدد نسخ الخطابات التي تحتاجها ولأي غرض . يصادف أن لديّ ساعة فراغ- أوه ، أرجوك ، دعنا نفعل هذا! حتى أنني جلبت معي مغلفًا خاصًا» .

«فقط من باب الفضول . . .» قال سنسيناتوس ، «ولكن أولا . . . حسنا ، أليس هناك فرصة حقا للحصول على إجابة؟»

«مغلف خاص» كرر المحامي لإغرائه .

«حسنا ، دعنا نقم بذلك» قال سنسيناتوس وهو يمزّق المغلف السميك المحشو إلى قصاصات مجعدة .

«لم يكن ينبغي عليك أن تفعل ذلك» هتف المحامي وهو على

وشك البكاء . «لم يكن ينبغي عليك أن تفعل ذلك اطلاقًا . أنت لا تدرك حتى ما الذي فعلته . لربما كان يحتوي على عفو . من المستحيل الحصول على آخر!» .

التقط سنسيناتوس حفنة من القصاصات وحاول إعادة بناء جملة متماسكة واحدة على الأقل ، ولكن كل شيء كان مختلطا ، مشوها ، مفككًا .

«هذا هو الشيء الذي تفعله دائما» قال المحامي وهو يئن ممسكا بصدغيه ويتمشى عبر الزنزانة . «ربما كان خلاصك بين يديك ذاتها ، وأنت . . . إنه فظيع! حسنا ، ماذا سأفعل معك؟ لقد ضاع وتلاشى الآن . . .لقد كنت مسرورا جدا! لقد كنت أهيئك بعناية بالغة!» .

«هل تسمح لي؟» قال المدير بصوت مضخم وهو يفتح الباب الموارب . «أرجو ألا أكون قد أزعجتك؟» .

«رجاءً ، تفضل يا رودريغ إيفانوفيتش ، رجاءً تفضل بالدخول» قال المحامي . «رجاءً تفضل بالدخول يا عزيزي رودريغ إيفانوفيتش إلا أن الوضع ليس مبهجًا جدًا . . .» .

«حسنا ، وكيف هو حال صديقنا المحكوم اليوم؟» تهكّم المدير الأنيق المهيب وهو يضغط يديه اللحيمة القرمزية على يد سنسيناتوس الباردة إلى حد ما . «هل كل شيء على ما يرام؟ لا أوجاع أو آلام؟ ألا زلت تدردش مع صاحبنا رومان فيساريونوفيتش المثابر؟ أوه ، بالمناسبة ، عزيزي رومان فيساريونوفيتش ، أحمل خبرًا سعيدا لك ، فقد وجدت طفلتي الصغيرة اللعوب زرّ كم قميصك على الدرج . ها هو ذا . إنه من الذهب الفرنسي ، أليس كذلك؟ أنيق جدًا جدًا . لا أقدم مجاملات في العادة ، لكن يجب أن أقول . . .» .

سار كلاهما نحو الزاوية وتظاهرا بتفحص الحلية الفاتنة وناقشا

تاريخها وقيمتها منبهرين بها . انتهز سنسيناتوس هذه الفرصة لينهض من تحت السرير ، بصوت صرير عالٍ أصبح متذبذبا في النهاية ، إلى . . .

«نعم ، بالطبع ، بذوق ممتاز ، ممتاز» كرر المدير وهو يعود أدراجه مرة أخرى من الزاوية رفقة المحامي . «إذًا ، فأنت على ما يرام أيها الشاب الفتيّ» وجه كلامه لسنسيناتوس الذي كان يرتقي السرير مرة أخرى . «مع ذلك لا يجب أن تكون صبيانيًا فالشعبُ ، وكل واحد منا ، كممثلين عن الشعب ، لا يهمنا سوى مصلحتك ، لا بد أن يكون هذا واضحًا الآن . نحن على استعداد لتيسير الأمور من أجل التخفيف من وحدتك . خلال الأيام القليلة القادمة سيتم نقل سجين جديد إلى احدى زنزاناتنا الفاخرة . ستتعارفان ، وهذا ما سيسلي وحدتك» .مكتبة

«خلال بضعة أيام؟» سأل سنسيناتوس . «إذًا لا زال لديّ بضعة أيام أخرى؟»

«اسمع ماذا يقول» ضحك المدير ضحكة مكتومة . «يريد أن يعرف كل شيء . كيف ترى ذلك يا رومان فيساريونوفيتش؟»

«أوه ، يا صديقي ، أنت محقّ تماما» ، تنهد المحامي .

«نعم ، يا سيدي» ، تابع الأخير ، وهو يهزّ مفاتيحه محدثة صلصلة . «عليك أن تكون أكثر تعاونا يا سيّد . طيلة الوقت كان متكبرا ، غاضبا ومُجرِّحًا ، الليلة الماضية أحضرت له بعض البرقوق ، كما تعرف ، وماذا تتصور أن يفعل؟ لم يرد فخامته أن يأكلها ، فخامته كان متغطرسًا جدا . نعم يا سيدي! لقد بادرت وأخبرتك عن قدوم سجين جديد . وسيتاح لك أن تشبع من الحديث معه . لا داعي لأن تكتئب مثلما تفعل الآن . أليس هذا

صحيحًا ، يا رومان فيساريونوفيتش؟»

«هذا صحيح ، يا روديون ، هذا صحيح» ، وافق المحامي بابتسامة لا إرادية .

داعب روديون لحيته وانصرف : «لقد انتابني شعور عميق بالأسف على الرجل المسكين ، لقد دخلت ونظرت لأجده فوق الطاولة والكرسي يحاول أن يصل إلى القضبان بقدميه وبيديه الصغيرتين مثل قرد مريض . كانت السماء زرقاء والسنونوات تحلّق والسحب الصغيرة عالية هناك مثل الجنّة ، يا لها من نِعم! أنزلت الرجل إلى أسفل مثل طفل رضيع وبدأت أنا نفسي بالصياح -نعم تماما كما أنا واقف هنا- صرختُ وصرختُ . . .حقيقةَ تمزقت إلى قطع ، لقد كنت أشعر بالأسف العميق من أجله» .

«حسنا ، هل نأخذه إلى الطابق العلوي ، ما رأيك؟» اقترح المحامي بتردد .

«لم لا ، أكيد ، أننا نستطيع» قال روديون برزانة خيّرة . وأضاف «يمكننا أن نفعل ذلك دائما» .

«ارتدِ ثيابك» نطق رومان فيساريونوفيتش .

قال سنسيناتوس ، «أنا طوع أمركم ، أيها الأطياف ، المستذئبون ، الساخرون . أنا طوع أمركم . ومع ذلك ، فإنني أطلب ، نعم ، أطلب»(وبدأ سنسيناتوس الآخر يضرب بقدميه على الأرض هستيريا ، ليفقد نعليه) «أن تخبروني كم تبقى لي من وقت للحياة . . .وما إذا سيسمح لي أن أرى زوجتي» .

«لربما سوف تفعل» ، أجاب رومان فيساريونوفيتش ، بعد تبادل النظرات مع روديون . «فقط لا تتحدث كثيرا . حسنا ، دعونا نذهب» .

«لو سمحت» قال روديون وهو يعطي الباب المقفل دفعة قوية بكتفه .

خرج الثلاثة جميعا : الأول روديون ، مقوّس الساقين في سراويل باهتة قديمة فضفاضة من الأعلى ، خلفه كان المحامي ، في بذلة فْراك مع بقعة على ياقته الصلبة وهدبة وردية من النسيج على الجزء الخلفي من رأسه حيث ينتهي شعره المستعار الأسود ، وفي الأخير ، ورائه كان سنسيناتوس ، بلا نعلين ، يلف مبذله حول نفسه بإحكام .

وعند المنعطف في الممر ، ألقى عليهم الحارس الآخر ، غير المسمّى ، تحيّة . تأرجح الضوء الحجري الشاحب مع مناطق الظلام . مشوا ، ومشوا . منعطفًا تلو الآخر . وفي عدة مرات مروا بنفس الشكل الذي أنتجته الرطوبة على الجدار ، كان يبدو وكأنه حصان مُضَلَّع مخيف . هنا وهناك كان من الضروري أن يشعلوا الضوء . ليندلع نور أصفر شديد من مصباح مترب فوق أو على الجانب . وفي بعض الأحيان ، كان يحترق وعندئذ كانوا يجرون أقدامهم عبر ظلام دامس . في احدى الأماكن ، حيث سقط شعاع من ضوء الشمس غير متوقع ودون تفسير من فوق ليتوهج في الضباب بانعكاسه على البلاط المتآكل ، كانت هناك إيمي ، ابنة المدير ترتدي فستانا مربعًا لامعا وجوارب مربعة -مجرد طفلة ، لكن بساقين رخاميتين لراقصة باليه- كانت تقذف بالكرة على الجدار بشكل ايقاعيّ . التفتت وهي تميط خصلة شقراء على خدها بأصبعها الرابع والخامس وتابعت الموكب الصغير البسيط بعينيها . قام روديون بصلصلة مرحة بمفاتيحه وهو يمرّ بينما ربّت المحامي برفق على شعرها اللامع لكنها كانت تحدق في سنسيناتوس الذي منحها ابتسامةً

مذعورة . عند الوصول إلى المنعطف التالي للممر ، ألقى ثلاثتهم نظرة نحو الخلف . كانت إيمي تنظر إليهم بينما تلعب برفق بكرتها الحمراء الزرقاء البراقة بين يديها .

ومرة أخرى ، ساروا في الظلام لفترة طويلة حتى وصلوا إلى طريق مسدود حيث كان مصباح ياقوتيّ اللون يشع فوق خرطوم الحريق الملتف . فتح روديون بابا حديديًا منخفضا ، بعده كان هناك سلم حجري يتجه بشكل حاد نحو الأعلى . وهنا تغيّر الترتيب إلى حد ما : ألقى روديون نظرة على الوقت بينما هو يسمح للمحامي بالمرور أولا ثم سنسيناتوس لينتهي به الأمر بهدوء في نهاية الموكب .

لم يكن من السهل ارتقاء الدرج الحاد ، الذي كان يصحب تقدمه امتداد تدريجي للظلام الذي كان يزداد من ثم ارتقوا في الدرج لفترة طويلة من الزمن لدرجة أن سنسيناتوس بدأ بعد الدرجات جراء شعوره بالملل ووصل إلى عدد من ثلاثة أرقام عندها تعثر وفقد الحساب . من ثم بدأ الضوء يشتد كل درجة . مرهقًا كان سنسيناتوس يرتقي الدرجات كطفل بادئا كل مرة بنفس القدم . منعطف آخر لتندفع فجأة هبة شديدة من الريح واتساع مبهر لسماء الصيف يتخلل الجوّ صيحات السنونو .

وجد مسافرونا أنفسهم على شرفة واسعة في الجزء العلوي من البرج ، حيث كان يطلّ على منظر يحبس الأنفاس ، ليس لأن البرج ضخم فقط ، بل لأن القلعة كلها كانت ترتفع عاليًا جدا على قمة جرف كبير يبدو أنه يعجّ بالأشجار . هناك بعيدا في الأسفل كان يمكن للمرء أن يرى بساتين العنب العمودية تقريبًا والدرب القشديّ التي يلتف أسفل نحو قاع النهر الجافّ ، كان هناك شخص يرتدي

الأحمر يعبر الجسر المنحني بينما كانت هناك نقطة سوداء أمامه من الأرجح أنها كلب .

هناك بعيدا جدا كانت الشمس تغمر المدينة راسمة نصف دائرة كبيرة ، وكانت بعض تلك المنازل متعددة الألوان تمتد على صفوف مستوية مصحوبة بأشجار مستديرة بينما المنازل الأخرى كانت مائلة تمتد أسفل المنحدرات واطئة على ظلالها وبإمكان المرء أن يرى حركة المرور وهي تنساب في الشارع الأول ، كان هناك وميض أرجواني على نهايته حيث تنبع النافورة الشهيرة ، وهناك أبعد من هذا تجاه الانثناءات الضبابية للتلال التي تشكل الأفق ، كانت برك الماء تلتمع مثل مرايا اليد بينما تجمعت برك الماء البيضاوية الأخرى متوهجة خلال الضباب الرقيق ، هناك إلى الغرب حيث كان درب سْتروب الملتوي يحوي منبعها . ضغط سنسيناتوس راحة يده على خده دون حراك في لا مبالاة غامضة وربما حتى في يأس هنيّ محدقا في بريق وضباب حدائق تمارا وفي التلال الزرقاء الذائبة ورائها ، آه ، لقد مرّ وقت طويل حقا قبل أن يستطيع أن يزيح عينيه عنها . . .

على بعد خطوات قليلة منه ، أمال المحامي مرفقيه على الحاجز الحجريّ العريض الذي كان أعلاه مغطى بالنباتات من تلك النوع المغامر . كان ظهره متسخا بالطباشير . كان يحدّق بتأمل في الفضاء ، كان حذائه الجلديّ اللامع الأيسر فوق الأيمن ، وكان يشدّ خديه بأصابعه حتى أن جفونه السفلية برزت للخارج . وجد روديون مكنسة في مكان ما وعكف ينكس بصمت بلاط الشرفة .

قال سنسيناتوس «يا له من منظر خلاّب كل هذا» وهو يخاطب الحدائق والتلال (ولسبب ما كان من الرائع على نحو خاصّ أن

يكرر كلمة «خلاّب» المرة تلو الأخرى مثلما يفعل الأطفال عندما يغطون آذانهم من ثم يكشفونها مستمتعين بالعالم السمعي من جديد) . «خلاب! لم أرَ هذه التلال بهذا المنظر من قبل ، غامضة جدا . هناك في مكان ما بين طيّاتها ، في وديانها ، لا أستطيع أن . . . لا ، من المستحسن ألا أفكر في ذلك» .

قام بجولة كاملة في الشرفة . كانت هناك أراضٍ منبسطة جهة الشمال ، بينما كانت ظلال السحب تمرّ عبرها بسرعة ، وظهرت المروج بالتناوب مع حقول الحبوب . وراء التواء طريق ستروب يمكن للمرء أن يرى الخطوط المغبشة من الأعشاب في المطار القديم والمبنى أين يحتفظون بالطائرة القديمة الجليلة التي تغطّي أجنحتها الصدئة بقع ملونة حيث أنها كانت لا تزال تستخدم أحيانا في أيام الأعياد تحديدا لتسلية المعاقين . الأمر كان مملاً . والوقت ينساب رويدا . وفي المدينة كان هناك أحد الرجال ، كان صيدليا يقال أن جده ترك مذكرات تصف كيف كان التجار يذهبون إلى الصين جوًا .

أنهى سنسيناتوس جولته عبر الشرفة وعاد إلى حاجزها الجنوبيّ . كانت عيناه تحومان على نحو غير قانونيّ البتة . والآن كان يفكر أنه قد ميّز هذه الأجمة المزهرة ، وذاك الطائر ، وذاك الدرب الذي يختفي تحت ظُلّة من اللبلاب .

«هذا يكفي الآن» قال المدير بطيب نفس وهو يقذف المكنسة في احدى الزوايا ويرتدي بذلة الفْراك مجددًا . «لنعد معا إلى المنزل» .

«نعم ، لقد حان الوقت» رد المحامي ، وهو ينظر إلى ساعته .

وبدأ نفس الموكب الصغير يعود أدراجه مرة أخرى . في المقدمة كان المدير رودريغ إيفانوفيتش وورائه المحامي رومان فيساريونوفيتش

وخلفه السجين سنسيناتوس الذي انتابه بعد الكثير من الهواء النقيّ هجمة من تشنجات التثاؤب . وكان الجزء الخلفي من بذلة المدير الفْراك متسخًا بالطباشير .

الفصل الرابع

جاءت ، مستغلة زيارة الصباح التي يقوم بها روديون ، وانزلقت تحت يديه ، التي كانت تحمل الصينية .

«توت ، توت ، توت» قال وهو يتخلص من زوبعة من الشوكولاتة وبقدمه اللينة أغلق الباب ورائه وغمغم عبر شواربه «يا لها من طفلة شقية . . . .»

في ذات الوقت كانت إيمي مختبئة عنه تجثم وراء الطاولة .

«تقرأ كتابًا ، أه؟» لاحظ روديون ، وهو يتوهج لطفًا . «هذه هواية جديرة بالاهتمام» .

دون أن يرفع عينيه من الصفحة أومأ سنسيناتوس بموافقة شِعرية ، ولكن عينيه لم تعد تتابع النص .

أنهى روديون واجباته غير المعقدة ، فطارد بخرقة الغبارَ الذي كان يتراقص خلال أشعة الشمس وأطعم العنكبوت وغادر .

كانت إيمي لا تزال تجلس القرفصاء لكن مع ضبط نفس أقل ، كانت تتمايل قليلا كما لو كانت على نابض كان ذراعاها الناعمان متشابكان وفمها الوردي مفتوح قليلا بينما رموشها الطويلة الشاحبة التي كانت بالكاد تكون بيضاء ترّف وهي تنظر عبر قمة الطاولة نحو الباب . بحركة أصبحت مألوفة الآن وبسرعة وبمجموعة من الأصابع مختارة بعشوائية أماطت خصلات شعرها الكتانية عن صدغها ، وألقت نظرة جانبية خاطفة على سنسيناتوس الذي كان قد وضع كتابه جانبًا ويترقب لمعرفة ما الذي سيحدث بعد ذلك .

قال سنسيناتوس «لقد ذهب» .

تخلت عن جلسة القرفصاء لكنها كانت لا تزال منحنية ترمق الباب . كانت محرجة ولم تكن تعرف ما الذي يجب القيام به . فجأة كشفت أسنانها وبساقي راقصة باليه سريعة حلقت نحو الباب والذي تبين بطبيعة الحال أنه مقفل . حرّك وشاحها المحبوك الهواء في الزنزانة .

سألها سنسيناتوس السؤالين المعتادين . بلطف أعطت اسمها وأجابت أنها في سن الثانية عشر .

«هل تشعرين بالأسف من أجلي؟» سأل سنسيناتوس .

لكنها لم تجب على هذا السؤال . رفعت إلى وجهها الابريق الخزفي الذي كان موضوعا في الزاوية . كان فارغا وأجوف يردد صدى الصوت . هتفت بـ«هوو-هووو» في عمقه عدة مرات ، بعدها بلحظة ألقته جانبا ومالت نحو الجدار داعمة نفسها فقط بلوحي كتفيها ومرفقيها ، منزلقة نحو الأمام على قدميها المتوترتين في حذائها المستوي ثم استقامت مرة أخرى . ابتسمت لنفسها ، وبعد ذلك ، واصلت الانزلاق ملقية نظرة على سنسيناتوس بتجهم طفيف كما ينظر المرء إلى الشمس المنخفضة . جميع الدلائل كانت تشير إلى أنها طفلة جامحة لا يهدأ لها بال .

«ألا تشعرين بالأسف ولو قليلا من أجلي؟» قال سنسيناتوس : «لا يمكن ذلك . لا أستطيع أن أتصوره . تعالي هنا أيتها الغزالة الصغيرة الحمقاء وأخبريني في أي يوم سوف أموت» .

لم تجبه إيمي لكنها واصلت الانزلاق على الأرضية . من ثم أجلست نفسها بهدوء وضغطت بذقنها على ركبتيها المنحنية التي غطتها بحافة تنورتها .

«أخبريني ، إيمي ، من فضلك . . . من المؤكد أنك تعرفين كل شيء عن الأمر ، يمكنني القول أنك تعرفين . . .فوالدك يتحدث على المائدة ، وأمك تتحدث في المطبخ . . . الجميع يتحدث . بالأمس كان هناك مربع صغير مقتطع بعناية من الصحف ، هذا يعني أن الناس تناقش الأمر ، وأنا الوحيد . . .»

كما لو أنها حوصرت في زوبعة قفزت من الأرضية وطارت مجددا إلى الباب وبدأت تدقه ليس براحة يديها لكن بدلا من ذلك بعقب يديها . كان شعرها الحريري الأشقر الطليق ينتهي بخصلات مجعدة .

«لو كنت فقط بالغة» تأمل سنسيناتوس «لو أن روحك لامست قليلا صدأ روحي العتيقة ، لكنتِ ، كما في العصور الشاعرية تعطين السجّان جرعةً ضد السُهاد في ليلة حالكة السواد» . «إيمي!» هتف «أتوسل إليك- ولن أكفّ عن ذلك- أخبريني ، متى سأموت؟»

وهي تقضم أحد أصابعها ، ذهبت نحو الطاولة حيث كانت الكتب مكدسة بشكل كومة . طرحت أحد الكتب الذي كانت مفتوحا ، وورّقت صفحاته بشكل جعلها متغضنة وتقريبا ممزقة ثم أغلقته بخبطة قوية والتقطت آخر . شيء ما يتموج ظل يجري عبر وجهها : أولا بدأت تجعد أنفها المنمش ثم بدأ لسانها ينفخ خدها من الداخل .

أطلق الباب صوت قعقعة . أتى روديون بعدما ألقى نظرة من خلال ثقب الباب ربما ، ودخل وهو غاضب إلى حد ما .

«هش! ، أيتها السيدة الشابة! أنا الذي سيمسك بك من أجل هذا» .

انفجرت في ضحكة مدوية ، وراوغت يديه المتحفزتان للامساك بها وهرعت نحو الباب المفتوح . هناك ، على العتبة توقفت فجأة بدقة راقصة فاتنة - ربما كانت تهب قبلة أو ربما تبرم اتفاق صمت- نظرت من على كتفها إلى سنسيناتوس من ثم وبنفس الايقاع المفاجئ غادرت مبتعدة وهي تجري بخطوات متقافزة واسعة وعالية كما لو أنها تستعد للتحليق .

أما رودين فقد لاحقها بتثاقل متذمرا وهو يغمغم .

«مهلا!» هتف سنسيناتوس . «لقد انتهيت من كل الكتب . أحضر لي الفهرس مرة أخرى» .

«كتب . . .» سخر روديون بتأفف وأقفل الباب ورائه بصخب واضح .

يا للكرب! سنسيناتوس ، يا للكرب! يا لهذا الكرب الحجريّ ، يا سنسيناتوس ، دقات الساعة التي لا ترحم ، والعنكبوت البدين ، والجدران الصفراء وخشونة بطانية الصوف السوداء . والقشدة في كوب الشوكولاتة . نتفها بأصبعين في مركزها بالضبط وانتزعها كلها من السطح ، لم يعد هناك غطاء يطفو بل أصبحت تنورة صغيرة بنيّة مجعدة . كان السائل فاترًا في الأسفل ، حلوًا وراكدًا . ثلاثة شرائح من الخبز المحمص بحروق تشبه صدفة السلحفاة . قالب مستدير من الزبدة نقشت عليه الحروف الأولى لاسم المدير . يا للكرب ، يا سنسيناتوس ، كم هناك من فتات على السرير!

ناح على نفسه لفترة ، وتأوه وفرقع كل مفاصله ، ثم نهض من السرير وارتدى مبذله البغيض وبدأ بالتمشي . تفحص مرة أخرى كل النقوش على الجدران على أمل أن يكتشف واحدا جديدا في مكان ما . مثل فرخ غراب على جذع شجرة ، وقف لمدة طويلة على

الكرسي محدقا دون حراك في الجزء الضئيل جدا من السماء . ثم تمشى قليلا مرة أخرى . ومرة أخرى قرأ القواعد الثمانية للسجناء والتي أصبح يحفظها عن ظهر قلب :

١ . يحظر تماما مغادرة مبنى السجن .

٢ . تواضع السجين مفخرة للسجن .

٣ . أنت مطالبٌ بشدة أن تلتزم بالهدوء بين الساعة الواحدة والثالثة مساء يوميًا .

٤ . غير مسموح لك أن تستضيف الاناث .

٥ . الغناء والرقص والمزاح مع الحراس مسموح به فقط برضا الطرفين ، وفي أيام معينة .

٦ . من المستحسن ألا يكون لدى السجين على الإطلاق ، أو إذا انتابه ذلك عليه أن يكبح نفسه فورا من الأحلام الليلة التي قد يكون محتواها غير متلائم مع حالة ووضعية السجين ، مثلاً : المناظر الطبيعية الخلابة ، النزهات مع الأصدقاء ، وجبات العشاء العائلية فضلا عن الاتصال الجنسي مع الأشخاص الذين هم في الحياة الواقعية وفي حالة اليقظة لن يعانوا من اقتراب الفرد المذكور وبناء عليه سيعد الفرد في نظر القانون مذنبا بجريمة الاغتصاب .

٧ . طالما أنه يتمتع بحسن ضيافة السجن ، ينبغي على السجين بدوره ألا يتهرب من المشاركة في التنظيف والأعمال الأخرى التي يقوم بها موظفو السجن وذلك على النحو الذي تُقدم به المشاركة المذكورة .

٨ . الادارة غير مسؤولة بأي حال من الأحوال عن فقدان الممتلكات أو السجين نفسه .

يا للمعاناة ، يا للمعاناة يا سنسيناتوس . مشى سنسيناتوس أكثر ماسحا بمبذله ، أولا الجدران ثم الكرسي . عذاب! كان قد قرأ كل الكتب التي تكدست على الطاولة . وعلى الرغم من علمه أنه قد قرأها جميعا ، بحث سنسيناتوس وفتّش وألقى نظرة خاطفة على مجلد سميك . . . ودون أن يجلس ، قلّب بين الصفحات التي كان يعرفها بالفعل .

كانت مجلدا يضمّ أعداد مجلة صدرت في احدى الأوقات ، في زمن بالكاد يذكره أحد . كانت مكتبة السجن ، في الرتبة الثانية على المدينة من ناحية حجمها وندرة مجلداتها ، كانت تحتفظ بالعديد من مثل هذه المطبوعات المثيرة للفضول . كان عالمًا نائيًا ، حيث تتوهج أبسط الأشياء مع الفتوة والغطرسة الفطرية منطلقة من التبجيل الذي يحيط العمل المكرّس لصنعها . كانت هذه سنوات من الميوعة العالمية ؛ المعادن المزيّتة جيدا تؤدي ألعابا بهلوانية صامتة دون صوت . الخطوط المتناغمة لبذلات الرجال تمليها المرونة المجهولة للأجساد العضلية . والزجاج المتدفق من النوافذ الهائلة المنحنية حول زوايا المباني ؛ فتاة في ثوب السباحة تحلّق عاليا جدا مثل سنونوة فوق حمام السباحة حتى لا يبدو أنه أكثر من صحن فنجان ؛ رياضيّ القَفْزِ العالي يستلقي ممددًا في الهواء ، وقد بذل جهدا هائلا بالفعل لدرجة أننا لو لم نرَ ثنيات سرواله القصيرة التي تشبه طيات العلم لبدا أنه في حالة استرخاء كسول ، والماء يجري ، ينساب بلا نهاية ، وجمال الماء المنهمر ، والتفاصيل الباهرة للحمامات والتموجات اللامعة الملساء للمحيط التي تصحب سقوط ظلٍّ ذي جناحين فيه . كل شيء كان يلمعُ ويبرق ، كل شيء كان ينجذب بحماسٍ نحو نوع من الكمال الذي كان تعريفه

انعدام الاحتكاك . من وحي كل اغراءات الدائرة ، استحالت الحياة إلى حالة من الدُوار حيث سقطت الأرض جانبا وتعثرت وانهارت تعاني من الغثيان والوهن -هل يجب أن أقول ذلك؟- لتجد نفسها في بُعد جديد ، كما لو كان . . .أجل ، أصبحت المسألة قديمة ومرهقة ، والقلة نجت من هذه الأيام الأسطورية -بضعة آلات ، واثنتين أو ثلاثة من النوافير- ولم يتأسف أحد على الماضي ، حتى أنّ مفهوم «الماضي» ذاته تغيّر .

«ولكن ربما أنني» فكّر سنسيناتوس ، «قد أسأت تفسير هذه الصور . ينسب إلى كل عصر مميزات لصوره الفوتوغرافية . فوفرة الظلال ، وتيارات الضوء ، وبريق الكتف المسفوع ، الانعكاس النادر ، وتحولات السائل من عنصر لآخر ؛ لربما كل هذا يتعلق فقط باللقطة الفوتوغرافية ، إلى نوع معين من التصوير الهيلوتَيبي[1] إلى أشكال خاصة من هذا الفن ، والعالم حقيقةً لم يكن ملتويا جدا ، كان رطبا جدا وسريعا تماما مثلما تسجل اليوم آلات تصويرنا غير المعقّدة بطريقتها الخاصة عالمنا المركّب والملّون باستعجال» .

«ولكن لربما أنني» (بدأ سنسيناتوس بالكتابة بسرعة على ورقة من أوراق القوانين) «قد أسأت التفسير . . . نسبة للعصر . . . هذه الوفرة . . . التيارات . . . تحولات السائل . . . والعالم لم يكن حقًا . . . . تماما مثلما . . . لكن كيف ستخفف هذه التأملات من عذابي؟ آه يا عذابي . . ماذا أفعل بك وبنفسي؟ كيف يجرؤون على أن يخفوا عني . . . أنا ، المحتوم عليه بأن يمر عبر بلاء من الألم

---

(١) صورةٌ تؤخذ مباشرةً عن فيلم جيلاتينيّ كانَ قد عُرِّض للشمس تحت الصُّورة السلبية . المترجم .

الشديد ، أنا ، الذي من أجل أن أحافظ على مظهر من الكرامة (على أية حال أنا لن أمضي أبعد من شحوب صامت ؛ فلستُ بطلا على أية حال) ، لا بد عليّ خلال هذا البلاء أن أبقى مسيطرا على كل مَلَكاتي ، أنا ، أنا . . . أضعف شيئا فشيئا . . . فاللايقين مرعب-حسنا ، لماذا لا تقولون لي ، أخبروني- لكن لا ، عليكم أن تقتلونني من جديد كل صباح . . . ومن ناحية أخرى ، لو كنت أعرف ، لاستطعت أن أؤدي . . . عملا صغيرًا . . .سجلا من الأفكار الموثوقة . . . يوما ما سيقرأها أحدهم وسيشعر فجأة كما لو أنه استيقظ للمرة الأولى في بلد غريب . ما أود قوله هو أنني سأجعل عينيه تتدفقان فجأة بدموع الفرح ، ستذوب عيناه ، ومن ثم بعد أن يَخبُر هذا سيبدو له العالم أوضح وأعذب . لكن كيف يمكنني أن أبدأ الكتابة بينما لا أعرف ما إذا كان لدي الوقت الكافي لذلك ، والعذاب يأتي عندما تقول لنفسك «بالأمس كان لا يزال هناك وقت كاف» ، ومجددا تفكّر «لو أنني قد بدأت بالأمس فقط . . . .» وبدلا من العمل الدقيق والواضح المطلوب ، بدلا من التحضير التدريجي للروح لذلك الصباح حينما يستوجب عليك النهوض ، حين ، حينما ستقدم روحك إلى دلو الجلاّد ليغسلها - بدلا من ذلك تنغمس لا إراديا في أحلام هروب مبتذلة لا معنى لها- وأسفاه ، الهروب . . . اليوم ، عندما تأتي لتجري وتدقّ الأرض بقدميها وتضحك ، هذا هو ما أعنيه ، لا ، لا بد عليّ أن أسجّل ، أن أترك شيئًا . أنا لستُ عاديا -أنا الوحيد من بينكم على قيد الحياة- ليست عيناي مختلفتان فقط ، وسمعي ، وحسّي الذوقي -ليس فقط حاسّة شميّ مثل أيل ، وحاسة لمسي مثل خفاش- لكن ، الأهم من ذلك ، لدي القدرة على أن أجمع كل هذا في نقطة

واحدة ، لا ، لم أكشف السرّ بعد ، -كل هذا ما هو إلا مجرد حجر صوان- لم أبدأ بعد في الحديث عن الشرارة ، عن النار نفسها . حياتي . في احدى المرات ، عندما كنت طفلا في رحلة مدرسية بعيدة ، عندما انفصلت عن الآخرين -على الرغم من أنني قد أكون قد حلمت بهذا- وجدت نفسي ، تحت الشمس القائظة لمنتصف النهار ، في بلدة صغيرة خاملة ، خاملة لدرجة أن الرجل الذي كان يغفو فوق كرسي تحت الجدار الأبيض اللامع استيقظ أخيرا ليساعدني لإيجاد طريقي ، فإن ظله الأزرق على الجدار لم يتبعه على الفور . أوه ، أعرف ، أعرف ، لا بد أنني قد سهوت من جانبي وأن الظل لم يتوانى على الاطلاق ، لكن ببساطة ، إن جاز لنا أن نقول ، لقد انحصر في تفاوت الجدار . . . لكن هذا ما أود أن أعبر عنه : بين حركته وحركة الظل المتواني -تلك اللحظة ، تلك الغَشْية- يكمن النوع النادر من الزمن الذي أعيش فيه ، الوقفة المؤقتة ، الثغرة ، حينما يصبح القلبُ كريشة . . .وأود أن أكتب أيضا عن الارتعاش المستمر -وكيف أن جزءاً من أفكاري دائما ما يزدحم حول الحبل السرّي اللامرئي الذي يربط هذا العالم بشيء ما- الأمر الذي لن أتكلم عنه الآن . . . لكن كيف يمكنني أن أكتب عن هذا بينما أنا خائف من ألا أملك الوقت لأنهيه وأثير كل هذه الأفكار عبثًا؟ عندما جاءت تجري بسرعة اليوم -مجرد طفلة- إليكم ما أود أقوله ، مجرد طفلة ، مع بعض الثغرات في أفكاري ، أتسائل على وزن قصيدة قديمة- ألا يمكنها أن تعطي الحرّاس جرعة مخدّر ، ألا يمكنها انقاذي؟ لو أنها تبقى طفلة كما هي ، لكن في ذات الوقت تكون ناضجة وتفهم ، عندئذ سيكون ذلك ممكنا ، بخديها المضرجين ، في ليلة عاصفة حالكة السواد ، الخلاص ،

الخلاص . . . وسأكون مخطئا في استمراري بالترديد أنه لا ملاذ لي في هذا العالم . هناك ملاذ! سوف أجده! واديا خصبا في الصحراء! بقعة من الثلج في ظل صخرة من جبال الألب! مع ذلك فهذا ليس بالأمر الصحيّ ، ما أفعله : ففي حالتي هذه من الضعف ، ها أنا أحمّس نفسي ، أبدد ما تبقى لي من قوتي . يا للعذاب ، أوه ، يا للعذاب . . . من الواضح بالنسبة لي أنني لم أنتزع بعد الغشاء الأخير من خوفي» .

أصبح ضائعا في التفكير . من ثم أسقط القلم ونهض وبدأ المشي . تناهى صوت دقات الساعة إلى أذنيه . من خلال اعتبار دقاتها كمنصة ارتفع صوت وقع أقدام إلى السطح ، طفت المنصة بعيدا ، لكن صوت وقع الأقدام بقي والآن دخل شخصان إلى الزنزانة : روديون مع الحساء وأمين المكتبة مع الفهرس .

كان الأخير رجلا هائل البنية ، لكن مع مظهر مريض بظلال تحت عينيه ، مع بقعة صلعاء محاطة بتاج أسود من الشعر ، وقوام طويل في سترته الزرقاء التي كانت باهتة في بعض الأماكن مع بقع نيلية اللون على المرفقين . كانت يديه في جيوب سرواله ، والتي كانت ضيّقة كالموت ، ويمسك بإحكام تحت ذراعه كتابًا ضخما مجلدا بالأسود . كان سنسيناتوس قد سعد برؤيته مرةً من قبل .

«الفهرس» قال أمين المكتبة الذي كان حديثه يتميز بنوع من الايجاز الجريء .

«جيد ، اتركه هنا» قال سنسيناتوس ، «سأختار شيئا ما . إذا كنت ترغب في الانتظار ، وأن تجلس لدقيقة ، من فضلك افعل . لكن ، إن كنت تود أن تذهب . . .»

«أن أذهب» قال أمين المكتبة .

«حسنا . إذًا سأعيد الفهرس مع روديون . هناك ، يمكنك أن تعيدهم معك . . .هذه المجلات من الزمن القديم كانت حركيّة ورائعة فعلا . . .مع هذا المجلد الضخم انغمست تماما ، كما تعرف ، كما لو كنت موثقا لصابورة[1] ، إلى قاع الزمن ؛ احساس فاتن» .

«لا» قال أمين المكتبة .

«أحضر لي المزيد منها ، سأكتب لك السنوات التي أريدها . واحدى الروايات ، مما صدر حديثا . هل أنت ذاهب بالفعل؟ هل أخذت كل شيء؟» .

تركوه وحيدا ، بدأ سنسيناتوس بتناول الحساء وهو يتصفح الفهرس في نفس الوقت . كان متنه مطبوعا بعناية بشكل جذاب ، حيث أدرجت وسط النص المطبوع العديد من العناوين بالحبر الأحمر ، بخطّ صغير لكن دقيق . كان من الصعب على شخص ليس مختصا أن يفهم الفهرس ، لأن العناوين لم تكن مرتبة حسب الأبجدية ، ولكن وفقا لعدد صفحات كل كتاب ، مع ملاحظات توضيحية بشأن عدد الأوراق الاضافية (من أجل تجنب التكرار) والتي تم لصقها بهذا أو ذاك الكتاب . وهكذا بحث سنسيناتوس دون أي هدف محدد في ذهنه ، منتقيا أي كتاب يصادفه ويبدو جذابا . تم الحفاظ على الفهرس في حالة من النظافة المثالية ، وهذا ما يجعل الأمر أكثر غرابة لوجود خط طفولي رسم سلسلة خربشات بالقلم الرصاص على احدى صفحاته اليسرى البيضاء الأولى ، والتي كانت تمثل للوهلة الأولى سنسيناتوس هاربًا .

---

(١) صابُورَة : أَثْقال تُوضَعُ في سَفِينَةٍ لِحِفظِ توازنها وتستعمل كذلك في المناطيد لانزالها أو موازنتها . المترجم .

الفصل الخامس

«تقبّل تهانيّ الخالصة» قال المدير بصوته الجهير اللزج وهو يدخل زنزانة سنسيناتوس صباح اليوم التالي . كان رودريغ إيفانوفيتش يبدو أكثر تأنقا من المعتاد : فالجزء الخلفي من أفضل بذلاته الفْراك كان محشوا ببطانة قطنية مثل حوذي روسي ، جاعلة ظهره يبدو عريضا ، انسيابيا وممتلئا ، كان شعره المستعار لامعا كأنه جديد ، وبدت عجينةُ ذقنه الوافرة مرشوشة بالطحين ، بينما كان في عروة صدره زهرة شمعيّة وردية بفم مبقع . ومن وراء هيئته الفخمة -كان قد توقف على العتبة- كان موظفو السجن يختلسون النظر إليه بفضول ، كانوا هم أيضا مهندمين في أفضل ثيابهم ليوم الأحد ، وهم أيضا كانوا قد سرحوا شعرهم ولمعوه ، حتى أن رودیون وضع على ثيابه احدى الميداليات الصغيرة .

«أنا مستعد . سأرتدي ثيابي سريعًا . كنت أعرف أنه سيكون اليوم» .

«تهانيّ» كرر المدير غير ميالٍ إلى ارتجاف سنسيناتوس المتوتر . «يشرفني أن أبلغكم أنه من الآن فصاعدا قد أصبح لديك جار - نعم ، نعم ، لقد تم نقله للتو . أراهن أنك قد تعبت من الانتظار ، صحيح؟ حسنا ، لا تقلق ، الآن مع صديق حميم ، مع زميل تلعب وتعمل معه لن تجد الأمر مملا جدًا . وما هو أكثر من ذلك -ولكن هذا بالطبع ، يجب أن يبقى فقط بيننا- يمكنني أن أبلغك أن الإذن قد جاء لإجراء مقابلة مع زوجتك ، غدًا صباحًا» .

تمدد سنسيناتوس مرة أخرى على السرير وقال : «نعم ، هذا حسن . أشكرك أيتها الدمية البالية ، الحوذيّ ، الخنزير المبهرج . . .اعذرني ، فأنا إلى حد ما . . .»

حينئذ بدأت جدران الزنزانة بالانتفاخ والتموج مثل الانعكاسات في مياه مضطربة وبدأ المدير يتموج وأصبح السرير قاربًا . انحاز سنسيناتوس إلى الجانب من أجل الحفاظ على توازنه ، لكن ركيزة المجذاف[1] انسلت من بين يديه وغارقا لعنقه بين ألوف الأزهار المبقعة بدأ بالسباحة ليشتبك بشيء ويبدأ في الغرق . شمرت الأكمام وبدأت تدفع تجاهه بالأعمدة الخشبية لتحريك القارب وبصنانير الصيد من أجل الامساك به وسحبه إلى الشاطئ . وهكذا اصطادته .

قال طبيب السجن المعروف باسم رودريغ ايفانوفيتش وهو يبتسم «هستيريا ، هستيريا ، امرأة صغيرة عادية» . «تنفس بحرية . يمكنك أن تأكل كل شيء . هل عانيت من قبل من التعرّق الليلي؟ كن على سجيّتك ، وإذا كنت مطيعًا جدا لربما سنسمح لك بأن تلقي نظرة سريعة على الولد الجديد . . .لكن تذكر ، فقط نظرة سريعة . . .»

«كم من الوقت . . . تلك مقابلة . . . كم من الوقت سنعطى؟ . . .» نبس سنسيناتوس الكلمات بمشقة .

«بعد لحظات ، بعد لحظات . . . لا تستعجل نفسك ، لا تتحمّس كثيرا . وعدناك بأن نريه لك وسنفعل ذلك . البس نعليك وسرّح شعرك . وأعتقد أنه . . .» نظر المدير متسائلا نحو روديون

---

(١) ركيزةُ المِجْذافِ : نُقرة بشكل Uحيث يستند المجذاف في مكانه . المترجم .

الذي أومأ له . «لكن من فضلك التزم بالصمت المطبق» بدأ يخاطب سنسيناتوس مجددا «ولا تحمل أي شيء في يديك تعالَ ، انهض ، انهض . أنت لا تستحق هذا ، أنت يا صديقي تسيء التصرّف ، لكن لا يزال لديك الإذن -الآن- ولا كلمة ، ولا همسة . . .»

على رؤوس أصابعه ، موازنا نفسه بذراعيه ، غادر رودريغ ايفانوفيتش الزنزانة وذهب معه سنسيناتوس يجرّ قدميه في نعاله الكبيرة عليه . بينما كان روديون في عمق الممر يميل بالفعل على باب بأقفال مهيبة ، وقد أزاح جانبًا غطاء ثقب الباب وينظر من خلاله . ودون أن يلتفت أومأ بيديه بحركة تطلب المزيد من الصمت ثم بخفة غيّر الايماءة إلى واحدة مختلفة ، ايماءة للمجيء . ارتفع المدير أكثر على رؤوس أصابعه والتفت بوجه متوعد ، لكن سنسيناتوس لم يستطع أن يكبح صوت جرّ النعال إلا قليلا . هنا وهناك في نصف عتمة الممرات ، كانت الشخوصُ الماثلة لموظفي السجن قد تجمعت وظللت أعينها بأيديها كما لو كانوا سيرون شيئا ما من بعيد . مساعد المختبر روديون سمح للرئيس أن ينظر عبر عدسة المجهر المركزة . أطلق ظهر رودريغ إيفانوفيتش صوت طقطقة قوية وهو ينحني لينظر . . .في ذات الوقت ، قامت الظلال الرمادية ، تلك الشخوص الضبابية بتغيير وضعياتها بلا صوت ، وبهدوء تام استدعت بعضها ، وشكلت صفوفا وبالفعل كانت أقدامهم الصامتة تتحرك في مكانها كالمكابس مستعدة للمضيّ . وأخيرًا انزاح المدير ببطء بعيدا وسحب سنسيناتوس برفق من أكمامه وهو يدعوه كدكتور جامعيّ يود من رجل عاديّ مرّ به أن يفحص الشريحة . وضع سنسيناتوس بوداعة عينه أمام الدائرة

المضيئة . في البداية لم يرَ سوى فقاعات من أشعة الشمس وحزم من الألوان ، لكنه بعدئذ ميّز السرير ، وكان مطابقا لذلك الذي لديه في زنزانته ، بينما تكدّست على مقربة منه حقيبتين جيدتين بأقفال لامعة وحقيبة أخرى مستطيلة وكبيرة كذلك النوع من الحقائب التي تستعمل لحمل الترومبون .

«حسنا ، هل ترى أي شيء؟» همس المدير وهو ينحني بالقرب منه ، تفوح منه رائحة زهر الزنبق كما في قبر مفتوح . أومأ سنسيناتوس على الرغم من أنه لم يرَ بعد الأمر المثير لانتباهه ، حوّل نظرته إلى اليسار ليرى حقًا شيئا ما .

كان يجلس على كرسيّ على جانب الطاولة ، كان ثابتا كما لو أنه مصنوع من حلوى ، كان رجلاً أمرد ممتلئا قليلا ، في حوالي الثلاثين من عمره ، كان يرتدي بيجامة سجن قديمة الطراز لكنها نظيفة وقد كويت حديثًا ، كانت كل ملابسه مخططة ، جوارب مخططة ، ونعال مغربية جديدة ، وقد ترك باطن قدمه مكشوفا بينما يجلس شابكا احدى ساقيه القصيرتين الثخينتين فوق الأخرى وهو يمسك مقدم ساقه بيديه البدينتين ، كان هناك زبرجد شفاف يلمع على اصبعه الصغير ، كان شعره الأشقر الجميل مفروقا وسط رأسه المستدير الرائع ، وتلقي رموشه الطويلة ظلالا على خده الملائكي ، بينما يلتمع بياض أسنانه المستوية الرائعة بين شفتيه القرمزيتين . بدا كما لو أنه كلّه مكسو بجليد لامع مبهر لم يذب منه سوى القليل عبر رمح من أشعة الشمس يسقط عليه من فوق . لم يكن هناك شيء على الطاولة باستثناء ساعة سفر أنيقة موضوعة في علبة جلديّة .

«هذا يكفي الآن» همس المدير بابتسامة «أريد أن أرى أنا

أيضًا» ومن ثم ألصق نفسه بالثقب المضيء . عبّر روديون بالإشارة لسنسيناتوس أن الوقت قد حان للعودة لمكانه . كانت الشخوص الظلالية للموظفين تقترب بإجلال في صف موحد : وخلف المدير كان هناك بالفعل طابور كامل من الأشخاص الذين ينتظرون لإلقاء نظرة ، وقد جلب بعضهم معه أكبر أبنائه .

«لا شك نحن نفسدك بالدلال» غمغم روديون في نهاية الأمر ، وقد بقي لمدة طويلة وهو عاجز عن قفل باب زنزانة سنسيناتوس ، حتى كرّمه ببضعة شتائم روسية قوية حرّكت القفل .

ومن ثم أصبح كل شيء هادئًا . لم يتغير شيء كما هو الحال دائمًا .

قال سنسيناتوس بصوت عال «لا ، ليس كل شيء ، فأنت ستأتين غدًا» وهو لا يزال يرتجف من أثر بهجته الحديثة . «ما الذي سأقوله لك» قال مواصلا تفكيره ، وغمغمته وارتجافه . «ما الذي ستقولينه لي؟ على الرغم من كل شيء فقد أحببتكِ ، وسأظل أحبكِ ، راكعا على ركبتي ، وكتفاي مسحوبان للخلف ، مظهرًا عقبا قدميّ للجلاد وهو يخنق رقبتي النحيلة ، حتى ذلك الحين . وبعد ذلك -لربما أكثر من كل شيء بعدئذ- سأحبكِ ، ويوما ما سنحظى بتفسير حقيقي ، شامل ومن ثم ربما سنناسب بعضنا بطريقة أو بأخرى ، أنت وأنا ، ونحول أنفسنا بهذه الطريقة إلى قالب واحد ، ونحلّ اللغز : ونرسم خطا من النقطة أ إلى النقطة ب . . . من دون النظر ، أو من دون أن نرفع قلم الرصاص . . . أو بطريقة ما أخرى . . . لا بد علينا من أن نصل النقاط ببعضها ، ونرسم الخط ، وأنا وأنت سنشكّل هذا التصميم الفريد الذي أتوق له . لو أنهم كانوا يفعلون مثل هذه الأشياء معي كل صباح ، لوجدوني أُحسن

التصرف وسوف أصبح هادئا تمامًا طوع أمرهم» .

شعر سنسيناتوس بنوبة تثاؤب ، وانهمرت الدموع على خديه ، بينما لا تزال تلك الانتفاخات ، الواحدة بعد الأخرى متورمة تحت حنكه . لقد كان التوتر العصبيّ ، فلم يكن نعسانًا . كان عليه أن يجد شيئا ما لإبقائه مشغولا حتى الغد ، والكتب الجديدة لم تصل بعد . لم يكن قد أعاد الفهرس بعد . . .آه ، نعم . . . الخربشات الصغيرة! ولكن الآن ، في ضوء مقابلة الغد . . .

كان هناك خط طفوليّ ، لا شك أنه لإيمي ، قد رسم مجموعة من الصور ، تشكل (كما بدت لسنسيناتوس بالأمس) حكاية مترابطة ، وعدًا ، عينة من الخيال . أولا كان هناك خط أفقي ، أعني ، الأرضية الحجرية ، عليها كان هناك كرسيّ بدائي يشبه حشرة إلى حد ما ، وفي الفوق كان هناك حاجز مشبّك مرسوم بستة مربعات . ثم تأتي نفس الصورة لكن مع إضافة قمر كامل ، كانت زوايا فمه تتدلى بمرارة وراء حاجز القضبان . بعد ذلك كان هناك مقعد يتألف من ثلاثة أرجل مع سجّان بلا عيون (وبالتالي كان نائمًا) يجلس عليه ، على الأرضية ، كانت هناك حلقة بستة مفاتيح . من ثم تأتي نفس حلقة المفاتيح لكنها أكبر قليلا ، مع يد ، خماسيّة الأصابع كبيرة للغاية وفي كمّ قصير تصل إليه . وهنا يصبح الأمر مثيرا . في الرسم التالي يبدو الباب مواربًا ، وورائه كان هناك شيء يبدو مثل شوكة طائر ، كل هذا كان تحت مرمى بصر السجين الفارّ . ثم هو نفسه ، مع رموز فواصل على رأسه بدلا من الشعر ، وفي ثوب صغير أسود ، مرسوما بأفضل ما يستطيع الرسام بمثلث متساوي الساقين ، كانت تقوده فتاة صغيرة بساقين رفيعتين كالأعواد ، وتنورة متموجة وخطوط متوازية للشعر . ثم هناك رسمة

مرة أخرى ، فقط في شكل تخطيط ، مربع يمثل الزنزانة ، وخط ملتو للممر مع صف من النقاط يشير إلى الطريق حيث ينتهي بسلالم تشبه آلة الكورديون . وأخيرا تأتي الخاتمة : البرج المظلم وفوقه قمر سعيد حيث زوايا فمه تميل للأعلى .

لا ، ليس هذا سوى خداع نفسيّ ، هراء . الطفلة كانت تخربش بلا هدف . . . دعنا نستنسخ العناوين ونضع الفهرس جانبًا . نعم ، الطفلة . . . بطرف لسانها وهو يشير إلى الزاوية اليمنى من فمها ، وهي تمسك بإحكام القلم الصغير الثخين ، وهي تضغط عليه بإصبع ابيّض من الجهد . . . ثم ، بعد ايصال خط معين بنجاح ، مالت للخلف وهي تلف رأسها لهذا الاتجاه ثم تهز كتفيها وتعود إلى العمل على الورقة ، وهي تحول لسانها إلى الزاوية اليسرى . . . بجهد جهيد . . . هراء ، دعنا لا نتأمل في الأمر أكثر من ذلك . . .

محاولا أن يفكر في وسيلة لقضاء الساعات الثقيلة ، قرر سنسيناتوس أن ينظّف ويرتب نفسه للقاء الغد مع مارثا . وافق رودیون على أن يذهب لحوض استحمام آخر مثل ذلك الذي استحم فيه سنسيناتوس عشية المحاكمة . جلس سنسيناتوس على الطاولة في انتظار المياه ، واليوم كانت الطاولة مهتزة قليلا .

«المقابلة» كتب سنسيناتوس «تعني ، في جميع الأحوال ، أن صباحي الرهيب قد اقترب بالفعل . بعد يوم الغد ، في نفس هذا الوقت ، ستكون زنزانتي فارغة . لكنني سعيد لأنني سأراكِ . لقد اعتدنا على الذهاب لعملينا عبر سلالم مختلفة ، كان احداها مخصصا للرجال والآخر للنساء ، لكنهما كان يلتقيان في استراحة الدرج قبل الأخيرة . لم أعد أستطيع استحضار مارثا كما كانت

عندما التقيت بها لأول مرة ، لكنني أستطيع تذكر أنني لاحظت احدى المرات أنها تفتح فمها قليلا لهنيهة قصيرة قبل أن تضحك ، وعيناها العسليتان المستديرتان ، وأقراطها المرجانية ، آه ، إني لأرغب حقا في استعادة تفاصيلها كما كانت ، كلها من جديد لتبقى حيّة في مخيلتي -ثم هناك النعومة المتدرجة- تلك الانحناءة بين خدها وعنقها عندما تدير رأسها نحوي ، مجرد تذكرها يثير الدفء في قلبي وكأنها أمامي الآن . عالَمها . يتكون عالمها من عناصر بسيطة اجتمعت مع بعض ببساطة ، أعتقد أن أبسط وصفة في كتاب طبخ أكثر تعقيدا من العالم الذي تخبزُ فيه وهي تدندن ، كل يوم من أجل نفسها ولي وللجميع . ولكن حتى ذلك الحين ، في الأيام الأولى -بشأن الكراهية والعناد اللذان فجأة . . . كانت لطيفة جدا ، ممتعة ودافئة جدا ، من ثم فجأة . . . في البداية اعتقدت أنها كانت تفعل ذلك عمدًا ، ربما لتظهر كيف يصبح المرء عنيدا وشرس الطباع لو كان في مكانها . هل لك أن تتصور مدى اندهاشي عندما أدركت أن هذه هي ذاتها الحقيقية! من أجل أيّ توافه؟ يا صغيرتي الحمقاء ، كم كان رأسك صغيرًا ، لو كان المرء يحسّ بشيء عبر كل هذه الكتلة الكثيفة الكستنائية لكانت تعرف كيف تنقل العذوبة البريئة مع البريق الأنثوي أعلى رأسها . «زوجتك الصغيرة تبدو هادئة ولطيفة جدا لكنها تعضّ ، لقد أخبرتك» قال لي عشيقها الأول الذي لا أنساه ، والشيء الأساسي هو أن الفعل في قوله يعض لم يكن مجازًا . . . لأنه كان صحيحا أنه في لحظة معينة . . . هذه هي واحدة من الذكريات التي ينبغي للمرء أن يبتعد عنها ، وإلا ستقهرك وتسحقك . مارثا الصغيرة فعلتها مرة أخرى . . .وفي احدى المرات رأيتُ ، رأيتُ ، رأيتُ -من الشرفة

رأيتُ- ومنذ ذلك اليوم لم أدخل أي غرفة أبدا من دون أن أعلن عن اقترابي من بعيد بسعال أو هتاف لا معنى له . كم كان فظيعًا أن ألمح هذا التلوي ، هذا التسرّع اللاهث ، كل هذا كان لي في الخلوة المظللة من حدائق تمارا وهذا ما فقدته بعد ذلك . أعدّد كم كان لديها . . . عذابٌ لا حد له ، عندما تتحدث على العشاء مع واحد أو آخر من عشاقها ، تبدو سعيدة ، تلقي النكات والطُرف وطيلة هذا تكون خائفة جدا من أن أنحني لأسفل لرؤية النصف السفليّ لهذا الوحش الذي كان نصفه العلويّ أنيقا تماما ، له مظهر امرأة شابة ورجل شاب يمكن رؤيته أسفل على الخصر عند الطاولة ، يأكل ويدردش بهدوء ، بينما كان نصفه السفليّ حيوانًا مسعورا رباعيّ الأرجل . نزلت إلى الجحيم كي أسترد منديلا سقط . في وقت لاحق ستقول مارثا عن نفسها (بضميرِ الجمع المتكلم هذا) : «نحن خجلون للغاية لأنه قد تم رؤيتنا» وتتجهم . وما زلتُ أحبك . على نحو لا مفرّ منه ، محتوم ، وميؤوس منه . . . ما دامت أشجار السنديان تقف في تلك الحدائق ، سأظل . . . عندما قدموا لك دليلا رسميا على أنني لم أعد مرغوبا فيه ، أنه يجب عليّ أن أبقى بعيدًا -كنت مندهشة لأنك لم تلاحظي شيئا من هذا بنفسك- وبعد ذلك كان من السهل جدا أن أخفيه عنكِ! أتذكر كيف كنت تتوسلين لي بأن أصلح نفسي ، من دون فهم حقيقي ما الذي كان فيّ ويستوجب الاصلاح وكيف يمكن للمرء أن يقوم بذلك ، وحتى الآن أنت لا تفهمين أي شيء ، ولا تتوقفين لحظة للتفكير ما إذا فهمتِ أم لا ، وعندما تتسائلين ، فإن تسائلك لا يبعثك على القلق . ومع ذلك فعندما بدأ حاجب المحكمة التجول في قاعة المحكمة مع القبعة ، ألقيتِ أنت أيضا قصاصتك من الورق» .

عندما تأرجح الحوض على رصيف الميناء ، انبعث فوقه بخار بريء مبهج مغرٍ . وباندفاع ، بحركتين سريعتين أخذ سنسيناتوس نفسا عميقا ووضع الأوراقَ المليئة جانبًا . استخرج من خزانته المتواضعة منشفة نظيفة . كان سنسيناتوس ضيئلا جدا ونحيلا لهذا كان قادرا على أن يدخل جسده كله في حوض الاغتسال . جلس هناك كما لو أنه في زورق وطفا بهدوء . أثار شعاع مسائيّ أحمر مختلطا مع البخار رجفة ملوّنة في العالم الصغير للزنزانة الحجرية . بوصوله للشاطئ وقف سنسيناتوس وخرج إلى الأرضَ . وبينما كان يجفف نفسه كان يعاني من الدوخة وخفقان القلب . كان نحيلا جدا والآن بينما ضخّم ضوء الشمس الغاربة ظلال ضلوعه ، بدت بنية قفصه الصدري احتفالا من الألوان الغامضة لأنها أظهرت الطبيعة المخططة لما يحيط به ، لسجنه . يا لصغيري المسكين سنسيناتوس . وبينما كان يجفف نفسه محاولا أن يجد بعض التسلية في جسده ، ظل يتفحص عروقه ولم يستطع إلا أن يفكر في أن السدادة ستنتزع قريبًا وستنساب كل المحتويات للخارج . كانت عظامه خفيفة ورفيعة ، وأظافر أصابعه الوديعة (آه يا أحبائي ، أيتها الكائنات البريئة) كانت تحدق فيه بفضول طفوليّ ، وهكذا جلس على السرير -عاريًا ، كل ظهره النحيل ، من العصعص إلى فقرات العنق ، كان مكشوفا للمراقبين على الجانب الآخر من الباب (كان يستطيع سماع الهمسات ، وحفيف الحركات وصوت نقاش هذا الأمر أو ذاك ؛ لكنه لم يأبه لهم ، دعهم ينظرون) ، مرّ سنسيناتوس بفترة شباب مريضة -حتى خلف رأسه ، بقفاه المجوّف وخصلات شعره الرطبة كان صبيانيا- وقريب المنال على نحو خاصٍ . من الحقيبة نفسها أخذ سنسيناتوس مرآة صغيرة وقنينة من

الماء المزيل للشعر الذي كان يذكره دائما بتلك الشامة المشعرة الجميلة التي تملكها مارثا على جنبها . فركه على خديه الشائكين ، مزيلا الوخز منهما وتجنب بعناية الشوارب .

والآن ، أصبح جميلا ونظيفا . تنفس السعداء وارتدى قميص النوم الجميل ، وهو يعبق برائحة الاغتسال المنزليّ .

اشتدت العتمة . استلقى على السرير وظل طافيًا . وفي الساعة المعتادة أشعل روديون الأضواء وأخذ الدلو والحوض . أنزل العنكبوت نفسه على خيط واستقر على الاصبع الذي مدّه روديون للوحش الصغير المشعّر وهو يدردش معه كما لو أنه كناري . في ذات الوقت ظل الباب بجانب الممر مواربا وفجأة تحرك شيء ما هناك . . . لوهلة ظهرت الأطراف المجدولة لخصلات شعر مصفرة تتدلى ، من ثم اختفت عندما تحرك وهو ينظر إلى البهلوان الأسود الصغير وهو يتراجع ليختفي تحت قبة السيرك . كان الباب لا يزال مفتوحا حتى الربع . تحرك روديون البدين بمئزره الجلدي ولحيته الحمراء الغريبة بتثاقل داخل الزنزانة وعندما بدأت الساعة (والآن بدت أقرب بسبب الاتصال المباشر) بحشرجة صوتها الأجش قبل أن تدقّ ، استخرج ساعة سميكة من فجوة في حزامه وفحص الوقت . من ثم وهو يعتقد أن سنسيناتوس نائم ، راقبه لمدة طويلة وهو يميل على مكنسته كما لو أنه يستند على رُمح طَبَر[1] . عندما خلُص إلى استنتاجات من يدري ما تكون ، تحرك . . وحينئذ فقط بصمت وليس بسرعة كبيرة تدحرجت كرة زرقاء-حمراء عبر الباب ،

---

(١) رُمح طَبَر = سلاحٌ مؤلَّف من فأس حَرْب (أو طَبَر) مُرَكّبة على رُمح ، من أسلحة العصور الوسطى . المترجم .

وصلت إلى احدى أرجل مثلث قائم الزاوية مباشرة تحت السرير ، اختفت للحظة لترتطم بوعاء الغرفة وتتدحرج مرة أخرى على طول المعامِد[1] ها هي ذا نحو روديون الذي من دون أن يلاحظها تماما ركلها بلا عمد بينما كان يخطو ، من ثم مُتبعةً الوتر[2] مضت الكرة عبر نفس الشقّ الذي دخلت منه . وهو يحمل المكنسة على عاتقه ، غادر روديون الزنزانة . أُطفئت الأضواء .

لم ينم سنسيناتوس ، لم ينم ، لم ينم -كلاّ ، لقد كان نائمًا ، لكن مع تنهيدة اندفعت خارجا مجددا- والآن مرة أخرى لم ينم ، نام ، لم ينم ، واختلط كل شيء .

مارثا ، وَضم الجلاّد ، ثوبها المخملي ، وكيف سيبدو . . . وماذا سيكون؟ قطع رأس أو لقاء أحبة؟ اتحد كل شيء معا تماما ، لكنه لم يفتح عينيه أكثر من طرفة عين أخرى عندما أشعل روديون الضوء ودخل على رؤوس أصابعه ، وأخذ الفهرس في غلافه الأسود من الطاولة ، وغادر ، وحلّ الظلام مجددا .

---

(١) مُعامِد : أحدُ الضِّلعين المُتعامِدَيْن في مُثلّثٍ قائم الزاوية . المترجم .

(٢) وَتَرٌ ، الضِّلْعُ الأَكبرُ في مُثَلّثٍ قائمِ الزّاوِيَةِ . المترجم .

الفصل السادس

ماذا كان ، من بين كل شيء رهيب ، ليليّ ، ثقيل ، ماذا كان هذا الشيء؟ استمر لمدة قبل أن يتنحى جانبا ، وعلى مضض خضع لعربات النوم الضخمة والثقيلة ، والآن كان أول ما هرع عائدا -ممتعا جدا ، ممتعا غاية الامتاع- انتفخ ، نما ليبدو أكثر وضوحا غامرًا قلبه بالدفء . ستأتي مارثا اليوم! .

عندئذ أتى روديون برسالة أرجوانية على صينية كما يفعلون في المسرحيات . جثم سنسيناتوس على السرير وقرأ الآتي : «مليون اعتذار! خطأ لا مبرر له! عند الرجوع إلى نص القانون تبين أن المقابلة يسمح بها فقط بعد انقضاء أسبوع واحد على المحاكمة . لذلك فإننا سنؤجلها حتى الغد . أتمنى لك كل الصحة ، الولد الكبير ، تحياتي . لم يتغير شيء هنا ، قلقٌ بعد الآخر ، الطلاء المرسل لصناديق الحراسة مرة أخرى تبين أنه لا قيمة له ، الأمر الذي كنت قد كتبت عنه بالفعل لكن من دون جدوى» .

كان روديون ، محاولا تحاشي النظر إلى سنسيناتوس ، يجمع أطباق الأمس من الطاولة . لا بد أنه يوم كئيب ، كان الضوء الداخل من الأعلى رماديا ، وملابس روديون الشَفوق الجلدية السوداء تبدو مُقبضة وقاسية .

«حسنا « قال سنسيناتوس «كما ترغب ، كما ترغب . . .أنا عاجز على أية حال» . (أما سنسيناتوس الآخر . . . الذي كان أصغر قليلا ، فقد كان يبكي ، ملتفا على شكل كرة) «لا بأس ، ليكن في

الغد . لكنني أود أن أطلب منك أن تتصل بـ . . .»

«على الفور» بادر روديون بابتهاج ونشاط يبدو وكأنه كان ينتظر هذا بالضبط ، كان على وشك الاندفاع خارجا عندما ظهر المدير ، الذي كان ينتظر نافذ الصبر على الباب ، قبل ذلك بجزء من الثانية ، وهكذا اصطدما .

كان رودريغ إيفانوفيتش يمسك بتقويم الحائط ولم يكن يعرف أين يضعه .

«مليون اعتذار» هتف «خطأ لا مبرر له!» ، «عند الرجوع إلى نص القانون . . .» بعد أن كرر رسالته حرفيًا ، جلس رودريغ إيفانوفيتش عند قدم سنسيناتوس وأضاف بسرعة «على أية حال يمكنك تقديم شكوى ، لكنني أعتبر أن من واجبي أن أحذرك من أن المجلس القادم سينعقد في الخريف ، وبحلول ذلك الوقت ستتدفق الكثير من المياه ، -وليس فقط المياه- من على السد . هل اتضحت لك الصورة؟» .

قال سنسيناتوس «لا أنوي تقديم شكوى ، لكنني أود أن أسألك هل هناك في «ما يسمى» نظام «لما يدعى» الأمور في «ما يسمى» عالمك ما يتضمن حتى شيئا واحدا يمكن اعتباره ضمانًا بأنك سوف تفي بوعد ما؟» .

«وعد؟» سأل المدير مندهشًا ، وهو يتوقف عن ترويح نفسه بالجزء المقوّى من التقويم (الذي يمثل القلعة عند غروب الشمس بألوان مائية) . «أيّ وعد؟»

«أن زوجتي سوف تأتي غدا . إذًا لن توافق على ضمانه في هذه الحالة ، لكنني سأصيغ سؤالي بشكل عام : هل هناك في هذا العالم ما يمكن أن يكون أي نوع من الضمان على الإطلاق ، أي

تعهد بأي شيء ، أو أن فكرة الضمان بحد ذاتها مجهولة هنا؟» .

صمت .

«أليس من السيئ جدا لو أن رومان فيساريونوفيتش سمعك؟» قال المدير . «إنه طريح الفراش يعاني نزلة برد ، ويبدو أنها من النوع الخطير حقًا . . .»

«لدي احساس أنك لن تجيبني بأي ثمن ، هذا منطقي ، بما أن حتى اللامسؤولية تطوّر في النهاية منطقها الخاص بها . لمدة ثلاثين عامًا عشت بين أطياف تبدو صلبة الملمس ، وأنا أخفي عنهم حقيقة أنني حيّ وحقيقيّ ، لكن الآن وقد تمّ القبض عليّ ، لا يوجد أي سبب لكي أكون متكلفا معك . على الأقل سأختبر بنفسي كل هذه الأوهام من عالمك» .

نظّف المدير حنجرته وغادر كما لو أن شيئا لم يحدث . «خطيرة جدا ، في الحقيقة لدرجة أنني كطبيب لست متأكدا ما إن كان قادرا على حضور -أعني ، ما إن كان يستطيع أن يتعافى في الوقت المناسب- أو إذا كان يستطيع أن يشهد عرضك . . .» .

«اذهب بعيدا» قال سنسيناتوس وهو يصرّ أسنانه .

«لا تكن كاسِف البال» تابع المدير . «غدا ، غدا سيصبح الشيء الذي تحلم به حقيقة . . .إنه تقويم لطيف ، أليس كذلك؟ عملٌ فني . كلا ، إنه ليس لك» .

أغلق سنسيناتوس عينيه . وعندما فتحهما مجددا ، كان المدير يقف في وسط الزنزانة وظهره نحوه . المئزر الجلديّ واللحية الحمراء ، من الواضح أن روديون قد تركها ورائه ، لا تزال مبعثرة فوق الكرسي .

«اليوم علينا أن نقوم على نحو خاص بعمل جيّد في تنظيف

مسكنك» قال دون أن يستدير «وذلك لإعداده لمقابلة الغد . . .وبينما ننظف الأرضية هنا ، سأطلب منك . . .»

أغلق سنسيناتوس عينيه مرة أخرى وأصبح الصوت أقل حدّة ومضى يقول : « . . .سأطلب منك أن تخرج إلى الممر . لن يستغرق الأمر طويلا . دعنا نبذل جهدا حقيقيًا ، وهكذا سيكون في الغد ، على نحو ملائم ، نظيفا ورائعا واحتفاليّا . . .»

«اخرج» صرخ سنسيناتوس وهو ينهض ويهزّ رأسه كله .

«مستحيل البتة» أعلن روديون بصوت جاد رافق صوت ربط أحزمة مئزره . «لا بد علينا من القيام ببعض العمل هنا . ألقِ فقط نظرة على كل هذا الغبار . . .ستقول لي شكرا أنت ذاتك» .

تفحص نفسه في مرآة الجيب ولبّد بعض الشعيرات على خديه وفي الأخير اقترب من السرير وسلّم سنسيناتوس أغراضه . كانت النعال محشوّة بعناية بالورق المكدس بينما كان طرف المِبذل مطويا ومثبتا بدقة . قام سنسيناتوس وهو غير مستقر تماما على قدميه بارتداء ملابسه ومعتمدا قليلا على ذراع روديون خرج إلى الممر . هناك جلس على المقعد وهو يطوي ذراعيه في أكمامه كرجل مريض . تاركا باب الجناح مفتوحا على مصراعيه ، بدأ روديون بالتنظيف . وضع الكرسي فوق الطاولة وانتزع الغطاء من على السرير ، صلصل مقبض السطل ، اندست المسودة بين الأوراق على الطاولة وانزلقت احدى الصفحات على الأرضية . «فيما تفكّر بكآبة أنت هناك؟» صاح روديون وهو يرفع صوته فوق ضجيج الماء ، والخوض فيه والجلبة «عليك أن تتمشى قليلا على طول الممرات هناك . .امضِ ، لا تخف -سأكون هنا في حال وقع أي شيء- كل ما عليك فعلهَ أن تصرخ» .

نهض سنسيناتوس بإذعان من على المقعد لكنه بالكاد تحرك على طول الجدار البارد -بلا شك أن البرد جراء الصخرة التي شيدت عليها القلعة- وبالكاد تمشى بضع خطوات (وأيّة خطوات! واهنة ، منعدمة الوزن ، خانعة) وبالكاد ودع روديون ، الباب المفتوح والدلاء التي كان مرآها ينحسر عنه عندما شعر سنسيناتوس بموجة من الحرية . تدفق المزيد منها أكثر عندما استدار نحو الزاوية . باستثناء بقع وشقوق مبللة لم تكن الحيطان الجرداء مزينة بأي شيء ، فقط في أحد الأماكن خُربش بلون أصفر باهت بفرشاة دهان منزلية «تجربة فرشاة ، تجربة فر . . .» مع شريط قبيح من الدهان تحتها . جرّاء هذا الجهد غير المعتاد من المشي بمفرده بدأت عضلات سنسيناتوس بالارتخاء وكانت هناك غرزة في جانبه .

عندئذ توقف سنسيناتوس وجال بنظره من حوله كما لو أنه قد دخل للتو هذه العزلة الحجرية استجمع كل ارادته واستحضر كل ما لديه من حياة وسعى ليفهم حالته بأقصى قدر من الدقة . أُتهم بأبشع الجرائم ، الفساد الغنوصيّ[1] ، من النادر جدا وعلى نحو

---

(١) استعمل نابوكوف هذه التهمة لبطله سينسناتوس بغموض صعّب عملية ترجمتها وفهمها حتى في نصها الأصليّ . العبارة الأصلية هي gnostical turpitude وتعني turpitude السفالة والدناءة وسقوط الأخلاق بينما تعني gnostical شيئا يتعلق بالغنوصية ، تُشتق كلمة الغنوصية من الكلمة اليونانية gnw,sij والتي تعني «المعرفة» ذلك أنها تدل على المعرفة السريّة لله التي يدّعي أتباع هذا المذهب امتلاكها . أما الغنوصيّة فتدلّ على البدع (من وجهة نظر المسيحية) التي ظهرت في القرنين الثاني والثالث والتي أنشأت ، انطلاقاً من بحوث العرفان (المعرفة السريّة) ، وهي أنظمة فكريّة تخلط =

يصعب للغاية وصفه أن يكون ضروريا استخدام ألفاظ تدور حول المعنى مثل «اللا إختراقيّة»[1] ، «الغموض» ، «الاستغلاق» ، حُكم عليه من أجل هذه الجريمة بالإعدام بقطع الرأس . وسُجن في القلعة في انتظار تاريخ مجهول لكنه قريب ومحتوم (الذي كان ينتظره بلا ريب مثل ليّ وخلع وسحق سنٍّ رهيب ضخم ، حيث أن كل جسده هو اللثة الملتهبة ورأسه هو ذاك السّن) واقفا الآن في ممر السجن بقلب واهنٍ -لا زال حيا ، لا زال سليمًا ، لا يزال سنسيناتيًا- شعر سنسيناتوس س . بشوق شديد للحرية ، النوع العادي جدا ، المادي ، النوع المادي المعقول للحرية ، على الفور تخيّل بمثل هذا الوضوح الحسيّ كما لو أن هالةً متذبذبة تنبعث منه ، المدينة وراء النهر الضحل ، المدينة ، من كل نقطة يستطيع المرء أن يراها بها ، الآن من هذا الأفق ، والآن من ذاك ، الآن مصورة بالكربون ، والآن بالحبر- القلعة العالية التي كان فيها- ؛ كم كانت قوية جدا وعذبة للغاية هذه الموجة من الحرية لدرجة جعلت كل شيء يبدو أفضل مما هو عليه حقا : سجّانوه ، الذين كانوا في الوقت كل الناس ، بدوا أكثر لطفا ولباقة ، في الظاهرة الحبيسة لحياته سعى عقله للبحث عن درب محتمل ، تراقصت احدى أنواع الرؤى أمام عينيه ؛ مثل ألف ابرة ملوّنة من الضوء تحيط انعكاسا باهرا للشمس في كرة مطلية بالنيكل . . . واقفا على ممر السجن يرهف

= مذاهب التصوفية اليهوديّة والثنائية الزرادشتية بالعقائد المسيحيّة بالإضافة لاتجاهات ميتافيزيقية أفلاطونية وأفلاطونية جديدة . بالتالي آثرنا مجتهدين ترجمتها بالغنوصي وترجمة الكلمة الأولى بالفساد . المترجم .

(١) عَدمُ التأثُّر بالأفكار أو المؤثِّرات الخارجيّة . المترجم .

السمع إلى صوت الساعة الجهير الممتد ، التي كانت قد بدأت للتو تعدادها المتمهل للوقت ، تخيل حياةً في المدينة كما لو كانت ستكون في مثل هذه الساعة الصباحية الجديدة : مارثا ، وهي تخفض عينيها بينما تتمشى بسلة فارغة من المنزل على طول الرصيف الأزرق ، يليها على مسافة ثلاثة خطوات فتى أنيق أسود الشارب ، العربات الكهربائية على شكل بجعات أو جندولات حيث يمكنك أن تجلس كأنك على مهد أرجوحة ، ظلت تنزلق على المجرى اللانهائي على طول الجادّة ، تم أخذ الأرائك والكراسي ذات الذراعين من مخازن الأثاث للتهوئة ، كان أطفال المدارس المارين بجانبها قد جلسوا فوقها ليستريحوا ، بينما شحنت العربة اليدوية للخادم الصغير بكل كتبهم ، وهو يمسح جبينه كأنه عامل بالغ ، تعمل بالنوابض ، كانت هناك «سويعات» clocklets بمقعدين كما يسمونها هنا في الأرياف ، تدقّ على طول الميناء المرشوش حديثا (يجعلونك تفكر أنها السلالة المنحطة لآلات الماضي ، لتلك السيارات الرائعة المصقولة المصطفة بانتظام . . .ما الذي جعلني أفكر في هذا؟ آه ، أجل ، الصور في المجلات) ، تلتقط مارثا بعض الفاكهة ، كان هناك خيول رهيبة ، خائرة القوى توقفت منذ زمن طويل عن الاندهاش لرؤية الجحيم ، كانت تنقل السلع من المصانع إلى الموزعين في المدن ، وباعة الخبز في الشوارع ، بقمصان بيضاء ، ووجوه مصفّرة يصرخون وهم يقذفون أرغفة الخبز عصوية الشكل ، يقذفونها عاليا في الهواء ، ثم يمسكونها ويديرونها مجددا ، على احدى النوافذ التي كانت مزينة بنباتات الوِسْتارية كان هناك أربعة عمّال تلغراف مبتهجين يقرعون الكؤوس ويشربون الأنخاب في صحة الماريّن بهم : ظريف شهير ، شره ، عجوز مختال في سراويل

حريرية حمراء ، يلتهم شرائح اللحم المقلية بنهم عند جناح في الليسر بوندس ، كانت السحب متناثرة ، وبصحبة الفرقة النحاسية ، مضى ضوء الشمس المبرقش على طول الشوارع المنحدرة ، ممتدا إلى الأزقة الجانبية ؛ كان المشاة يسيرون بخفة ، تنبعثُ رائحة أشجار الزيزفون والكربورين النفطي والحصى المبلل في الهواء بينما كانت النافورة الدائمة عند ضريح الكابتن سومنس تروي بغزارة برذاذها الكابتن الصلد ، والنقش النافر عند قدميه الضخمتين ، والزهور المهتزة ؛ تسير مارثا وعيونها منخفضة لأسفل ، عائدة للمنزل تحمل سلة مليئة ، يتبعها على مسافة ثلاثة خطوات غندور أشقر الشعر . . .هذه هي الأشياء التي رآها سنسيناتوس وسمعها عبر الجدران بينما الساعة تدقّ ، وحتى وإن كان في الواقع كل شيء في المدينة هادئا تماما على الدوام ومروعا عند مقارنته بالحياة السرية لسنسيناتوس وتوّهجه المُذنب ، حتى على الرغم من أنه يعرف هذا جيدا تماما ويعرف أيضا أنه ما من أمل ، إلا أنه في هذه اللحظة لا يزال يتوق إلى أن يكون في هذه الشوارع الساطعة المألوفة . . .لكن حينئذ أكملت الساعة دقاتها ، وأعتمت السماء الخيالية وعاد السجن بالقوة .

حبس سنسيناتوس أنفاسه وتحرك ، توقف مجددا ، أرهف السمع ، في مكان ما في الأمام ، على مسافة غير محددة ، كان هناك نقر .

كانا صوتا ايقاعيًا ، سريعا ، وحادا ، سنسيناتوس وكل أعصابه مهتاجة ، سمع فيه دعوةً . مضى قُدما ، بانتباه شديد ، على نحو أثيريّ وشفاف ، التفّ على ما لم يحصه من الزوايا . توقفت الضجة ، لكن يبدو أنها أصبحت أقرب ، كطائر نقّار خشب

لامرئي . تَبْ ، تَبْ ، تَبْ . سارع سنسيناتوس خطاه ، ومرة أخرى التوى الممر المظلم . فجأة أصبح مضيئا -على الرغم من أنه ليس كضوء النهار- والآن أصبحت الضجة واضحة ومعتدة بنفسها تقريبًا . هناك إلى الأمام ، في فيض من الضوء الشاحب ، كانت إيمي تقذف الكرة على الحائط .

في هذا المكان ، كان الممر واسعا ، وفي البداية ظهر لسنسيناتوس أن الجدار الأيسر يحتوي على نافذة واسعة وعميقة كان يتدفق منها كل هذا الضوء الاضافي الغريب . إيمي وبينما تنحني لتستعيد كرتها ، وفي نفس الوقت لكي ترفع جوربها ، نظرت إليه بدهاء وحياء . بينما ظلّ الزغب الأشقر الصغير منتصبا على ذراعيها ومقدم ساقيها العاريين . التمعت عيناها بين رموشها المبيضّة . والآن استقامت واقفة وهي تميط خصلات شعرها الكتّاني المجعدة من على وجهها بنفس اليد التي كانت تمسك الكرة .

«لم يكن عليك أن تأتي هنا» قالت وكان لديها شيء ما في فمها ، كان يتدحرج خلف خدها ويصطدم بأسنانها .

«ما الذي تمصينه؟» سأل سنسيناتوس .

أخرجت إيمي لسانها ، وعلى طرفه المفعم بالحياة استقرت قطعة رائعة من حلوى البَرْبَاريس الحمراء الصلبة .

قالت «لدي المزيد منها» ، «هل تريد واحدة؟»

هز سنسيناتوس رأسه .

«لم يكن عليك أن تأتي هنا» كررت إيمي .

«لماذا؟» سأل سنسيناتوس .

هزت أحد كتفيها وكشّرت وقوست اليد التي تحمل بها الكرة ، وشدّت ساقيها ومضت نحو البقعة التي اعتقد هو أن هناك كوّة ،

نافذة ، وتململت ، لتظهر ساقيها فجأة وتضع نفسها على انعكاس يشبه العتبة من الصخر .

كلا ، لم يكن سوى ما يشبه النافذة ، في الحقيقة كان تجويفا لامعًا ، واجهة عرض ، وكانت تعرض في عمقها المزيف -أجل ، بالطبع ، أنى للمرء ألا يعرفها!- منظرا لحدائق تمارا . كان هذا المشهد مرسوما على عدة طبقات من المسافة ، وقد تم انجازه بمسحات من اللون الأخضر الضبابي وأنير بمصابيح مخفية ، يذكر إلى حد ما بَمْربى للأحياء البرِّيَّة أو أحد نماذج المشاهد المسرحية حيث تكمن أمام ستارتها أوركسترا تعمل بجدّ . كان كل شيء مصنوعا بدقة تامة بحيث أن التجميع والمنظور قد تم وضعه بالاعتبار ولو لم يكن بسبب خفوت الألوان وقمم الأشجار الجامدة والانارة الباهتة لكان بمقدور المرء تضييق عينيه وتخيل نفسه يحدق عبر كوّة من هذا السجن بالذات إلى تلك الحدائق بالذات . تتعرف النظرة المتسامحة على هذه الشوارع ، والاخضرار المجعد للبساتين ، والرواق ذو الأعمدة على اليمين ، أشجار الحور المنفصلة ، وفي وسط الزرقة غير المقنعة للبحيرة ، لربما كانت تلك النقطة الشاحبة بجعة . وبعيدا ، في الضباب المنمنم ، كانت التلال تحدودب على ظهورها المستديرة وفوقها في هذا النوع من السماء الزرقاء الباهتة التي عاش ومات تحتها الثِسبِسيّون[1] ، لا يزال السحاب الركامي واقفا هناك . وجميع

---

(١) ثيسبيان مُصطلَح يُقصد به الممثل الدرامي بمفهومه العامّي ، أي الممثل المسرحي ، أو الممثل الذي يلعب أدوارًا تراجيدية أو مأساوية فقط . المُصطلَح مشتَقّ من اسم ثيسبيس Thespis ، وهو شاعر يوناني قديم عاش في القرن السادس قبل الميلاد ، ويُعتقد أنه مؤسِّس التراجيديا اليونانية . المترجم .

هذا كان بشكل ما ليس جديدا ، قديما ومغطى بالغبار ، وكان الزجاج الذي ينظر من خلاله سنسيناتوس ملطخا بالبقع ، من النوع الذي يمكن ليد طفل أن ترممه .

«ألا يمكنكِ رجاءً أن تأخذيني هناك؟» همس سنسيناتوس «أتوسل إليك» .

كان يجلس بجانب إيمي على حجر الاسقاط وكلاهما كان يحدق في البعد الاصطناعي خلف الزجاج ، على نحو غامض ، استمرت بمتابعة الطرق الملتوية بإصبعها ، وكان شعرها يعبق برائحة الفانيلا .

«بابا قادم» قالت فجأة بصوتٍ أجش سريع ، من ثم قفزت إلى الأرضية واختفت .

وكان هذا صحيحًا : كان روديون يقترب ومفاتيحه تصلصل ، من الاتجاه المقابل للذي أتى منه سنسيناتوس (الذي اعتقد لوهلة أنه كان انعكاسا لمرآة) .

«للبيت سرٍ» قال مازحًا .

انطفأ الضوء وراء الزجاج وأخذ سنسيناتوس خطوة ، ناويا أن يعود من نفس الطريق الذي أتى منه .

«مهلا ، مهلا ، إلى أين أنت ذاهب؟» صاح روديون . «اذهب مباشرة ، سيكون أقصر في هذا الطريق» .

عندئذ فقط أدرك سنسيناتوس أن الالتواءات في الممر لم تكن لتقوده إلى أي مكان لكن بدلا من ذلك فقد كانت تشكّل مُتعدِّد سطوح ضخم ، والآن عندما التف عند الزاوية رأى بابه من على بعد وقبل أن يصله مر بالزنزانة حيث كان السجين الجديد محبوسًا . كان باب هذه الزنزانة مفتوحا على مصراعيه وفي الداخل

كان الرجل الضئيل المحبوب الذي رآه من قبل يرتدي بيجامته المخططة ، ويقف على كرسيه وهو يثبت التقويم على الجدار ، تَبْ ، تَبْ ، مثل نقّار الخشب .

«لا تختلسي النظر ، آنستي النزيهة» قال روديون بطيبة قلب لسنسيناتوس . «المنزل ، المنزل . ويا له من عمل تنظيف تم القيام به في منزلك ، هاه؟ والآن لن نخجل من أن نستقبل فيه الضيوف» .

يبدو أنه كان فخورًا لا سيما بحقيقة أن العنكبوت كان متوجا على عرشه في شبكة نظيفة صحيحة لا تشوبها شائبة ، والتي كانت قد خُلقت ، كما هو واضح ، منذ لحظة فقط .

الفصل السابع

صباح ساحر! بحرية ، دون الاحتكاك السابق ، دخل عبر الزجاج المشبك الذي نظفه روديون أمس . لا شيء يمكن أن يبدو أكثر بهجة من الطلاء الأصفر للجدران . غُطيت الطاولة بمفرش نظيف ، والذي لم يمكن متماسكا بعد بسبب الهواء تحته . كانت الأرضية الحجرية المرشوشة على نحو حرّ تزفرُ بنضارة مائية .

ارتدى سنسيناتوس أفضل ما لديه من الملابس -وبينما كان يسحب جواربه الحريرية البيضاء التي كان عليه ، عندما كان معلما أن يرتديها عند حضور الحفلات- جلب روديون مزهرية زجاجية مزخرفة ونديّة فيها زهور فاوانيا نضرة من حديقة المدير ووضعها على الطاولة ، في الوسط . . .كلا ، ليس في الوسط تماما ؛ بل انصرف وعاد في لحظات بمقعد مع كرسي اضافي ، ورتّب الأثاث بحكم وذوق وليس بطريقة عشوائية . كان يذهب ويعود عدة مرات ولم يجرؤ سنسيناتوس على أن يسأله «هل سيكون ذلك قريبًا؟» و- كما يحدث في تلك الساعة الخاملة على الأخص حيث الجميع مهندمين في ثيابهم وهم ينتظرون الضيوف- تمشى هنا وهناك والآن جثم عند زوايا غير مألوفة ، بعدها رتّب الزهور في المزهرية ، حتى أن روديون رقّ له آخر الأمر وأخبره أنه لم يبق الكثير الآن .

بحلول العاشرة تمامًا ، ظهر رودريغ إيفانوفيتش ، في أفضل حالاته ، يرتدي أجمل بذلة فْراك رائعة لديه ، فخمًا ، متحفظًا ، متحمسا لكنه هادئ ؛ وضع منفضة سجائر ضخمة وتفحص بعينيه

كل شيء (فقط ما عدا سنسيناتوس) ، كان يتصرف كرئيس خدم مستغرق في عمله ، والذي كان يمنح اهتمامه لنظافة الموجودات الجامدة فقط ، تاركا الموجودات الحيّة تتحرك بنفسها . عاد يحمل قنينة خضراء مزودة ببصلة مطاطية وبدأ يرشّ عطر الصنوبر وعن غير عمد كان يدفع سنسيانتوس جانبا عندما يكون هذا الأخير في طريقه . رتب رودريغ إيفانوفيتش الكراسي بطريقة مختلفة عن روديون ، وحدق لفترة طويلة ، متفرسا بقوة في مساندها الخلفية والتي لم تكن متطابقة ، أحدها كان على هيئة قيثارة والآخر كان مربعًا . نفخ خديه وترك الهواء يخرج مع صوت صفير ، وأخيرا استدار نحو سنسيناتوس .

«وماذا عنك؟ هل أنت جاهز؟» سأله . «هل وجدت كل ما تحتاجه؟ هل أبازيم حذائك مرتبة؟ لماذا هو متجعد أو ما شابه ، هناك؟ عار عليك ، دعني أرى كفيّك . حسن . الآن حاول ألا تتسخ . أعتقد أنه لم يبق الكثير الآن . . .»

غادر ، بينما ظل صوته النضر القويّ والجهير يتردد صداه عبر الممر . فتح روديون باب الزنزانة ، وثبته على هذه الحالة ، وبسط حصيرة كراميلية مخططة على العتبة . «لقد أتت» همس مع غمزة واختفى مرة أخرى . والآن سمع صوت مفتاح يقعقع ثلاثة مرات في مكان ما ، تناهى إلى مسامعه أصوات مختلطة ، بينما أثار نسيمٌ الشعر على رأس سنسيناتوس .

كان مضطربًا جدًا ، وشفتاه المرتجفتين تحاولان باستمرار تكلّف شكل ابتسامة . «من هذا الطريق . لقد وصلنا بالفعل» كان بإمكانه سماع التعليقات الجهورة للمدير ، وفي اللحظة التالية ظهر الأخير ، بأناقة يقود بمرفقه السجين المخطط الضئيل الممتلئ ، والذي قبل أن

يدخل ، توقف على الحصيرة ودون صوت صف قدميه في حذائه المغربيّ وانحنى بامتنان .

«اسمح لي أن أقدم لكم مسيو بيير» قال المدير لسنسيناتوس بنغمة مبتهجة . «ادخل ، ادخل ، مسيو بيير . لا يمكنك أن تتخيل كم كنا ننتظر-تعارفا إلى بعض أيها السادة- اللقاء الذي طال انتظاره- مشهد تنويري . . . رجاءً تحمّل معنا مسيو بيير ، لا تلمنا . . .»

لم يكن يعرف حتى ما الذي كان يقوله -كان يندفع مغمغما ، يتراقص ويتقافز ، يفرك يديه ، ويتفجر في ارتباك مبتهجٍ لأقصى حد .

انحنى مسيو بيير الذي كان هادئا للغاية ورابط الجأش ، مرة أخرى ، وعلى نحو آلي انضم إليه سنسيناتوس في مصافحة ، احتفظ الرجل الآخر بأصابع سنسيناتوس المنسلّة في راحة يده الصغيرة الناعمة لمدة صغيرة أطول من المعتاد -وكطبيب عجوز لطيف سحب يده من المصافحة ، بلطف شديد ، وعذوبة بالغة- والآن أفرج عنها .

أتى صوت رخيم ، عالي النبرة من حلق مسيو بيير يقول «أنا أيضا سعيد للغاية لأحظى بمعرفتكم أخيرًا . سأجرؤ على أن أطمح إلى أن نتعرف إلى بعضنا البعض على نحو أقرب» .

«بالضبط ، بالضبط ،» هدر المدير «أوه ، رجاءً ، تفضلوا بالجلوس . . .البيت بيتك . . .زميلك سعيد جدا لرؤيتك هنا لدرجة أنه لم يجد الكلمات ليعبّر بها» .

جلس المسيو بيير وهنا أصبح من الواضح أن ساقيه لا تصل إلى الأرضية تماما ؛ ومع ذلك فإن ذلك لم يتنقص على الأقل من

هيبته أو من تلك النعمة الخاصة التي تهبها الطبيعة لقلة مختارة من الرجال الضئيلين السمان . كانت عيناه اللامعتان الشفافتان تحدق بأدب في سنسيناتوس بينما كان رودريغ إيفانوفيتش الذي كان يجلس هو أيضا إلى الطاولة ، يضحك ضحكات مكتومة ، مهتاجا وثملا من البهجة ، ينظر من واحد لآخر ، وهو يتابع بجشع الانطباع الذي يبدو على سنسيناتوس إثر كل كلمة يقولها الضيف .

قال المسيو بيير : «أنت تشبه أمك على نحو رائع . شخصيًا لم أحظَ بفرصة رؤيتها ، لكن رودريغ إيفانوفيتش وعدني من لطفه أن يريني صورتها الفوتوغرافية» .

«في خدمتكم» قال المدير «سنحصل على واحدة من أجلك» .

تابع مسيو بيير : «على أية حال ، بعيدا عن هذا ، لطالما كان لدي شغفٌ بالتصوير الفوتوغرافي منذ أن كنت شابًا ، أنا الآن في الثلاثين ، وأنت؟»

«هو في الثلاثين بالضبط» قال المدير .

«كما ترى ، لقد كان تخميني صحيحًا . لذلك ، بما أنها هوايتك أنت أيضا ، دعني أريك . . .»

بخفة ، استخرج من جيب صدر بيجامته محفظة منتفخة ، ومنها حزمة سميكة من الصور الفوتوغرافية المنزلية من أصغر حجم . تصفحهم سريعا كما لو أنه يخلط حزمة بطاقات صغيرة ، بدأ بوضعها واحدة تلو الأخرى على الطاولة ، وكان رودريغ إيفانوفيتش يمسك بكل منها بهتاف مبتهج ، متفحصا إياها لمدة طويلة وببطء ، وهو لا يزال معجبا بالصورة الفوتوغرافية الأولى يمد يده ليأخذ التالية ويمرر الأخرى ؛ حتى على الرغم من أن من يمررها إليه لا زال هادئا وصامتًا . كانت الصور تظهر مسيو بيير ، مسيو بيير

في وضعيات مختلفة ، احداها في حديقة ، يحمل طماطم برايز ضخمة في يديه ، وأخرى وهو يجثم بأحد ردفيه على نوع من الدرابزين (صورة جانبية مع غليون) ، واحداها وهو يقرأ على كرسيّ هزاز ، كان هناك على مقربة منه كأس زجاجي بقَشّة شُرْب . . .

«ممتاز ، مذهل» كان رودريغ إيفانوفيتش يعلّق متزلفا وهو يهز رأسه ، وهو يمتع عينيه بكل صورة بل أنه يمسك اثنين منها في وقت واحد ويراوح نظره من واحدة لأخرى . «أوه ، أوه ، يا لها من عضلات لديك في هذه الصورة! من كان يتصور ، مع مظهرك اللطيف هذا . قاهِر! أوه ، كم هو ساحر ، أن تتحدث مع هذا الطائر الصغير!»

«إنه أليف» قال مسيو بيير .

«أكثر امتاعًا! ماذا تعرف . . . وهذا هنا . . . يأكل البطيخ ، غير ممكن!»

«يَب» قال المسيو بيير . «لقد رأيت بالفعل هذه الصور . إليك المزيد منها» .

«مذهل ، دعني أخبرك . اجلب لنا تلك الحزمة الأخرى ، فهو لم يرها بعد . . .»

«هنا أنا أتلاعب بثلاثة تفاحات» قال مسيو بيير .

«أليس هذا رائعًا!» قال المدير وهو يتمطق بلسانه .

«تلك في وجبة الإفطار» قال مسيو بيير . «هذا أنا ، وهذا والدي المرحوم» .

«أجل ، أجل ، بالطبع لقد عرفته . . .هذا المحيّا النبيل!» .

«هنا على ضفاف نهر سْتروب» قال مسيو بيير . «هل ذهبت هناك من قبل؟» قال وهو يستدير نحو سنسيناتوس .

«لا أعتقد أنه ذهب هناك» رد رودريغ إيفانوفيتش . «وأين التقطت هذه الصورة؟ يا له من معطف أنيق صغير! أتدري ، تبدو أكبر سنا في هذه الصورة . تمهل لحظة ، أود أن أرى تلك الصورة مرة أخرى ، التي فيها مِرَشَّة المياه» .

«هاك . . .هذا كل ما أحوزه» قال المسيو بيير ثم مرة أخرى خاطب سنسيناتوس : «لو كنت أعرف فقط أنك مهتم جدا بهذا الموضوع لكنت جلبت معي أكثر ، لدي عدد جيد من الألبومات» .

«رائع ، مذهل» كرر رودريغ إيفانوفيتش وهو يمسح عينيه بمنديل أرجواني اللون ، والتي تبللت جراء كل هذه الضحكات المكتومة المبهجة وهتافات التعجّب .

أعاد المسيو بيير جمع محتويات محفظته . وفجأة كانت هناك حزمة من ورق اللعب بين يديه .

«فكر في ورقة لعب ، رجاءً ، أي ورقة» اقترح وهو ينشر أوراق اللعب على الطاولة ، دفع منفضة السجائر جانبا بمرفقه ؛ واستمر بنشرها .

«لقد فكرنا في واحدة» قال المدير بمرح .

متمهلا بترديد بعض الشعبذات وضع مسيو بيير سبابته على جبهته ، ثم جمع البطاقات بسرعة ، بذكاء جعل الحزمة تفرقع ورمى من بينها ورقة بستوني تريس .

«هذا مدهش» هتف المدير متعجبا . «مدهش حقًا!»

اختفت حزمة ورق اللعب فجأة تماما كما ظهرت ، وجاعلا وجهه يبدي علامات الهدوء قال مسيو بيير : «أتت سيدة عجوز ضئيلة إلى الطبيب وقالت 'لدي مرض فظيع أيها الدكتور ، أشعر بخوف شديد من أن أموت بسببه . . .' ، 'ما هي الأعراض التي

تحسين بها؟!» ، «رأسي يهتز ، أيها الطبيب!» . تمتم مسيو بيير وهو يهز رأسه مقلدا المرأة العجوز الضئيلة .

انفجر رودريغ إيفانوفيتش في ضحك صاخب ، ضاربا الطاولة بقبضته وهو يكاد يسقط من على كرسيه ، من ثم انتابته نوبة سعال وأنين ، وبعد جهد جهيد استعاد السيطرة على نفسه .

«مسيو بيير ، أنت روح الحفلة» قال وهو لا يزال يسفح الدموع ، «حقًا ، روح الحفلة! ، لم أسمع مثل هذه النكتة المضحكة طيلة حياتي من قبل!» .

«أوه ، يا للحزن الذي نحسّ به ، يا للرقة» قال مسيو بيير مخاطبا سنسيناتوس وهو يرفع شفتيه كما لو كان يحاول جعل طفل عابس يضحك . «لقد بقينا صامتين هادئين ، وشاربنا الصغير يرتعش كله ، والوريد في عنقنا ينبضُ ، وعيوننا الصغيرة ضبابيّة . . .»

«كل ذلك من الفرح» بادر المدير بسرعة . «لا تلقي بالا للأمر» .

قال المسيو بيير «أجل ، إنه يوم سعيد حقًا ، يوم مشهود» ، «أنا أهتز من الحماس بالنسبة لي . . .لا أريد أن أتباهى ، لكن ستجد فيّ ، يا زميلي العزيز ، مزيجا نادرا من المؤانسة الخارجية والرقة الداخلية ، فن الدردشة والقدرة على البقاء صامتا ، الهزل والجدّ . . . من الذي سيسلي طفلاً يبكي ، ويلصق بالغراء لعبته المكسورة؟ مسيو بيير . من سيتوسط من أجل أرملة مسكينة؟ مسيو بيير . من الذي سيقدم مشورة رصينة ، من الذي سيوصي بدواءٍ ، من الذي سيجلب أخبارًا سارة؟ من؟ من؟ مسيو بيير . كل شيء سيقوم به مسيو بيير» .

«رائع! يا لها من موهبة!» هتف المدير ، وكأنه كان يستمع إلى الشعر ؛ لكنه كان طيلة الوقت يختلس النظر إلى سنسيناتوس من طرف حاجبه المرتعش .

«لذلك ، يبدو لي» مضى مسيو بيير بالكلام «أوه ، أجل ، بالمناسبة» قاطع نفسه قائلا «هل أنت راضٍ عن مسكنك؟ ألا تشعر بالبرد في الليل؟ هل يقدمون لك ما يكفي من الطعام؟»

«إنه يحصل على نفس ما أحصلُ عليه» أجاب رودريغ إيفانوفيتش . «الطاولة ممتازة»

«كل الطاولة» سخر مسيو بيير .

كان المدير على وشك أن يصخب مجددا عندما انفتح الباب ودخل أمين المكتبة الكئيب ، الطويل النحيف مع حزمة من الكتب تحت ذراعه . كان هناك وشاح صوفيّ يلتف حول رقبته . دون أن يقول مرحبا لأي منهم ألقى الكتب على السرير ، وللحظة من الزمن شكلت هذه الكتب ذاتها أطيافا مجسمة من الغبار ظلت معلقة فوقها في الهواء ، طفت ثم تذبذبت وتلاشت .

«انتظر لحظة» قال رودريغ إيفانوفيتش . «لا أعتقد أنكم التقيتم ببعض» .

أومأ أمين المكتبة ، دون أن ينظر بينما نهض مسيو بيير من كرسيه .

«رجاءً مسيو بيير» توسل المدير وهو يضع يديه على مقدمة قميصه ، «من فضلك أره خدعتك!»

«أوه ، إنها لا تستحق الذكر ، إنها لا شيء حقًا» ، قال مسيو بيير بتواضع لكن المدير لم يتوقف :

«بل هي معجزة! سحر أحمر! جميعنا نتوسل إليك! أوه ، افعل

ذلك من أجلنا . . . ، انتظر ، تمهل للحظة» صاح على أمين المكتبة الذي كان يسير بالفعل نحو الباب . «تمهل دقيقة فقط ، سيريك مسيو بيير شيئا ما . رجاءً ، من فضلك! لا تذهب . . .»

«فكّر في احدى هذه البطاقات» أعلن مسيو بيير بجديّة ساخرة ، خلط ورق اللعب ؛ وألقى بورقة خمسة البستوني .

«لا» قال أمين المكتبة وغادر .

هز مسيو بيير كتفه الضئيل المستدير .

«سأعود فورا» غمغم المدير وغادر هو أيضا .

بقي سنسيناتوس وضيفه لوحدهما .

فتح سنسيناتوس كتابا ودفن نفسه فيه ، أعني ، ظل يقرأ الجملة الأولى مرارا وتكرارا . نظر إليه مسيو بيير بابتسامة لطيفة ، وبيد صغيرة بسط كفه على الطاولة كما لو أنه كان يعرض عقد سلام مع سنسيناتوس . عاد المدير وفي قبضته المشدودة بإحكام كان هناك وشاح صوفيّ .

«لربما سيفيدك يا مسيو بيير» قال ، ثم سلمه الوشاح ، وجلس وهو يزفر بصخب كالحصان ، ثم بدأ يتفحص ابهامه من طرفه الذي نتأ منه ظفر نصف مكسور كالمنجل .

«ما الذي كنا نتحدث عنه؟» هتف مسيو بيير بلباقة ساحرة كما لو أن شيئا لم يحدث . «أجل ، كنا نتحدث عن الصور الفوتوغرافية . يوما ما سأجلب معي الكاميرا وألتقط صورة لك . سيكون ذلك رائعًا . ماذا تقرأ؟ هل لي أن ألقي نظرة؟» .

«عليك أن تضع الكتاب جانبًا» نوّه المدير بنغمة من السخط في صوته ؛ «ففي النهاية ، لديك ضيف» .

«أوه ، دعه كما يشاء» ابتسم مسيو بيير .

حلّ صمت .

«لقد تأخر الوقت» قال المدير بعد أن نظر إلى ساعته .

«أجل ، سوف نذهب خلال لحظات . . . أوه ، يا له من متذمر صغير . . . انظر إليه ، شفتاه الصغيرتان ترتجفان كلاهما . . . في أي لحظة الآن ستطل الشمس من بين الغيوم . . .متذمر ، متذمر! . . .»

«دعنا نذهب» قال المدير وهو ينهض .

«تمهل لحظة . . .لقد أحببت المكان هنا لدرجة أنني بالكاد أستطيع أن أخرج منه . .على أية حال ، يا جاري العزيز ، أسمح لنفسي بطلب اذنك بزيارتك أحيانا كثيرة ، كثيرة -وهذا ، بالطبع إذا أذنت لي بذلك- وستفعل ، أليس كذلك؟ . . . مع السلامة الآن ، إذًا . وداعا! وداعا!»

وهو ينحني على نحو هزليّ مقلدا أحدا ما ، انسحب مسيو بيير ، ومرة أخرى أخذه المدير من مرفقه وهو يصدر أصواتًا شهوانية من أنفه . غادرا ، لكن في اللحظة الأخيرة سمع صوته يقول : «أعذرني ، لقد نسيتُ شيئا ما ، سألحق بك خلال لحظة» ، من ثم هرع المدير عائدا إلى الزنزانة واقترب من سنسيناتوس وللحظة غادرت الابتسامة وجهه القرمزي : «إنني أشعر بالعار» همس عبر أسنانه باستهجان «أشعر بالعار منك . لقد تصرفتَ مثل . . .أنا قادم ، أنا قادم» صرخ وانفرجت أساريره مجددا ؛ ثم اختطف مزهرية زهور الفاوانيا من على الطاولة ورشّ الماء بينما هو يمضي وغادر الزنزانة .

ظلّ سنسيناتوس يحدق في الكتاب . سقطت قطرة على الصفحة . جراء القطرة تحولت عدة حروف من حجم ٨ بُنط إلى ١٢ بنط ، منتفخة كما لو كانت فوقها عدسة للقراءة .

الفصل الثامن

(هناك البعض من يبرون قلم الرصاص تجاه أنفسهم ، كما لو كانوا يقشرون حبة بطاطا ، وآخرون يقتطعون أنفسهم بعيدا عن ذواتهم كما لو كانوا ينجرون عصًا . . .روديون كان من النوع الثاني . كان لديه مطواة قديمة بعدة شفرات ولَوْلَب لنزع الفلينة . كان اللولب ينام في الخارج) .

«اليوم هو اليوم الثامن» (كتب سنسيناتوس بقلم رصاص فقد أكثر من ثلث طوله) «لم أبق حيًا فقط ، بل أن مجال ذاتي لا يزال يحدُّ ويقلّص كينونتي ، مثل أي فانٍ آخر ، لا أدري ساعتي المحتومة ويمكنني أن أطبق على نفسي صيغةً تصلح للجميع : احتمالية المستقبل تتناقص بنسبة عكسية مع بعدها النظريّ . وبطبيعة الحال في حالتي فإن التعقل يتطلب أن أفكر في أعداد صغيرة جدا -لكن هذا لا بأس به ، لا بأس به- فأنا حيّ . انتابني احساس غريب الليلة الماضية -ولم تكن المرة الأولى- : لقد خلعت نفسي طبقة تلو الأخرى ، حتى كان في الأخير . . .لا أدري كيف أصفه ، لكنني أعرف هذا : من خلال عملية التعرية التدريجية وصلت إلى نقطة نهائية ، لا تتجزأ ، ثابتة ومتوهجة ، وهذه النقطة قالت : أنا! مثل خاتم لؤلؤ منطمر في شحم ودم سمكة قرش -آه يا أبديتي ، يا أبديتي . . .وهذه النقطة تكفي بالنسبة لي- في الواقع لا شيء آخر ضروري . ربما كمواطن في القرن المقبل ، ضيف وصل قبل الموعد المحدد (فالمضيفة لم تصل بعد) ، ربما مجرد غريب مبهرج في عالم

احتفالي يائس ومُتَّسع ، لقد عشت حياةً مفجعة ، وأرغب أن أصف هذا العذاب لك ، لكنني موسوس بالخوف من أنه لم يبق وقت كاف لذلك . بقدر ما أستطيع أن أتذكر نفسي ، وأنا أتذكر نفسي بوضوح لا قانونيّ ، كنتُ شريكا في الجريمة مع ذاتي ، هذا الشريك كان يعرف الكثير جدا ، وبالتالي كان خطيرًا . انبعثتُ من سواد محترق ، ودرتُ مثل خذروف وبمثل هذه القوة الدافعة ومثل ألسنة اللهب هذه ، بدأت من هذا اليوم بالشعور من حين لآخر (أحيانا خلال النوم ، أحيانا خلال غمس نفسي في مياه ساخنة جدا) بهذا الخفقان الأصلي لنفسي ، أول تماس لي مع النار ، المَبْعَث الأصلي لـ"أنا"ي . كيف أتملّص منها ، زلقًا ، وعاريا! أجل ، عبر عالم محرّم ومتعذر الوصول على الآخرين ، أجل . أعرفُ شيئا ما ، أجل . . .لكن حتى الآن ، بعدما انتهى كل شيء على أية حال ، حتى الآن ، أخشى أنني ربما أفسدتُ شخصًا ما؟ أو سوف لا شيء يأتي مما أحاول قوله ، آثارها ما هي إلا جثث الكلمات المخنوقة ، مثل رجال مشنوقين . . .ظلال مسائية من حروف غاما وأسماء المصدر ، غربان مشانق ، أعتقد أنني يجب أن أفضل الحبل لأنني أعرف على نحو موثوق ولا شك فيه أنه سيكون الفأس ؛ اكتسبت بعض الوقت ، الوقت الذي أصبح الآن ثمينا جدا بالنسبة لي بشكل جعلني أقدّر فيه كل مهلة ، كل تأجيل . . .أقصد الوقت المخصص للتفكير ، الاجازة التي أسمح فيها لأفكاري بنزهة من الواقع للخيال والعودة . . .أعني أكثر من ذلك بكثير . . .وعلى الرغم من افتقار مهارة الكتابة ، والتسرع ، التحمس والضعف . . .أنا أعرف شيئا ما . أنا أعرف شيئا ما . لكن التعبير عنه صعب للغاية! لا ، لا أستطيع . . .أود لو أستسلم ، لكنني لازلت أحس بشعور الغليان والتصاعد

والوخز ، الأمر الذي قد يدفعك للجنون إذا لم تعبر عنه بطريقة أو بأخرى . أوه لا ، أنا لا أشمتُ بشخصي ، أنا لا أشعر بكل ذاك الصراع الحامي مع روحي في غرفة مظلمة ؛ ليس لدي أي رغبات ، عدا الرغبة في التعبير عن نفسي ، في تحدٍّ لكل صمت العالم . كم أنا خائف . كم أنا مريض بالرعب . لكن لا أحد سيأخذني بعيدا عن نفسي . أنا خائف ، والآن فقدت الخيط الذي كنت أمسكه بوضوح منذ لحظة فقط . أين هو؟ لقد انسلّ من قبضتي! إنني أرتجف فوق الورقة ، وأمضغ القلم من مادته الرصاصية ، أنحني للأمام لأخفي نفسي من الباب الذي عبره تخزني عينٌ حادّة ترمق مؤخر عنقي ، ويبدو أنني على وشك سحق كل شيء وتمزيقه . أنا هنا بسبب خطأ -ليس في هذا السجن على وجه التحديد- لكن في كل هذا العالم الرهيب المخطط ، عالم لا يبدو مثالا سيئا عن حذق صنعة هاو ، لكن في نكبة الواقع والرعب والجنون والخطأ ؛ تأمل ، التحفة الصغيرة ذبحت السائح ، والدب العملاق المنحوت أنزل مطرقته الخشبية فوقي . مع ذلك ، منذ طفولتي المبكرة ، كان لديّ أحلام . . .في أحلامي كان العالم نبيلا ، روحانيا ؛ والناس في حالة اليقظة الذين كنت أخافهم للغاية بدوا هناك في انعكاس متلألئ ، كما لو أنهم تشربوا وغُلفوا بذاك التذبذب من الضوء الذي يخلق في الجو القائظ الخطوط الخارجية للموجودات في الحياة ؛ أصواتهم ، مشيهم ، تعابير عيونهم وحتى ثيابهم ، مكسبا إياه معنى مثيرا للاهتمام ، ليجعله أكثر بساطة ، في أحلامي يصبح العالم حيًا ، يصبح جليلاً على نحو آسر ، حرا وأثيريًا ، لدرجة أنه سيكون من القهر بعد ذلك أن تتنفس غبار هذه الحياة الملوّنة . لكني بعد ذلك قضيت وقتا طويلا لكي أتعود على فكرة أن ما ندعوه أحلاما

هو شبه-واقع ، وعدٌ لواقع ، نظرة خاطفة استباقية ونفحة منه ؛ وهي ما تحتوي في حالة مشوشة ضبابية ، واقعا أصيلا أكثر من حياتنا الصاحية المتكلفة التي بدورها هي شبه-نوم ، نعاس شرير تتسلل عبره في تمويه غريب أصوات ومناظر العالم الحقيقي ، متدفقة وراء المحيط الخارجي للعقل ، كما هو الأمر عندما تسمع أثناء النوم حكاية مرعبة فظيعة جرّاء غصن يحتك بزجاج نافذة أو ترى نفسك تغرق في الثلج لأن بطانيتك انزاحت عنك . لكن لكم أخشى الاستيقاظ! كم أخشى تلك الثانية ، أو بالأحرى ذاك الجزء من الثانية الذي قد انتهى فجأةً بالفعل ، مع صوت نخير الخشّاب ؛ لكن ما الذي هناك لأخاف منه؟ ألن يكون بالنسبة لي مجرد ظل لفأس ، ولن أسمع صوت الهبوط القويّ بأُذن من عالَم مختلف؟ لا زلتُ خائفًا! لا يمكن للمرء أن يكتب ذلك بسهولة بالغة . كما أنه ليس من الجيد أن تظلّ أفكاري تنساب داخل حفرة المستقبل ، أود أن أفكر حول شيء ما آخر ، أن أوضح أمورا أخرى . .لكنني أكتب بغموض وعلى نحو ملتوٍ ، مثلما كان يكتب مبارز بوشكين الغنائي . قريبا على ما أظن سأطوّر عينا ثالثة على مؤخرة عنقي بين فقرات ظهري الهشة : عينا غاضبة ، مفتوحة على اتساعها ، ببؤبؤ كبير ، وعروق ورديّة على مقلة العين اللامعة . ابتعدوا! بشكل أقوى ، أكثر صخبا : لا تتدخلوا! أستطيع رؤيتكم جميعًا! وكم مرّة قرعت مسامع أذني التنهيدة التي سيقدر عليّ اخراجها وسعلة الغرغرة المريعة التي يصدرها مقطوع الرأس حديثًا . لكن كل هذا ليس موضوعنا ، وكلامي عن الأحلام واليقظة ليس موضوعنا أيضا . . .مهلا! هنا ، أنا أشعر مجددا أنه يجب علي أن أعبّر حقا عن نفسي وأن أحصر الكلمات كي لا تهرب . للأسف ، لم يعلمني أحد هذا النوع من

المطاردة ، والفن الفطري القديم للكتابة نُسي منذ زمن طويل -نسيت تلك الأيام حين لم يكن بحاجة إلى تعليمه بل كان يشتعل ويتأجج مثل حريق غابة- واليوم يبدو لا يصدق تماما مثل تلك الموسيقى التي كانت تستخدم وتستخرج من آلة بيانو رهيبة ، موسيقى كانت تترقرق بخفة أو فجأة تقسم العالم إلى كتل لامعة كبيرة ، أنا ذاتي أتصور كل هذا بوضوح كبير ، لكنكَ لا تفعل ذلك ، وهنا تكمن النكبة التي يتعذر اصلاحها . لا أعرف كيف أكتب ، لكني أحسّ بحدسي الاجرامي كيف تجمع الكلمات ، ما الذي ينبغي على المرء فعله من أجل أن يجعل كلمة مألوفة حيّة ، ولكي تشارك جارتها في بريقها ، حرارتها ، ظلها ، بينما تعكس نفسها على جارتها وتجدد الكلمة المجاورة في غضون ذلك ، وهكذا يصبح السطر كلّه يحيا قوس قزح ؛ وعلى الرغم من أنني أستشعر طبيعة هذا النوع من مجاورة الكلمات ، إلا أنني عاجز عن انجازه ، على الرغم من أنه أمر لا غنى عنه بالنسبة لمهمتي ، مهمة ليسَ هنا وليسَ الآن . ليس هنا! «هنا» الفظيعة ، الزنزانة المظلمة ، حيث يحتجز فيها قلب يعوي بلا هوادة ، هذه «الهنا» تقيدني وتحاصرني . لكن أيّ أنوار تسطع خلال الليل ، وأيّ . . . إنه موجود ، عالم أحلامي ، إنه يجب أن يوجد ، لأنه من المؤكد أن هناك نسخة أصلية للنسخة المزيفة . حالمًا ، مستديرا ، وأزرق إنه يتحرك ببطء نحوي . إنه يشبه كما لو أنكَ مستلق باسترخاء ، وعيونك مغلقة ، في يوم ملبد بالغيوم ، وفجأة يتحركُ الظلام تحت جفونك ، في البداية تصبح ببطء ابتسامة مشرقة ، من ثم شعورا دافئا من الرضا ، وأنت تعرف أن الشمس برزت من وراء الغيوم . بمثل هذا الشعور يبدأ عالمي : ينقشع الجو الضبابي تدريجيا ، ويُغمر بلطف متألق

متذبذب ، وتمتد روحي بحرية بالغة في ملكوتها الأصليّ ، لكن ماذا بعد ، ثم ماذا؟ أجل ، هذا هو السطر الذي وراءه أفقد السيطرة . . .يرتفع إلى الهواء ، تنفجر الكلمات ، كما تنفجر تلك الأسماك الكروية التي تتنفس وتتوهج فقط في الظلام المضغوط للأعماق عندما تُرفع في الشبكة . مع ذلك سأبذل جهدا أخيرًا ، أعتقد أنني قد اصطدت فريستي . . .لكنه مجرد ظهور عابر لفريستي! هناك ، البحيرة الجبلية الصغيرة ، لاَ بَا là-bas ، نظرات الرجال تضيء بفهم لا مثيل له ؛ هناك الغرباء الذين يُعذبون هنا يتمشون بسلام ، هناك يأخذ الزمن شكله حسب رغبة المرء ، مثل بساط مزخرف حيث طياته يمكن أن تجمع بطريقة تجعلُ رسمتين منهما تلتقيان معًا ، من ثم ينشر ذلك البساط مرة أخرى وتمضي في حياتك قدما ، أو تضع فوقها الصورة التالية على الأخرى بلا نهاية ، بلا نهاية ، بتركيز متمهل لامرأة تختار حزاما يتناسب مع فستانها ، ها هي الآن تنساب في اتجاهي ، على نحو ايقاعي تقرع القماش المخملي بركبتيها ، فاهمة كل شيء ومفهومة بالنسبة لي . . .هناك ، هناك الأشكال الأصلية لهذه الحدائق حيث اعتدنا أن نتنزه ونختبأ في هذا العالم ، هناك كل شيء يغمر المرء بوضوحه الخلاّب ، ببساطة الخير الكامل ؛ هناك كل شيء يمتع روح المرء ، كل شيء مفعم بنوع المرح الذي يعرفه الأطفال ؛ هناك تشع المرآة التي ترسل الآن وبعدئذ فرصة انعكاس هنا . . .وما قلته ليس هي ، ليست هي تماما ، أشعر بالتشوش ، أمضي إلى لا مكان ، أتحدث بلا معنى ، وكلما تحركت أكثر عبرها وفتشت في الماء حيث أتلمس القاع الرملي بحثا عن بريق لمحتهُ كلما أصبح الماء أكثر طينا ووحلا ، وأصبح احتمال أني سألتقطه أقلّ . كلا ، لم أقل حتى الآن شيئا ،

أو بالأحرى لم أقل سوى كلمات كُتبيّة . . .وفي النهاية سيكون الأمر المنطقي أن أستسلم وسأستسلم لو أنني كنت أكدح جاهدا من أجل القارئ الموجود اليوم ، لكن بما أنه لا يوجد في العالم بشريّ واحد يمكنه أن يتكلم لغتي ؛ أو بشكل مبسط ، لا يوجد بشريّ واحد يستطيع الكلام ؛ أو بشكل أكثر بساطة ، ولا بشريّ واحد على الاطلاق ، عليّ أن أفكر فقط في نفسي ، في هذه القوة التي تحثني للتعبير عن ذاتي . أشعر بالبرد ، الضعف والخوف ، الجزء الخلفي من رأسي ينبض وينكمش ، ومرة أخرى يحدقون بحدة مجنونة ، لكن على الرغم من كل شيء ، أنا مقيّد لهذه الطاولة ككأس لنبع شرب ، ولن أنهض إلا لما أقول ما أريده . أكرر (مستجمعا زخمًا جديدا بإيقاع ترانيمَ متكررة) ، أكرر ، هناك شيء ما أعرفه ، هناك شيء ما أعرفه ، هناك شيء ما . . .عندما كنت ، صبيا ، عندما كنت أعيش في منزل واسع بارد بلون أصفر كالكناري ، حيث كانوا يهيئونني أنا ومئات الأطفال الآخرين للاحياة آمنة لبالغين حمقى ، التي أصبح عليها أقراني دون جهد أو ألم ؛ حينئذ ، في تلك الأيام البغيضة ، وسط الكتب ذات الأغلفة الصلبة والمواد المدرسية الملونة اللامعة والمسودات التي تقشعر لها الأبدان ، عرفتُ دون معرفة ، عرفتُ دون تساؤل ، عرفت كما يعرف المرء نفسه ، عرفتُ ما يستحيل معرفته ، وسأقول ، عرفته بشكل أكثر وضوحا حتى مما أعرفه الآن . عندما بلتني الحياة : بقلق مستمر ، كتمان معرفتي ، التظاهر ، الخوف ، الإجهاد المؤلم لكل أعصابي ، لا يمكن أن تسترخي ، لا يمكن أن تصرخ . . .وحتى هذا اليوم لا زلت أشعر بالألم في هذا الجزء من ذاكرتي حيث سجلت البداية الأولى لهذا الجهد ، أعني ، عندما حلت فرصة لأفهم أول

مرة أن الأشياء التي تبدو طبيعية بالنسبة لي كانت في الواقع محرمة ، مستحيلة ، وأن أي تفكير عنها هو فعل اجراميّ . كم أتذكر جيدًا ذلك اليوم! كنت قد تعلمت للتو كيف أصنع الحروف ، بما أنني أتذكر نفسي مرتديا على اصبعي الخامس الخاتم النحاسي الصغير الذي كان يعطى للأطفال الذين يعرفون بالفعل كيف ينسخون نموذج الكلمات من مشتل الزهور في حديقة المدرسة ، حيث كانت أزهار البَطُونية ، الإفْلُوْكس والآذَرْيون تفكك كلمات طويلة . كنت أجلس وقدمي فوق عتبة النافذة المنخفضة أنظر أسفل بينما كان زملائي في المدرسة وهم يرتدون نفس السترة الورديّة الطويلة التي أرتديها ، يمسكون بأيدي بعض ويتحلقون حول عمود مُزَيَّن بشرائط كثيرة . لماذا تُركت خارجًا؟ هل كانت عقوبة؟ كلا ، لكنها كانت ، ممانعة الأطفال الآخرين لانضمامي معهم في لعبتهم والحرج القاتل والعار والكآبة التي شعرت بها عندما انضممت لهم جعلتني أفضل هذا الركن الأبيض من العتبة ، الذي كان مخفيًا جيدا بظلّ النافذة الكبيرة الموارية . كنت أسمع الهتاف الذي تتطلبه اللعبة والأوامر الحادة التي تصدرها ناظرة المدرسة ذات الشعر الأحمر ؛ أستطيع رؤية خصلات شعرها ونظاراتها ، وبرعب مغثٍ لم يغادرني أبدا رأيتها تدفع بقوّة أصغر الأطفال لتجعلهم يدورون أسرع . كانت هذه المعلمة ، والعمود المزين بالأشرطة ، والسحب البيضاء بين الحين والآخر تسمح بمرور أشعة الشمس المنزلقة ، التي كان تبعث فجأة ضوءً متحمسا ، يبحث عن شيء ما ، كان ينعكس متكررا على الزجاج البراق للنافذة المفتوحة . . .باختصار ، شعرت بهذا الخوف والحزن الذي حاولت أن أغمره داخل نفسي ، لكي أبطئ وأنسلّ من الحياة التي لا معنى لها والتي كانت تدفعني دفعا

للأمام . عندئذ فقط ، في نهاية الممر الحجري حيث كنت أجلس ، ظهر مدير المعلمين -لا أتذكر اسمه- رجل بدين ، متعرّق ، أشعر الصدر كان في طريقه إلى غرفة الاستحمام . وبينما لا يزال بعيدا عني ، صاح عليّ ، وتضخم صوته عبر الردهة ليخرج إلى الحديقة ، اقترب بسرعة ولوّح بمنشفته . في حزني ، في تجريدي ، بلا وعي وببراءة ، بدلا من الانزلاق نحو الحديقة عبر السلالم (كان الرواق في الطابق الثالث) ، دون التفكير فيما كنت أفعله ، لكنني تصرفت بإذعان فعلا ، وعلى نحو مُسْتَسْلِم حتى ، خطوت مباشرة من عتبة النافذة إلى الهواء المرن -لم أشعر بشيء أكثر من نصف احساس بأن قدمي عاريتين (على الرغم من أنني كنت أرتدي حذاءً)- ببطء وبشكل طبيعي تماما خطوت خطوات واسعة نحو الأمام ، وأنا أمصّ شارد الذهن وأتفحص الاصبع الذي أصابته شوكة ذلك الصباح . . .فجأة ، على أية حال ، أخرجني صمت مطبق غير طبيعي من خيالي ، ورأيت أسفل مني مثل زهور الأقحوان الشاحبة ، الوجوه المقلوبة للأطفال المنذهلين ، والناظرة التي كانت تبدو وهي تتراجع إلى الوراء ؛ رأيت أيضا كرات الشجيرات المقلمة ، والمنشفة الساقطة التي لم تكن قد وصلت إلى العشب بعد ، رأيت نفسي ، صبيا يرتدي سترة وردية ، واقفا معلقا وسط الجوّ ، التفت من حولي ، رأيت ، لكن من على بعد ثلاثة خطوات هوائية منيّ ، النافذة التي غادرتها للتو ، وذراعه المشعّرة تمتد في ذهول حاقد ، الـ . . .»

(هنا ، للأسف ، أطفئت الأضواء في الزنزانة ، فقد كان روديون يطفئها دوما على الساعة العاشرة بالضبط) .

الفصل التاسع

ومرة أخرى بدأ اليوم بجلبة من الأصوات . كان روديون يلقي التعليمات بتجهم ، وثلاثة من الحضور الآخرين كانوا يساعدونه . كانت عائلة مارثا بأكملها قد جاءت للمقابلة جالبين معهم جميع أثاثهم . ليس هذا ، ليس هذا ما كان يتصوره عن اللقاء الذي طال انتظاره . . .يا لهم من ثقلاء غير مرغوبين! والد مارثا المسّن ، برأسه الأصلع الضخم ، وانتفاخات تحت عينيه ، وصوت النقر الحاد لعصاه السوداء ، اخوة مارثا ، توأمان متطابقان إلا أن الأول لديه شارب ذهبي اللون والآخر شارب حالك السواد ؛ أجداد مارثا من الأم ، كانوا كبارا جدا في السن لدرجة أن المرء يستطيع النظر عبرهم ، وثلاثة إناث مرحات من الأقارب ، واللائي لم يتم قبولهن لسبب ما في آخر لحظة ، وأطفال مارثا ، ديوميدون الكسيح ، والبدينة الصغيرة بَولين ، وفي الأخير مارثا نفسها ، ترتدي أفضل فستان أسود لديها ، مع شريط مخمليّ حول عنقها الأبيض البارد ، وتمسك بمرآة يد ؛ وكان هناك شابّ فتيّ نظيف مع مظهر لا تشوبه شائبة يقف بثبات إلى جانبها .

أجلس حموه ، الذي كان يستند على عصاه ، نفسه على الكرسي الجلدي ذو الذراعين الذي جُلب معه ، وبجهد وضع قدما سمينة ناعمة على مقعد صغير وبغضب هزّ رأسه ، وثبّت نظره من تحت جفون عينيه الثقيلة على سنسيناتوس ، الذي شعر بإحساس بالضجر لمرأى الضفادع التي تزيّن معطف حموه الدافئ ، كانت

الطيّات حول فمه تعبّر عن اشمئزاز أبديّ ، بتلك البقعة القرمزية للوحمة على صدغه المضلّع ، والانتفاخ الذي يشبه زبيبة كبيرة فوق الوريد تماما .

أما الجدّ والجدة (كان أحدهما متداعيًا واهنا في سراويل مرقعة والأخرى كانت بشعر أبيض قصير ونحيفة جدا لدرجة أنه يمكن ادراجها في قراب مظلة حريرية) فقد كانا يجلسان جنبا لجنب على كرسيين متطابقين كلاهما ذو مسند ظهر عالي ، كان الجد يمسك بإحكام بين يديه الصغيرتين المشعرتين بورتريهً ضخما بإطار ذهبيّ ، يمثّل أمه ، امرأة شابة غامضة تمسك بدورها ببورتريه آخر .

في ذات الوقت ، تتابع وصول الأثاث ، والأواني المنزلية وحتى الأبواب الخاصّة للجدران . هنا وصلت خزانة ثياب بمرآة عاكسة ، جُلب معها انعكاسها الخاص بها (أقصد ، زاوية من غرفة النوم الزوجية بشريط من ضوء الشمس على الأرضية ، وقفاز ملقىً ، وباب مفتوح من بعيد) . ثم توالت بعدها دراجة ثلاثية العجلات تفتقر لكرسيّ ، مع معدّات تقويم العظام . أعقب ذلك طاولة مرصعة كان تحمل قنينة عقيق أحمر مسطحة ودبوس شعر على مدى السنوات العشر الماضية . جلست مارثا على أريكتها السوداء المزخرفة بالورود .

«ويلي ، ويلي!» أعلن الحمو وهو يقرع الأرض بعصاه . ظهرت ابتسامات صغيرة خائفة على وجوه العجائز . «لا تفعل أبتِ ، لقد خضنا في هذا الأمر ألف مرّة» قالت مارثا بهدوء وهزّت كتفيها ببرود . عرض عليها رجُلها الشاب شالا مهدبا لكنها مفتعلة أثرًا لابتسامة حنونة بزاوية واحدة من شفتيها الرقيقتين ، أزاحت بعيدا يده الحسّاسة . («أول شيء أراه في الرجل هو يديه») كان يرتدي

الزيّ الأسود البهيّ لموظف تلغراف ويضع عطرا برائحة البنفسج .

«ويلي!» كرر الحمو بقوّة وبدأ في لعن سنسيناتوس بالتفصيل وباستمتاع . انتقلت نظرات سنسيناتوس إلى فستان بَولين المنقّط : كانت ذات شعر أحمر ، حولاء ، ترتدي نظارات طبية ، لم تكن تشعر بالابتهاج بل بالحزن من فستانها المنقط وبدانة جسدها ، كانت تحرّك ببلادة ساقيها السمينتين في جوارب صوفية بنيّة وحذائها ذي الأزرار ، كانت تقترب من هؤلاء الحضور وتتفحص كلاّ منهم ، وهي تحدق بتجهم وصمت بعينيها الصغيرتين السوداوين ، التي تلتقي وراء جسر النظارتين على أنفها . لدى هذه المخلوقة المسكينة منديل مربوط حول عنقها ، من الواضح أنهم نسوا أن يخلعوه عنها بعد الإفطار .

توقف الحمو ليستعيد أنفاسه ، ثم ضرب ضربة أخرى بعصاه ، عندئذ قال سنسيناتوس «أجل ، أنا أسمع» .

صاح الأول «صمتًا ، أيها الرجل الوقح ، يحقّ لي أن أتوقع منك -ولو حتى اليوم فقط ، بينما أنت تقف على باب الموت- قليلا من الاحترام . كيف تمكنت من ادخال نفسك في الحيّ . . .أريد تفسيرا منك . . .كيف أمكنك . . .كيف تجرأتَ . . .»

طلبت مارثا من رجلها الشاب شيئا ما بصوت منخفض ، وهكذا بدأ يفتش الأنحاء بعناية ، متحسسا كل ما حوله وتحته على الأريكة ؛ «كلا ، كلا ، لا بأس» أجاب بنعومة «لا بد أنني أسقطته في الطريق . . .لا تقلقي ، سيظهر في مكان ما . . .لكن أخبريني ، هل أنت متأكدة من أنك لا تشعرين بالبرد؟» هزّت رأسها بالنفي ، وأنزلت مارثا راحتها الناعمة على معصمه وأبعدت يدها فورا ، لتعدّل فستانها على ركبتيها وبهمسة جافة نادت ابنها ، الذي كان

يزعج أعمامها والذين كانوا بدورهم يدفعونه بعيدا لأنه كان يمنعهم عن الانصات . كان ديوميدون في بلوزته الرمادية بأشرطة مطاطية على فخذيه ، يلوي كامل جسده بتشوّه ايقاعي ، ومع ذلك كان بسرعة كبيرة يغطي المسافة بينهم وبين والدته . كانت ساقه اليسرى صحيحة ومتوردة ، بينما ساقه اليمنى تشبه بندقية في عُدتّها المعقدة : ماسورة ، أربطة ، حمّالة كتف . كانت عيناه العسليتان وحاجباه الضئيلان من أمه ، لكن النصف الأسفل من وجهه ، بفكيّن يشبهان فكيّ كلب بلدوغ ، هذا بالطبع كان من شخص آخر . «اجلس هنا» همست مارثا وبلطمة سريعة أوقفت مرآة اليد التي كانت تنزلق من الأريكة .

«أخبرني» تابع الحمو قائلا «كيف تجرأتَ ، يا هذا ، كنت رجل عائلة سعيدا ، بأثاث ممتاز ، وأطفال رائعين وزوجة محبّة ، كيف تجرأت ألا تعتبر كل هذا؟ أيها الشرير . يبدو لي أحيانا أني لستُ أكثر من عجوز معتوه ولا أفهم شيئا ، لأنني لو لم أكن كذلك لما سمحت بمثل هذه القذارة . . .صمتًا!» كان يصخب ومجددا بدأ العجائز بالابتسام .

مدّت قطة سوداء جسدها ، وشدّت للخلف احدى أقدامها وتمسحت بساق سنسيناتوس ، ثم فجأة على نضد المائدة ومن ثم دون صوت قفزت على كتف المحامي الذي كان قد دخل للتو بهدوء وجلس في الزاوية على الوسادة الفاخرة ، كان قد أصيب بنزلة برد سيئة ، فوقه كان هناك منديل جاهز للاستخدام ، كان يتفحص اللمة العائلية والأغراض المنزلية المختلفة التي جعلت الزنزانة تشبه مكانًا للمزاد العلنيّ ، أجفلته القطة فرماها بحركة متشنجة .

كان الحمو يرعد ويصخب ويضاعف اللعنات وبالفعل بدأ

صوته يصبح أجش أكثر وأكثر . وضعت مارثا يدها على عينيها ، ورجُلها الشاب الذي كان يشدّ عضلات فكه ، كان يراقبها . على أريكة بمسند منحنٍ ، جلس إخوة مارثا ، الأخ الأسود ، في بذلة سوداء تميل للصفرة بياقة قميص مفتوحة كان يمسك ورقة موسيقى ملفوفة في أنبوب لم تكن تحمل حتى الآن أية موسيقى ؛ كان واحدا من أهم المطربين في المدينة ؛ توأمه يرتدي بنطلون بلَسْ فورس[1] أزرق سماويا ، كان متأنقًا وفطنا ، وقد جلب معه هدية لصهره ؛ زبدية من الفواكه اللامعة المصنوعة من الشمع . كان أيضًا يثبت شريط ذراع قماشي على كمه وظلّ يشير إليه بإصبعه وهو يحاول أن يجذب عين سنسيناتوس .

في ذروة خطابه البلاغيّ اختنق الحمو فجأة ودفع كرسيه دفعة جعلت بَولين الصغيرة الهادئة التي كانت تقف بالقرب منه وهي ترمق فمه ، تسقط للوراء خلف الكرسي ، حيث بقيت ممددة هناك ، على أمل ألا يكون أحد قد لاحظ ذلك . بصوت فرقعة شرع الحمو يفتح علبة السجائر . كان الجميع صامتًا .

وبدأت أصوات السحق المختلفة تتصاعد . نظف شقيق مارثا الأسمر حنجرته وبدأ بهدوء في الغناء «الموت عذبٌ ، [لكنه] سِرٌّ»[2] توقف قليلا ونظر إلى أخيه الذي كان يلقي نظرة رهيبة

---

(١) plus-fours شَكل من البنطلون الواسع مزمومٌ عند الرُّكبتَين ومرفوع عن الساقَين . المترجم .

(٢) وجدنا تأويلا جيدا لترجمة هذه العبارة التي وردت بالأصل بلغة مركبة ملغزة افتعلها نابوكوف ، في هذه الدراسة الأكاديمية «تحدي تفسير وحل رموز نابوكوف : استراتيجيات ومقترحات» لجوليان و . كونولّي . مجلة =

عليه . أما المحامي الذي كان يبتسم لشيء ما ، فقد استعمل مرة أخرى منديله . على الأريكة ، كانت مارثا تتكلم هامسة مع رفيقها الذي كان يناشدها أن تغطي نفسها بالشال ، فجو السجن كان رطبا نوعًا ما . عندما كانوا يتحدثون كانوا يستخدمون ضمير المخاطب للجمع الرسميّ ، لكن أية حمولة من الحنان كان ينقلها ضمير المخاطب للجمع هذا وهو يبحر على امتداد أفق محادثتهم التي بالكاد كانت مسموعة . . .الرجل العجوز الضئيل الذي كان يرتعش بفظاعة ، نهض من كرسيه وسلم لوحة البورتريه لامرأته العجوز ، وحمل الشعلة التي كانت ترتجف مثله ، وذهب نحو حمو

= سيكنوس cycnos ؛ المجلد ٢٤ العدد ٠١ فلاديمير نابوكوف ، التعليقات في مواجهة تفسير نابوكوف . تقول الفقرة : «تبرز مشكلة تناظرات عندما يبحث المرء عند النظر إلى كلمة أو جملة عن الجناسات التصحيفية ، فكّ جين بارابتالرلو ببراعة الجملة الأوبرالية المزيفة في رواية (دعوة إلى جلسة قطع الرأس) «Mali è trano't amesti» ليكتشف المقولة التالية بالروسية «الموت عذبٌ ، [لكنه]سِرٌّ» ، انظر كتابه «منظر جويّ : مقالات حول فن وميتافيزيقا نابوكوف (نيويورك : بيتر لانغ ، ١٩٩٣) ، ١٩٣-٩٧ . عندما يبدأ المرء في البحث عن جناسات تصحيفية على أية حال فإنه لا ينتهي من ذلك . بارابتالرلو نفسه يحذرنا أنه «عمليا أي توسّع طويل معقول للحروف ينتج أي عدد من المعاني التي تتوافق بشكل أقل أو أكثر مع الوحدات المعجمية» (منظر جويّ ٢٣٩) . نابوكوف أيضا أصدر تحذيرا مشابها «اسأل نفسك ما إذا كان الرمز الذي اكتشفتَه ليسَ بصمتك أنت» ؛ انظر كتاب آراء قويّة (نيويورك : فينتيج ، ١٩٩٠) ، ٦٦» .

سنسيناتوس وكان سيشعل . . لكن الشعلة انطفأت وتجهّم الأخير بغضب .

«لقد أصبحت حقا مصدر ازعاج بولاّعتك الغبية هذه» قال بكآبة ، لكن بدون غضب في الحقيقة ، من ثم أصبح الجو مفعما بالحياة فعلا وبدأ الجميع يتكلم في وقت واحد . «الموت عذبٌ ، لكنه سرٌّ!» غنّى شقيق مارثا صوتًا كاملا ؛ «ديوميدون ، اترك القطة وشأنها الآن» قالت مارثا . «لقد خنقتَ واحدة بالفعل يوم أمس ، واحدة كل يوم كثير جدًا . خذها بعيدا عنه ، رجاءً فيكتور يا عزيزي» . مستغلةً الجو الحركي العام ، زحفت بَولين من وراء الكرسي ، ونهضت بهدوء ، سار المحامي نحو حمو سنسيناتوس وأعطاه شعلة .

«خذ كلمة «القلق» قال صهر سنسيناتوس الذكيّ وهو يخاطبه «والآن احذف منها كلمة «صغير» هاه؟ تصبح كلمة ظريفة[1] ، أليس كذلك؟ أجل ، صديقي ، لقد أدخلت نفسك حقا في ورطة في الحقيقة ، ما الذي دفعك لتفعل شيئا كهذا؟» .

في هذه الأثناء فتح الباب على نحو غير محسوس . وقف المدير والمسيو بيير على العتبة وأيديهما متشابكة على نحو متطابق وراء ظهورهما وبهدوء وبحركة دقيقة من مقلتي عينهما فقط تفحصا هذا التجمع . وقفا وحدقا بهذه الطريقة لأكثر من دقيقة قبل أن ينصرفا .

«اسمعني» كان صهره يقول وهو يتنفس بحرارة . «أنا صديقك الحميم افعل كما أقول لك . تُب يا صغيري سنيسيناتوس هيا افعل

---

(١) Anxiety ، tiny وما يتبقى بعد الحذف هو كلمة Axe التي تعني فأس . المترجم .

ذلك من أجلي . لا تدري لعلهم سيطلقون سراحك . هاه؟ فكّر كم سيكون أمرا بشعا أن يقطع رأسك الأحمق . ما الذي ستخسره؟ هيّا ، لا تكن عنيدا» .

«تهانيّ ، تهانيّ ، تهانيّ» قال المحامي وهو يتقدم نحو سنسيناتوس «لا تعانقني ، لا زلت أعاني من نزلة برد سيئة . عمّا تتحدثان؟ كيف يمكنني أن أساعدك؟»

«دعني أمر» غمغم سنسيناتوس «عليّ أن أقول بضع كلمات لزوجتي . . .»

«الآن يا عزيزي دعنا نناقش مسألة الممتلكات» قال الحمو وهو ينتعش ويمد عصاه بطريقة جعلت سنسيناتوس يقفز فوقها . «انتظر ، تمهل للحظة ، أنا أتحدث إليك!»

واصل سنسيناتوس المضيّ وكان يجب عليه أن يستدير حول الطاولة التي تسع عشرة أشخاص من ثم ينضغط بين الستارة وخزانة الملابس لكي يصل إلى مارثا التي اتكأت على الأريكة . غطى الرجل الشاب قدميها بالشال . كاد سنسيناتوس يصل لكن عندئذ صدرت صرخة غاضبة من ديوميدون . استدار حوله ورأى إيمي ، التي كانت قد دخلت بطريقة مجهولة وكانت الآن تضايق الصبي : تقلد عرجه ، كانت تجرّ احدى قدميها بعدة التواءات معقدة . قبض عليها سنسيناتوس من ذراعها لكنها تملصت منه ولاذت بالفرار . تمايلت بَولين وهي تتبعها في بهجة صامتة من الفضول .

التفتت مارثا نحوه . وقف الشاب على نحو مناسب تماما . «مارثا ، بضعة كلمات فقط ، أترجاكِ» قال سنسيناتوس بسرعة ؛ تعثر فوق الوسادة على الأرض وجلس على نحو مرتبك على حافة

الأريكة ، في ذات الوقت لفّ نفسه بمبذله المتسخ بالرماد . «إنها تعاني من صداع طفيف» قال الشاب . «ما الذي تتوقعه؟ مثل هذا الانفعال سيء لها» ؛ «أنت على حق» قال سنسيناتوس «أجل ، أنت محق . أود أن أطلب منك . . . يجب أن -على انفراد-» ، «أستميحك عذرًا ، سيدي» قال صوت روديون قريبا منه . وقف سنسيناتوس ، نظر روديون والموظف كل منهما في عين الآخر ، وأمسكوا الأريكة التي كانت تستلقي عليها مارثا ونخروا ثم التقطوها وحملوها نحو الباب . «وداعًا ، وداعًا» قالت مارثا بطفولية وهي تتأرجح بالتزامن مع خطوات حامليها لكنها فجأة أغلقت عينيها وغطّت وجهها . مشى مرافقها بإخلاص وراءها وهو يحمل الشال الأسود الذي التقطه من الأرض ، وباقة ورد ، وقبعة زيّه النظامي ، وفردة قفاز . وعمّ الهياج جميع الأنحاء . كان الإخوة يجمعون الأواني في الصندوق . والدهم وهو يتنفس بصعوبة كان يحاول عبور الستارة متعددة الأجزاء . أما المحامي فقد كان يعرض على الجميع قطعة كبيرة من ورق التغليف حصل عليها من مكان ما مجهول ، وكان يرى وهو يحاول دون جدوى أن يلف بها زبدية تحتوي سمكة صغيرة برتقالية اللون شاحبة تسبح في ماء معكّر . وسط هذه الفوضى انتصبت الخزانة المليئة مع انعكاسها الخاص بها مثل امرأة حامل ، تحملُ بعناية وتدير جانبا بطنها الزجاجي لكي لا يحتكّ به أحد . كان يميل نحو الخلف ، وبعناق مترنح ، حُمل بعيدا . كان الناس يأتون إلى سنسيناتوس ليودعوه . «حسنا ، اللي فات مات» قال الحمو بلطف فاتر وهو يقبل يد سنسيناتوس كما يطلب العرف . أخذ الأخ الأشقر شقيقه الأسود على كتفيه وفي هذه الوضعية غادروا سنسيناتوس وانصرفوا مثل جبل حيّ . أما

الأجداد فكانوا يرتجفون وهم ينحنون ليحملوا البورتريه الغامض . واستمر الموظفون بحمل الأثاث خارجًا . اقترب الأطفال : رفعت بَولين الجليلة رأسها لأعلى ؛ على العكس من ذلك كان ديوميدون يحدق إلى أسفل . قادهم المحامي بعيدا كلاّ من يده . آخر من طار إليه كانت إيمي ، شاحبةً ، وعيونها تدمع ، وأنفها ورديّ وفمها مبلل ويرتجف ؛ كانت صامتة لكن فجأة بطقطقة خفيفة رفعت نفسها على رؤوس أصابعها ولفت ذراعيها الدافئين حول عنقه وهمست على نحو مفكك ، وأطلقت تنهيدةً عالية . قبض عليها روديون من معصمها ، وبالنظر إلى تجهمه لا بد أنه كان ينادي عليها منذ فترة طويلة ؛ والآن سحبها بحزم نحو المخرج . مقوّسة جسدها نحو الخلف ، أدارت رأسها نحو سنسيناتوس بخصلات شعرها المنسابة وهي تمد نحوه راحة يد مقلوبة ، كان ذراعها الجميل (بمظهر راقصة باليه أسيرة لكن مع ظلٍ من اليأس الحقيقيّ) تبعت إيمي روديون مكرهة وهو يسحبها ؛ ظلّت عينها ترمق نحو الخلف ، انزلق شريط كتفها والآن بحركة متأرجحة كما لو كان يفرغ دلو ماء ، رماها خارجا إلى الممر . بعد ذلك ، وهو لا يزال يغمغم ، عاد بسلة مهملات ليلتقط جثة القطة التي كانت ممددة على نحو مستوٍ تحت الكرسي . أغلق الباب بخبطة قوية . والآن كان من الصعبِ أن يصدق أنه في هذه الزنزانة ، منذ لحظةٍ فقط . . .

الفصل العاشر

«عندما يتعود جرو الذئب المنعزل بشكل أفضل على مرآي فإنه سيتوقف عن تجنبي والابتعاد عنيّ ؛ مقدارٌ معيّن من التقدم ، على أية حال ، قد تم بالفعل انجازه وأنا أرحب به من كل قلبي» كان المسيو بيير يقول ، وهو يجلس بشكل جانبي على الطاولة كعادته ، كانت ساقاه السمينتان متشابكتان على نحو منضغط ، واحدى يديه تعزف بلا صوت على أوتار القماش المشمع للطاولة . أما سنسيناتوس وهو يسند رأسه بين يديه فقد كان مستلقيا على السرير .

«إننا وحدنا الآن ، وهي تمطر» مضى المسيو بيير في كلامه «مثل هذا الطقس مثاليّ لمحادثة حميمة . دعنا نسوّي الأمر برمته . . .لدي انطباع بأنك مندهش وحتى منزعج من موقف الادارة تجاهي ؛ كما لو أنني في وضع متميز عنك -كلا ، كلا لا تجادل- دعنا نُخرج الأمر كما هو . اسمح لي أن أخبرك بأمرين . أنت تعرف مديرنا العزيز (وبالمناسبة ، جرو الذئب لم يكن منصفا تماما معه ، لكننا سوف نتحدث عن ذلك لاحقًا) ، أنت تعلم كم هو حسّاس ، ومتحمس وكيف أنه يتحمس لكل شيء جديد -وأعتقد أنه لا بد أنه تحمّس لوجودك في الأيام القليلة الأولى- لذلك فإن الشغف الذي يلهبه الآن تجاهي لا يجب أن يغضبك . دعنا لا نكن غيورين جدا يا صديقي . أما الأمر الثاني وهو غريب بما يكفي فهو أنه من الواضح أنك لا زلت تجهل للآن السبب الذي جعل الأمر

ينتهي بي هنا ، لكنني عندما أخبرك بذلك فإن الكثير من الأمور ستفهمها . عذرًا ، ما الذي لديك هنا في عنقك؟ -هنا بالذات ، هنا- أجل ، هنا» .

«أين؟» سأل سنسيناتوس بطريقة آلية ، وهو يشعرُ بفقرات عنقه .

ذهب المسيو بيير نحوه وجلس على حافة السرير . «هنا بالذات» قال «لكنني أرى الآن أنه كان مجرد ظلٍّ . ظننت أنني رأيتُ . . . تورما صغيرا من نوع ما . لا تبدو أنك مرتاح عندما تحرّك رأسك . هل يؤلمك ذلك؟ هل أصبت بنزلة برد؟» .

«أوه ، كُفَّ عن مضايقتي ، رجاءً» قال سنسيناتوس متحسرًا .

«كلا ، تمهل لحظة . يديّ نظيفتان ، اسمح لي أن أرى هنا . يبدو أنه ، على أية حال . . .هل يؤلمك هنا؟ ماذا عن هنا؟» .

بيده الصغيرة لكن العضليّة كان يتحسس بسرعة عنق سنسيناتوس ويتفحصه بعناية ، وهو يتنفس عبر أنفه مع لهاث خفيف .

«لا ، لا شيء . كل شيء في مكانه» قال أخيرا وهو يتحرك بعيدا ويربت على قفا المريض -أنت فقط لديك عنق نحيل بفظاعة- وإلا فكل شيء طبيعي ، فقط في بعض الأحيان ، كما تعرف . . .دعني أرى لسانك . اللسان مرآة المعدة . تغطى ، تغطى . . . الجو بارد هنا . عمّا كنا نتحدث؟ أنعش ذاكرتي» .

«لو كنت حقًا تهتم بعافيتي» قال سنسيناتوس «إذًا لتركتني وشأني . انصرف ، رجاءً» .

«هل تعني حقًا أنك لا تريد أن تسمع ما لديّ لقوله» عارضه مسيو بيير بابتسامة «أنت مقتنع بعناد أن أفكارك معصومة -أفكار

مجهولة بالنسبة لي- عَلِّم هذا ، مجهولة» .

ضائعا في الحزن ، لم ينبس سنسيناتوس بكلمة .

«على الرغم من ذلك اسمح لي أن أقول لك» مضى مسيو بيير في كلامه بجلال ما «ما هي طبيعة الجريمة التي ارتكبتُها . لقد اُتهمتُ -عن حقّ أو لا ، هذه قضية أخرى- لقد اُتهمتُ . . .بماذا ، هل يمكنك أن تخمّن؟»

«حسنا ، قل ما لديك» قال سنسيناتوس بتنهيدة كئيبة .

«سيذهلك الأمر . لقد اُتهمتُ بمحاولة : . .أوه أيها الصديق الجاحدُ ، الشكاك . . .لقد اُتهمتُ بمحاولة مساعدتك للهرب من هنا» .

«هل هذا صحيح؟» سأل سنسيناتوس .

«أنا لا أكذب أبدًا» قال مسيو بيير بهيبة وجلال . «لربما هناك أوقات ينبغي على المرء أن يكذب فيها -هذه قضية أخرى- ولربما أن الهوسَ بالصدق في كل شيء يعتبر حماقة وفي نهاية المطاف لا يجدي نفعًا ؛ من الجائز أن يكون جميع ذلك . لكن الحقيقة تبقى ، أنا لا أكذب أبدًا . لقد انتهى الأمر بي هنا ، يا صديقي الطيّب ، بسببك . تم اعتقالي ليلاً أين؟ دعنا نقل في آبر إلدربيري[1] نعم ، أنا إلدربيريّ . أعمال الملح وفواكه البساتين . كان عليك أن تأتي وتزورني ، لكنتُ ضيّفتك ببعض من ثمار البَلَسان (لا أتحمل

---

(١) كتب نابوكوف اسم المدينة كالتالي Elderbury وهو ما يشبه الكلمة الانجليزية elderberry التي تعني (نبات) خَمان - بَلَسان - أقطى : جنبةٌ من الفَصيلَة الخمانيّة ، أزهارها بَيضاء في عناقيد مُنْبسطةٌ ثمارها سَوْداء أو حَمْراء . المترجم .

مسؤولية على التورية- فهي تظهر على شعار مدينتنا) هناك -ليس في الشعار، إنما في الإسار[1]- قضى خادمك المطيع ثلاثة أيام؛ ثم نقلوني هنا».

«تقصد أنك أردت أن تنقذني . . .» قال سنسيناتوس متأملاً.

«ما إذا أردت ذلك أو لا فذلك شأني، صديقي الحميم، الصرصور-تحت-جانب الموقد. على أية حال تم اتهامي بذلك، كما تعرف، فالمخبرون نسل فتيّ ومتهور، وها أنا ذا: !هنا في قمة البهجة أنا أقفُ أمامك . .! هل تتذكر الأغنية؟ الدليل الرئيسي ضدي هو احدى المخططات التي تمثل القلعة والتي من المفترض أنها تحمل بصماتي. كما ترى، كان من المفترض أن أفكر في كل تفصيل عن هروبك، يا صرصوري الصغير».

«كان من المفترض أن، أو . . .؟» سأل سنسيناتوس.

«يا له من مخلوق بريء ممتع!» ابتسم المسيو بيير وهو يكشفُ العديد من الأسنان. «يريد أن يكون كل شيء بسيطًا، لأنه، يا للأسف لم يكن كذلك في الحياة الحقيقية!».

«لا يزال المرء يود أن يعرف» قال سنسيناتوس.

«ماذا؟ ما إذا كان قضاتي على حقّ؟ ما إذا كنت قد خططتُ حقا لإنقاذك؟ يا للعار، يا للعار . . .»

«إذًا فالأمر صحيح؟» همس سنسيناتوس.

نهض مسيو بيير وبدأ بالتمشي في الزنزانة. «فلنترك هذه

---

(١) الإسار المقصود به الحبس؛ أما معناه اللغوي فهو ما يُقيَّد به الأَسيرُ، نظرا لأن الجملة كانت مسجوعة بالإنجليزية بالشكل التالي not in the seal, but in the jail. المترجم.

المسألة» قال باستسلام . «قرّر ذلك بنفسك ، يا صديقي الشكاك . بشكل أو بآخر ، لقد انتُهى بي الأمر هنا بسببك . وسأقول لك ما هو أكثر من ذلك : سنصعد إلى المشنقة معًا أيضا» .

استمر بالتمشيّ في الزنزانة بخطوات يقظة صامتة ، كانت أجزاء جسده اللينة المنطوية في بيجامة السجن ، تتأرجح قليلا ، وتتبع سنسيناتوس بانتباه كئيب كل خطوة من خطوات السمين الحاذق .

«بحقّ الجحيم سأصدّقك» قال سنسيناتوس أخيرًا «وسوف نرى ما الذي سيأتي منه . لقد سمعتني ، أنا أصدّقك . ولجعله أكثر إقناعًا ، أنا أشكرك حتى» .

«أوه ، من أجل ماذا؟ لا داعي إلى . . .» قال المسيو بيير وجلس مجددا إلى الطاولة . «لقد أردتُ فقط أن تعرف ذلك . هذا طيّب . والآن لقد ألقى كلانا حمل صدره ، ألم نفعل؟ لا أعرف عنك ، لكني أشعر بأني على وشك البكاء . وهذا شعور جيد . ابكِ ، لا تكبح هذه الدموع الشافية» .

«كم هو مروّع هذا المكان» قال سنسيناتوس بحذر .

«ليس هناك شيء مريع بشأنه بالمناسبة ، لقد أردت أن أعاتبك منذ فترة طويلة عن موقفك نحو الحياة هنا . لا ، لا ، لا تشح بوجهك بعيدا ، اسمح لي ، كصديق . . . لستَ منصفا كذلك تجاه صديقنا روديون الطيّب أو ، وهذا أكثر أهمية ، تجاه سيادة المدير . حسنًا -هو ليسَ رائعا جدا ، مختال قليلا ، وأخرق نوعًا ما- وهو ليس جيدًا في القاء الخُطب ، كل هذا صحيح ، وأنا نفسي لا أكون أحيانا في مزاج له ، لكن بالطبع لا أستطيع مشاركته أعمق أفكاري كما أفعل معك ، خصوصا عندما -عفوك عن التعبير- تتوجع روحي . لكن أيا كانت العيوب التي يملكها ، فهو رجل مستقيم ،

نزيه ولطيف . نعم ، هو رجل ذو لطف نادر -لا تجـادل- لم أكن لأقول هذا لو لم أكن أعرف ، وأنا لا ألقي الكلام هكذا ، ولدي من الخبرة وأعرف الحياة والناس أحسن منك . لهذا السبب يؤلمني أن أرى بأي برودة قاسية وأي احتقار متغطرس رفضتَ بها رودريغ إيفانوفيتش . في بعض الأحيان أستطيعُ أن أقرأ مثل هذا الألم في عينيه . . . أما بخصوص روديون ، كيف وأنت الذكي جدا عاجز على أن تدرك من خلال فظاظته المتكلفة كل اللطف المؤثر لهذا الطفل الكبير . أوه ، أدركتُ أنك عصبيّ وأنك تتوق جدا للجنس ، رغم ذلك ، سنسيناتوس ، اسمح لي ، لكن هذا ليس صحيحا ، ليس صحيحا . . . وعمومًا ، أنت تستخف بالناس . . . فأنت بالكاد تمسّ وجبات العشاء الرائعة التي نحصل عليها هنا . حسنا ، على افتراض أنك لست مهتما بها -صدقني ، أنا أيضا أعرف بعض الأمور عن فن الطهي الجميل- لكنك تسخر منها ، على الرغم من أن شخصا ما قام بطهوها ، شخص ما عمل بجدٍّ . . .أعرف ، قد ينتابك الملل بعض الأحيان هنا ، وقد تشعر بتوق إلى التنزه أو المرح الصاخب ، لكن لماذا تفكر في نفسك فقط ، في رغباتك ، لماذا لم تبتسم ولو لمرة على النكت الصغيرة المثابرة للعزيز المسكين رودريغ إيفانوفيتش؟ . . . لربما كان يبكي بعد ذلك ، ولا ينام لليالٍ ، تذكّر كيف كنت تتصرف . . .»

«على أية حال ، دفاعك بارع» قال سنسيناتوس «لكنني خبير في الدُمى . لا يجب أن أستسلم» .

«إنه لأمر مؤسف» قال مسيو بيير في نبرة أسىً . «أنا أعزو ذلك إلى فترة شبابك» أضاف بعد وهلة . «كلا ، كلا ، لا يجب أن تكون ظالما للغاية . . .»

«أخبرني» قال سنسيناتوس «هل يتركونك في الظلام أنت أيضًا؟ ألم يصل الفلاّح المشؤوم بعد؟ أليس موسم العزاقة يبدأ غدًا؟»

«لا يجدر بك أن تستخدم مثل هذه الكلمات» قال المسيو بيير وهو يبدي رأيه سِرًا . «لا سيما بهذه اللهجة . . .هناك شيء ما سوقيّ فيها ، شيء لا يليق برجل فاضل . كيف تستطيع أن تتلفظ بمثل هذه الأشياء ، أنا مستغرب منك . . .»

«لكن أخبرني ، متى؟» سأل سنسيناتوس .

«في الوقت المناسب» أجاب المسيو بيير متهربا . «لماذا هذا الفضول الأحمق؟ وعموما . . . كلا ، لا يزال لديك الكثير لتتعلمه ، ألا تفعل مثل هذه الأشياء . هذه الغطرسة ، هذه الأفكار المسبقة . . .»

«لكن كيف لهم أن يؤجلوه بلا داع . . .» قال سنسيناتوس بخمول . «من الطبيعي أن يعتاد المرء على ذلك . . .أبق على روحك مستعدة من اليوم للتالي ، ومع ذلك سيأخذونك فجأةً . لقد مرّت عشرة أيام على هذه الحالة ، ولم أجنّ . إلى جانب هذا ، بالطبع ، هناك دائما بعض الأمل . . . غير واضح ، كما لو كان تحت الماء ، لكن هذا يزيده جاذبيةً . أنت تتحدث عن الهرب . . . أظن ، أخمّن ، أن هناك شخصا ما آخر مهتم بالأمر أيضًا . . . بعض التلميحات . . . لكن ماذا لو كان هذا مجرّد خداع ، طبقة من النسيج تحاكي وجها بشريًا . . .»

تنهد وتوقف عن الكلام .

«هذا غريب» قال المسيو بيير . «ما هي هذه الآمال ، ومن هو هذا المنقذ؟»

«تخيلات» قال سنسيناتوس . «وأنت ، هل تريد الهرب؟»

«ماذا تعني 'بالهرب'؟ إلى أين؟» سأل المسيو بيير في ذهول .

تنهد سنسيناتوس مرة أخرى .

«ما الفرق الذي يصنعه إلى أين؟ نحن قد ، أنت وأنا . . .لا أعرف ، رغم ذلك ، ما إذا كنتَ ببِنيتك هذه ، تستطيع الركض بسرعة . ساقاك . . .»

«هيا ، هيا ، ما نوع الهراء هذا؟» قال المسيو بيير وهو يتململ في كرسيه . «فقط في القصص الخرافية يهرب الناس من السجن . أما عن ملاحظتك عن لياقتي البدنية ، رجاءً احتفظ بها لنفسك» .

«إنني أشعر بالنعاس» قال سنسيناتوس .

شمّر مسيو بيير عن كمه الأيمن . ظهر هناك وشم . وتحت بشرته البيضاء الرائعة برزت عضلاته وتكورت . واتخذ وقفة حازمة وهو يمسك الكرسي بيد واحدة ويقلبه رأسا على عقب وببطء بدأ برفعه . وهو يهتز من الجهد ، أمسكه للحظة عاليا فوق رأسه ثم أنزله ببطء . وكانت هذه الافتتاحية فقط .

وهو يكبح تنفسه إثر الاجهاد ، مسح يديه طويلا وبعناية بمنديل أحمر ، بينما أدى العنكبوت ، كأصغر عضو في عائلة السيرك ، خدعة بسيطة فوق شبكته .

رمى عنه المنديل ، ثم صاح مسيو بيير بهتاف فرنسي وفجأة كان يقف على يديه . تضرّج رأسه المستدير تدريجيا بحمرة وردية جميلة ؛ وانزلق بنطلونه من على ساقه اليسرى ، كاشفا كاحله وبدت عيناه المقلوبتان -كما يحدث للمرء في هذه الوضعية- بدت كأنها عيون أخطبوط .

«ماذا عن هذا؟» سأله وهو يقفز على قدميه ويعدّل ثيابه . أتت

من الممر جلبة تصفيق ، وبعد ذلك ، بشكل منفصل بدأ المهرج بالتصفيق ، بتراخ بينما هو يمشي قبل أن يضرب رأسه على الحاجز .

«جيد؟» كرّر المسيو بيير . «ماذا عن هذا في القوة؟ هل تفي رشاقتي بالغرض؟ أو أنك لم ترَ ما يكفي بعد؟»

في قفزة واحدة ، وثب مسيو بيير فوق الطاولة ووقف على يديه ، وأمسك بمسند الكرسي الخلفيّ بين أسنانه . توقفت الموسيقى بترقّبٍ . كان مسيو بيير يرفع الكرسيّ وهو يحكم امساكه بين أسنانه ، كانت عضلاته المشدودة ترتعش ؛ وكان فكه يصرّ .

فُتح الباب بهدوء وهنا دخل -في أحذية عسكرية ، مع سوط مُغَبَّر ومصباح كشّاف بضوء بنفسجيّ معمي- مدير السيرك . «مثير! أداء متميز!» همس وهو يخلع قبعته ويجلس إزاء سنسيناتوس .

حدث شيء ما ، أطلق مسيو بيير الكرسي من فمه وانقلب بشقلبة ومرة أخرى كان يقف على قدميه فوق الأرضية . ومع ذلك ، على ما يبدو ، لم يكن كل شيء على ما يرام . غطّى فورا فمه بمنديله وهو ينظر بسرعة تحت الطاولة ثم تفحص الكرسي وفجأة رأى ما يبحث عنه ، وحاول بلعن خافت ، أن ينتزع من مسند الكرسي الخلفي طقم أسنانه المعلق الذي كان منغرسا هناك . وهو يستعرض على نحو رائع جميع أسنانه ، أمسك به بقبضة بلدُغ . عندئذ ، دون أن يفكر في ذلك ، حمل المسيو بيير الكرسي وغادر معه .

أما رودريغ إيفانوفيتش الذي لم يلاحظ شيئا ، فقد كان يصفق بحرارة . مع ذلك ظلّت الحلبة فارغة . ألقى نظرة ارتياب على سنسيناتوس ، وصفق لوقت أطول لكن دون الحماس السابق ، ثم شرع بالنهوض في استياء واضحٍ وغادر المقصورة ؛ وهكذا انتهى العرض .

الفصل الحادي عشر

الآن لم تعد الصحف اليومية تُجلب إلى الزنزانة : لأنه بعد ملاحظة أن كل شيء له علاقة بالإعدام يتم اقتصاصه ، رفض سنسيناتوس نفسه أن يستقبلها . وأصبح الإفطار أكثر بساطة : بدلا عن الشكولاتة -وإن كانت شوكولاتة خفيفة- أعطوه أحد المشروبات مع أسطول صغير طافٍ من أوراق الشاي ؛ وكان الخبز المحمّص قاسيا جدا لدرجة أنه لم يتمكن من قضمه . بينما لم يخفِ روديون حقيقة أنه قد ملَّ من خدمة السجين الصامت وصعب الإرضاء .

وقد كان بتأنٍ يشغل نفسه لوقت أطول وأطول في الزنزانة . لحيته الحمراء الملتهبة ، وزرقة عينيه البلهاء ، ومئزره الجلديّ ، ويديه التي تشبه البراثن ، كل هذا تراكم عبر التكرار ليشكل انطباعا مضجرا ومحزنا يجعل سنسيناتوس يشيح بنفسه بعيدا تجاه الحائط بينما تجري عملية التنظيف .

وهذا ما كان عليه اليوم ، فقط أعاد الكرسي الذي لا زالت عليه الآثار الغائرة لأسنان البلدُغ على الحافة العلوية لمسنده الخلفي المستقيم بمثابة سمة مميزة لبداية اليوم . وقد جلب روديون مع الكرسيّ رسالة من المسيو بيير ؛ في ورقة بيضاء ناعمة ومجعدة ، بعلامات ترقيم أنيقة وامضاء مثل رقصة الأقنعة

السبعـــة[1] ؛ وبكلمات مرحة ولطيفة شكر جاره على محادثة الأمس الودية وأعرب عن أمله في أن يتكرر ذلك قريبًا . «دعني أؤكد لك» هكذا انتهت الرسالة «أنني من ناحية بدنية قويّ جدا ، جدًا [تم تسطير خط مزدوج بالمسطرة تحتها] وإذا كنت لا تزال غير مقتنع بهذا ، سيكون لي الشرف أن أعرض لك في وقت ما المزيد من بعض العروض المثيرة للإعجاب [سطّر خطًا تحتها] للتطور العضليّ المذهل والرشيق» .

بعد ذلك وطيلة ساعتين من الفترات بالغة الضآلة من السبات الكئيب ، أمسك سنسيناتوس بشواربه حينا ، وقلّب صفحات كتاب ما حينا آخر ، ثم تمشى في الزنزانة . كان قد أجرى حتى الآن دراسة دقيقة تماما عن ذلك ، لقد عرفها بشكل أفضل بكثير ، على سبيل المثال ، الغرفة التي عاش فيها لسنوات عديدة .

وهكذا كيف كانت الأمور مع الجدران : عددهم أربعة بلا شك ؛ وكانوا مطليين بالأصفر الموحد ، لكن وبسبب الظلال التي تغطيها ، فإن اللون الأصلي يبدو أسودا وأملس يشبه الطين كما هو ، بالمقارنة مع نقطة التحول حيث انعكاس اللون الأصفر المشرق للنافذة يمرر النهار : هنا ، في الضوء ، كل النتوءات الصغيرة لصبغة الأصفر الكثيفة كانت واضحة -حتى الانحناء المتموج للأثر الذي تركه المرور المشترك لشعر الفرشاة- وكان هناك الخدش المألوف الذي

---

(١) اشارة إلى قصة الراقصة سالومي التي أدت أمام هيرود رقصة الأقنعة السبعة ، أُعجب الملك هيرود بالرقصة جدا ووعد بتنفيذ أي طلب ترغبه فطلبت منه رأس يوحنا النبي على طبق ففعل ذلك . والتلميح واضح إلى قطع الرأس بين سنسيناتوس ويوحنا المعمدان في هذه الاشارة . المترجم .

كان يصله متوازي الأضلاع الثمين من ضوء الشمس على العاشرة صباحًا .

انبعث برد مرجف يتشبث بكعب القدم من الأرضية الحجرية المعتمة ؛ كان هناك صدى صوت صغير غير متطور يقطن أحد أجزاء السقف المقعّر قليلا ، بمصباح (مطوّق بالأسلاك) في وسطه -كلا ، أعني ، ليس في الوسط تماما : صدع يزعج العين ويؤلمها- وفي هذا الأمر لا يقلّ ايلاما عن المحاولة غير الناجحة لمحاولة الرسم فوق الباب الحديديّ .

ومن العناصر الثلاثة التي تكوّن الأثاث -السرير ، الطاولة ، الكرسي- لم يكن فيها سوى الأخير يمكن تحريكه . تحرّك العنكبوت أيضا . هناك في الأعلى حيث تبدأ النافذة المائلة المجوفة ، وجد الوحش الصغير الأسود جيّد التغذية نقاطا تدعم شبكة من الطراز الأول بنفس سعة حيلة ودهاء مارثا التي كانت تبديه عندما تجد فيما يبدو زاوية غير ملائمة على الاطلاق ، مكانًا وطريقة لتعليق الملابس المغسولة فيه لتجفّ . كانت براثنه منطوية وهكذا علق مرفقيه المشعرين على الجوانب ، وكان يحدق بعيون مستديرة عسلية في اليد التي تمتد إليه بقلم الرصاص نحوه ، ويشرع في التراجع ، دون أن يحوّل عينيه عنه . بيد أنه كان حريصا للغاية لأخذ ذبابة أو عثة من بين أصابع رودیون الكبيرة ، والآن ، على سبيل المثال ، في الجانب الغربي من الشبكة علّق هناك فراشة فقدت جناحها الخلفيّ ، حمراء كرزيّة بظلّ ناعم مع أشكال معينات زرقاء على طول حافتها المدرجة . كانت تتحرك بعض الشيء في تأرجح لطيف .

أما النقوش على الجدران فقد كانت ممسوحة . كما أن لائحة

القوانين قد اختفت هي كذلك . وكذلك أُخذ -أو ربما كسر- الإبريق الكلاسيكي بمائه الجوفيّ وعمقه الذي يردد الصدى . الكل كان عاريا ، رهيبا ، وباردا في هذه الغرفة حيث كان الحضور الذي يشبه السجن مقموعا تحت حيادية غرفة انتظار -سواء أكانت لمكتب ، مشفىً ، أو أي شيء آخر- وعندما يوشك المساء على الحلول ، لا يسمع المرء سوى الطنين في أذنيه . . .ورعب هذا الانتظار كان يرتبط على نحو ما بوضع المركز الخاطئ للسقف .

أما مجلدات المكتبة التي كان مغلفة بجلد أسود يشبه جلود الأحذية فقد كانت موضوعة على الطاولة والتي كانت قد غُطيت لبعض الوقت من قبل بمفرش مائدة ذو زخارف مربعة . أما قلم الرصاص الذي فقد طوله الرفيع والذي كان ممضوغًا جيدا ، فقد كان فوق الصفحات التي خُربش عليها بعنف ، وكدست على شكل طاحونة هواء . هنا أيضا ألقيت رسالة إلى مارثا ، أنجزها سنسيناتوس في اليوم السابق ، أعني ، اليوم بعد المقابلة : لكنه لم يستطع أن يتخذ قراره بإرسالها ، ولهذا جعلها تمكث هنا لبعض الوقت ، كما لو أنه يتوقع من الشيء ذاته أن يتحقق ، لأن أفكاره المترددة التي هي في حاجة إلى جو آخر ، لم تستطع ببساطة أن تحققه .

وسيكون الموضوع الآن هو النوع القيّم لسنسيناتوس : عدم اكتماله اللحميّ ؛ حقيقة أن أعظم جزء منه كان في مكان مختلف تماما ، بينما لا يوجد سوى جزء تافه منه يهيم ، متحيرا هنا ، سنسيناتوس مسكين ، غامض ، سنسيناتوس غبيّ بعض الشيء ، يثق سريعا ، ضعيف ، وأحمق مثلما يكون الناس في نومهم . لكن حتى أثناء هذا النوم -ومع ذلك ، ومع ذلك- فإن حياته الحقيقة أظهرت نفسها عبر الكثير .

وجه سنسيناتوس الذي أصبح أكثر شحوبا وشفافية ، مع الزغب على خديه الغائرين والشارب بشكل شعره الدقيق والذي يبدي في الحقيقة قليلا من ضوء الشمس المبعثر على شفته العليا ؛ وجه سنسيناتوس صغير ولا يزال صغيرا على الرغم من كل العذاب ، بعينين ذابلتين ، عيون غريبة من ظلّ متقلب ، كانت فيما يتعلق بتعبيرها ، أمرا غير مقبول على الاطلاق بمعايير محيطه ، بالتحديد الآن ، وقد توقف عن اخفاء مشاعره . القميص المفتوح والمبذل الأسود الذي ترك مفتوحا يتطاير ، النعال كبيرة الحجم على قدميه الرقيقتين ، قلنسوة الفيلسوف الضيقة أعلى رأسه وخرير المياه (كان هناك مَجْرًى هوائي يأتي من مكان ما على أية حال!) مارًا من خلال شعره الشفاف على صدغيه تكتمل الصورة ، انعدام حياء كامل يصعب التعبير عنه بالكلمات ، أُنتج كما لو كانت هناك ألوف من التفاهات المتداخلة التي بالكاد تلحظ : حدد الضوء شفتيه ، على ما يبدو أنها لم ترسم على نحو تام إلا أنها لمسة من أستاذ الأساتذة ؛ وللحركات المرتجفة ليديه الفارغتان التي لم تظلل بعد ، من الأشعة المبعثرة ثم المجتمعة مجددا في عينيه المفعمتان بالحيوية ؛ لكن حتى كل هذا ، بعد تحليله ودرسه ، لا يستطيع أن يفسّر سنسيناتوس على نحو كامل : يبدو وكأن أحد جوانب كينونته انزلق إلى بُعد آخر ، كما لو أن كل تعقيد أوراق شجرة يمر من الظلّ إلى النور الساطع ، وهكذا لا تستطيع أن تميز بالتحديد أين يبدأ الانغماس في وميض عنصر آخر . يبدو في أية لحظة ، خلال تحركه في هذا المكان المحدود من الزنزانة المُخترعَة عشوائيا ، أن سنسيناتوس قد يخطو بطريقة كما لو أنه ينزلق طبيعيا ودون جهد عبر شِق ما في الهواء إلى كواليسه المجهولة ليختفي هناك بنفس

السلاسة السهلة التي يتحرك بها انعكاسٌ وامض لمرآة دوّارة عبر كل غرض في الغرفة ويختفي فجأة ، كما لو كان وراء الهواء ، في عمقٍ جديد ما من الأثير . في ذات الوقت ، كان كل شيء حوله يتنفس بحيوية مرهفة نعسانة ، لكنها في الحقيقة قويّة على نحو استثنائي ، متحمسة ومستقلة : كانت أوردته ذات اللون الأزرق الكئيب تنبض ، لعابه الشفاف كالبلورات يبلل شفتيه ، كانت بشرته ترتجف على خديّه وجبينه ، الذي كان محفوفا بالضوء المتحلل . .وكل هذا كان يزعج المشاهد جدا ويجعله يتوق إلى تقطيعه ، تمزيقه إربًا ، وأن يدمر تماما هذا اللحم المرواغ الوقح ، وكل ما ينطوي عليه ويعبر عنه ، كل هذا المستحيل ، وهذه الحرية المحيّرة -كفى ، كفى- لا تسر مرة أخرى ، يا سنسيناتوس ، استلقِ على سريرك ، وهكذا لن تثير ، ولن تزعج . . .وفي الحقيقة أصبح سنسيناتوس منتبها للعين المفترسة من ثقب الباب التي كانت تتابعه ، واستلقى أو جلس إلى الطاولة وفتح كتابًا .

كانت الكومة السوداء للكتب على الطاولة تتكون من الآتي : أولا ، رواية معاصرة لم يزعج سنسيناتوس نفسه بقراءتها خلال فترة وجوده في الحرية ، ثانيا ، احدى تلك المختارات ، التي تطبع بعدد لا يحصى من الطبعات مع تنقيحات مكثفة للمقتطفات من الأدب القديم ؛ ثالثًا ، مجلد جامع لأعداد مجلة قديمة ؛ رابعًا ، عدة مجلدات صغيرة متسخة من عمل بلغة مجهولة ، جُلبت إليه خطأً ، لم يكن قد طلبها .

كانت الرواية هي شجرة السنديان الشهيرة ، وقد كان سنسيناتوس قد قرأ بالفعل ثُلثًا طيبًا منها ، أو حوالي ألف صفحة . كان بطل الرواية شجرة سنديان . والرواية كانت سيرة ذاتية لهذه

الشجرة . في الموضع الذي توقف فيه سنسيناتوس كانت شجرة السنديان قد بدأت للتو في مئويتها الثالثة ؛ وبعملية حسابية بسيطة يمكن الخلوص إلى أنه بالوصول إلى نهاية الكتاب سيكون عمرها ستمئة سنة على الأقل .

كانت فكرة الرواية تعتبر ذروة الفكر الحديث . مستخدما النمو التدريجي للشجرة (كانت تنمو منعزلة بجلال على حافة وادٍ عميق لم تتوقف المياه التي تجري في قاعه عن الخرير) ، نشر المؤلف طيّ كل الأحداث التاريخية -أو ظلال الأحداث- التي من الممكن أن تكون شجرة السنديان شاهدة عليها ؛ فيورد في حين حوارًا بين محاربين ترجلا عن فرسيهما -الأول أرقط ، والثاني كميت- خلال الاستراحة تحت العريشة الجميلة لأوراقها النبيلة ؛ وفي حين آخر يتوقف عندها قطاع طرق وتنطلق أغنية آنسة هاربة مشعثة الشعر ؛ وفي حين ثالث ، تحت العاصفة ذات الزرقة المتعرجة ، مرور سريع لأحد اللوردات هاربًا من غضب ملكيّ ، وفي حين آخر ، على عباءة مفروشة جثة ، لا تزال ترتجف مع اهتزاز الظلال الورقيّة ، وفي حين آخر دراما صغيرة في حياة بعض القرويين . كانت هناك فقرة بطول صفحة ونصف جميع كلماتها تبدأ بحرف «p» .

يبدو الأمر وكأن المؤلف كان جالسا بآلة تصويره في مكان ما بين الفروع العليا لشجرة السنديان ، يتجسس ويلتقط فريسته . صور مختلفة من الحياة كانت تأتي وتذهب وتتوقف لبرهة بين البقع الخضراء للضوء . ملئت الفترات العادية للخمول بالأوصاف العلمية لشجرة السنديان ذاتها ، من وجهة نظر علم الأشجار ، علم الطيور ، علم دراسة الخنافس ، علم الأساطير ، أو أوصاف عامة مع لمسات من الفكاهة الشعبية . ومن بين أمور أخرى كان هناك لائحة مفصّلة

بكل الحروف البادئة المنحوتة على لحاء الشجرة مع تفسيراتها . وأخيرًا ، كرّس اهتماما ليس ضئيلا بموسيقى الماء ، وألوان غروب الشمس وسلوك الطقس .

قرأ سنسيناتوس لفترة ثم وضعها جانبًا . كان هذا العمل بلا شك أفضل ما أنتجه عصره ؛ على الرغم من أنه تغلّب على الصفحات ذات المشاعر الحزينة ، وتمهّل خلال صفحات الكرب المملّ واستمر بالانفلات من القصة بانسياقه مع تيّار تأملاته الخاصة : ما الذي يهمني في كل هذا ، بعيد ، مخادع ، وميّت ؛ أنا الذي يتهيأ للموت؟ أو يبدأ بتخيل كيف أن المؤلف ، الذي لا يزال شابا ، يعيش كما يقولون في جزيرة في بحر الشمال -سيموت هو أيضا ، وقد كان الأمر طريفا إلى حد ما فعلا أن المؤلف عليه أن يموت- وقد كان طريفا لأن الشيء الحقيقي الوحيد الذي لاشك فيه حقًا كان الموت ذاته فقط ، حتميّة الموت الجسدي للمؤلف .

كان الضوء يتحرك على طول الجدار . ظهر روديون مع ما يسميه فروشتك[1] ومجددا انزلق جناح فراشة بين أصابعه مخلفا مسحوقا ملونا عليها .

«هل من الممكن أنه لم يحن وقته بعد؟» سأل سنسيناتوس ولم يكن بالفعل أول مرة يسأل فيها هذا السؤال ، والذي كان يغضب روديون إلى حد كبير ، ومرة أخرى لم يرد عليه .

«ومقابلة أخرى . . . هل سيسمحون لي بذلك؟» سأل سنسيناتوس .

متوقعا حرقان قلبه المعتاد استلقى على السرير واستدار نحو

---

(١) وردت الكلمة بالألمانية frühstück وهي تعني وجبة فطور الصباح . المترجم .

الجدار لزمن طويل ، والزمن الطويل يساعد على تشكل الأنماط عليه ، من النقاط الصغيرة للدهان الصقيل وظلالها الصغيرة المستديرة سيكتشف على سبيل المثال ، صورة مصغّرة مع أذن كبيرة تشبه أذن الفأر ، ومن ثم يفقدها ويعجز عن اعادة تشكيلها . هذا الطلاء الأصفر البارد برائحة القبور ، كان كثير البثور ومرعبًا ، رغم ذلك لا تزال نظرته تصرّ على اختيار وربط النتوءات الصغيرة الضرورية ، كان توّاقا جدا حتى لشَبَه غامض مع وجه انسانيّ . وأخيرًا انقلب ، واستلقى على ظهره وبنفس الانتباه بدأ بتفحص الظلال والشقوق على السقف .

«على أية حال ، لقد نجحت في تلطيفي» تأمّل سنسيناتوس . «لقد أصبحتُ ضعيفا ولينًا جدا لدرجة أنهم سيستطيعون فعل ذلك بسكين فاكهة» .

لبعض الوقت جلس على حافة السرير ، ويداه مضغوطتان بين ركبتيه وجسده كله منحن . أطلق تنهيدة مرتجفة وبدأ بالتمشي مجددا . إنه لأمر مثير ، مع ذلك ، بأي لغة كُتب هذا . الخطّ الصغير ، المكثف والمنمق بالأشكال والزخارف تبدو معه الحروف التي تشبه المناجل وكأنها حروف شرقيّة ، كان يذكره على نحو ما بالنقوش التي على الخناجر في المتحف . مثل هذه المجلدات الصغيرة القديمة ، بصفحاتها الباهتة . . . بعضها ملطخ ببقع بنيّة مصفّرة .

دقّت الساعة السابعة ، وبعد فترة قصيرة ظهر روديون مع العشاء .

«هل أنت متأكد من أنه لم يحن بعد؟» سأل سنسيناتوس .

كان روديون على وشك المغادرة عندما التفت عند العتبة .

«عار عليك» قال بنبرة حسرة في صوته «لا تفعل شيئا طيلة

النهـار والليل . . .هناك بشـريّ يطعـمك هنا ، ويعـاملك بودّ ، ويستنزف نفسه من أجلك ، وكل ما تفعله هو طرح أسئلة غبية . يا للعار ، أنت رجل ناكر للجميل . . .»

الزمن ، وهو يئز بهدوء ، واصل المضيّ . أصبح الجو في الزنزانة مظلما ، وعندما أصبح كثيفا ومعتما تماما ، أتى الضوء بطريقة تجارية من وسط السقف -كلا ، ليس في الوسط ، لقد كان بقربه فقط- كتذكير مؤلم . خلع سنسيناتوس ملابسه واستلقى على السرير مع رواية السنديان . كـان المؤلف قـد وصل بالفـعل إلى العـصـور المتحضّرة ، نظرا للمحادثة التي جرت بين ثلاثة من عابري السبيل المرحين ، تيت وبَد ، واليهودي التائه الذين كانوا يأخذون جرعات من النبيذ من قنانيّهم على العشب البارد تحت السنديانة السوداء العتيقة .

«ألن ينقذني أحد؟» سأل سنسيناتوس فجأة بصوت عالٍ وهو يجلس على السرير (فاتحا يديه المعوزتين مظهرًا أنه لا يملك شيئا) .

«هل يمكن ألا أحـد سـيـفـعل ذلك؟» كـرّر سنسـيناتوس وهو يحـدّق في الصـفـرة العنيـدة للجـدران وهو لا يزال يرفع راحـتـيـه الفارغتين .

وأصبح الخرير حفيفَ ورق أشجار . ومن الظلال الكثيفة في الأعلى سـقطت وارتدت على البطانيـة جوزة بلّوط كـبـيـرة زائفـة ، ضِعف حجم الحياة ، كانت مطلية بروعة باللون الأصفر الباهت الصقيل ، وتناسب كأسها الفليني على نحو دقيق تمامًا مثل بيضة .

الفصل الثاني عشر

استيقظ على صوت نقر وخدش مكبوت ، وصوت شيء يتفتت في مكان ما . كما هو الحال عندما تغطّ في نوم عميق الليلة الماضية ، لتستيقظ في منتصف الليل مصابا بالحمى . استمع إلى هذه الأصوات لفترة طويلة جدا -تْربْ ، تْربْ ، تُكْ ، تُكْ ، تُكْ- دون أي تفكير حول معناها ، مجرد استماع ، لأنها أيقظته ولأن أذنيه لا تملك أي شيء آخر تفعله . تْربْ ، تَبْ ، خدش ، تفتيت- تفتيت . أين؟ إلى اليمين؟ إلى اليسار؟ رفع سنسيناتوس نفسه إلى أعلى قليلا .

أرهف السمع ؛ أصبح جسده كله جهاز سمع ، جسده كله قلب متوتر ؛ أصغى وبدأ بالفعل يفهم بعض الدلالات : التقطير الضعيف للظلام في الزنزانة . . . استقر الظلام في القاع . . . وراء قضبان النافذة ، شفق رمادي ، هذا يعني أنها الثالثة أو الثالثة ونصف . . . كان الحرّاس نائمين في البرد . . . كانت الأصوات تأتي من مكان ما أسفل . . كلا ، لقد كانت بدل ذلك تأتي من الأعلى ، كلا ، إنها تأتي من الأسفل ، تماما من الجانب الآخر للجدار ، على مستوى الأرضية ، كما لو كانت تصدر من فأر كبير يخدشها بمخالب حديدية .

كان سنسيناتوس متحمسا على الأخص بالثقة الذاتية المركّزة للأصوات ، والجدّية الملّحة التي تسعى بها ، في صمت ليل القلعة ، نحو هدفٍ لربما بعيد ، لكنه مع ذلك قابل للتحقيق . بفارغ الصبر

وبخفة شبح ، ومثل قطعة من المناديل الورقية ، انزلق -ومشى على رؤوس أصابعه على طول الأرضية اللزجة والدبقة- إلى الزاوية التي يصدر عنها -يبدو أنه يصدر عنها- لكنه باقترابه أكثر ، أدرك أنه كان مخطئا ، فقد كان النقر أكثر ناحية اليمين وأعلى هناك ، تحرك ، ومرة أخرى تحيّر ، انخدع بالوهم السمعيّ الذي يحدث عندما ينتقل الصوت قطريا عبر رأس المرء ، وتلتقطه على عجلٍ الأذن الخاطئة .

وهو يخطو على نحو مرتبك ، مسّ سنسيناتوس برفق حافة الصينية التي كانت موضوعة على الأرضية قرب الجدار . «سنسيناتوس!» قالت الصينية موبخةً ، من ثم توقف النقر بمفاجأة حادة ، حيث تُنقل إلى المستمع عقلانيّة مشجعة ، وواقفا دون حراك قرب الحائط ، ضغط إلى أسفل برأس أصبعه الملعقة على الصينية وأمال رأسه المجوف المفتوح ، شعر سنسيناتوس أن الحفّار المجهول لا يزال واقفا يستمع هو كذلك .

مرّت نصف دقيقة وبشكلٍ أهدأ عادت الأصوات على نحو أكثر خفوتا لكن أكثر تعبيرا وذكاءً ، مرة أخرى . استدار وببطء نقل باطن قدمه فوق الصينية الزنكية ، حاول سنسيناتوس مجددا أن يحدد موقعها : إلى اليمين ، إذا كان المرء واقفا مواجها الباب . . . أجل ، نحو اليمين ، وعلى أية حال ؛ لا زال بعيدا هناك . . . بعد الاستماع لفترة طويلة هذا كل ما استطاع استنتاجه . أخيرا تراجع نحو السرير ليرتدي نعليه -لم يستطع أن يتحمل الحفاء مدة أطول- روّع الكرسي ذا الأرجل الصاخبة ، والذي لم يقضِ الليلة في نفس الموضع مرتين ، ومرة أخرى توقفت الأصوات ، وهذه المرة للأبد ، أعني لربما سوف تستأنف بعد فترة تحفّظ ، لكن الصباح كان قد أتى بذاته فعلا وسنسيناتوس رأى -بعيون الخيال المعتادة- روديون ،

ينبعث كالبخار من الرطوبة ويفتح في تثاؤب فمه الأحمر الساطع ، وهو يتمطى على مقعده ثلاثيّ الأرجل في الردهة .

طيلة الصباح أرهف سنسيناتوس سمعه وحَسَب كيف يمكنه أن يعرف وضعيته بالنسبة للأصوات في حالة ما تكررت مرة أخرى . كانت عاصفة رعدية صيفيّة ، بسيطة لكنها أُعدت بذوق رفيع ، تؤدى هناك في الخارج : لقد كان الجو مظلما كما لو أنه المساء في الزنزانة ، وكان صوت الرعد مسموعا ، كان حينًا قويًا ودائريا ، وفي حين آخر حادًا ومنكسرا بينما طبع البرقُ ظلال القضبان في أماكن غير متوقعة . وعند الظهر جاء إيفانوفيتش رودريغ .

«لديك رفقة» قال «لكني أريد أن أعرف أولاً . . .»

«من؟» سأل سنسيناتوس وفي نفس الوقت كان يفكّر : رجاءً ، ليس الآن . . . (يعني ، رجاءً ، لا تدعو النقر يستأنف الآن) .

«كما ترى ، هذا ما عليه الأمر» قال المدير «لست متأكدًا من أنك ترغب في . . . كما تعرف ، إنها أمك ، فوتغ مير votre mère ، كما يبدو»

«والدتي؟» سأل سنسيناتوس .

«حسنا ، نعم -الأم ، مامي ، ماما- وباختصار ، المرأة التي أنجبتك . هل أسمح لها بالدخول؟ اتخذ قرارك بسرعة» .

« . . .لم أرها إلا مرة واحدة في حياتي» قال سنسيناتوس «وفي الحقيقة ليست لدي أي مشاعر . . . كلا ، كلا ، الأمر لا يستحق ، لا تفعل ، سيكون بلا جدوى» .

«كما تشاء» قال المدير وانصرف .

بعد دقيقة ، وهو يترنم بلطف ، قاد للداخل المرأة الضئيلة جدا سيسيليا س . وهي ترتدي معطفا أسود واق من المطر . «سأترككما

معـا على انفـراد» أضـاف بطيبـة قلب «حـتى ولو أن هذا مخـالف للقـانون الداخلي ، لكن هناك في بعض الأحـيـان حـالات . . . استثناءات . . . أم وابنها . . أنا أراعي . . .»

خرج وهو يتراجع مثل أحد رجال الحاشية الملكية .

في معطفها الواقي من المطر الأسود اللامع وقبعة مماثلة صامدة للماء بحافة منخفضة (تمنحها شيئا من مظهر قبعة سَو-ويستر[1]) ظلّت سيسيليا س . واقفة وسط الزنزانة ، وهي تلقي بنظرة واضحة على ابنها ؛ فكّت أزرار معطفها ؛ وشهقت بصخب وقالت بطريقتها السريعة المتقطعة : «يا لها من عاصفة ، يا له من وحل ، ظننت أنيّ لن أصل هنا أبدا ، كانت التيارات وسيول الماء تنحدر على الطريق متجهة نحوي . . .»

«اجلسي» قال سنسيناتوس «لا تقفي هكذا» .

«قل ما تشاء ، لكن الجو هادئ هنا في مكانك» ، تحركت وهي تشهق في غضون ذلك وتفرك بإصبعها بشدة ، كما لو كان مبشرة جبن ، تحت أنفها وهكذا تجعّد واهتز طرفه الوردي . «سأقول أمرا واحـدا ، المكان هادئ ونظيف تمامًـا هنا . بالمناسـبـة ، في جناح الولادة ، لم يكن لدينا حجرات خاصة كبيرة كهذه . أوه ، هذا السرير ، يا عزيزي ، انظر فقط أي فوضى تعمّ سريرك!» .

طرحت أرضا حقيبة القابلة خاصتها ، وبرشاقة سحبت قفازات القطن السوداء من على يديها الصغيرتين المرتجفتين ، وانحنت أسفل على السرير وبدأت في ترتيبه من جديد . كان

---

(١) sou'wester قُبّعة من قُماش مُشمّع لها رفراف يُغطّي الرَّقَبة يلبَسُها الملّاحون . المترجم .

ظهرها يبدو في المعطف ذو الحزام ، بقماشه اللامع مثل الأختام الشمعية ، وجواربها المرتقة . . .

«الآن هكذا أفضل» قالت وهي تستقيم ثم وقفت لبرهة وهي تضع ذراعيها على خاصرتها ، وألقت نظرة مرتابة على فوضى الكتب فوق الطاولة .

كانت فتيّة وكل ملامحها كانت نموذجا لتلك التي يمتاز بها سنسيناتوس ، والتي كانت تحاكيها بطريقتها الخاصة ؛ سنسيناتوس نفسه كان واعيا بشكل غامض بهذا التشابه وهو ينظر إلى وجهها الصغير ذو الأنف الحاد وعينيها البارزتان المضيئتان . كان فستانها مفتوحا من الأمام كاشفا عن مثلث من بشرة منمشة حمراء سفعتها الشمس ؛ عموما كان الجلد من ذات النوع الذي أُخذ منه في احدى الأوقات قطعة شكلت سنسيناتوس ، بشرة شاحبة ، رقيقة بأوردة ذات زرقة سماوية .

«تْسك ، تْسك ، قليلا من التقويم سيتم اجرائه هنا أيضًا . . .» ثرثرت وبسرعة كما تفعل أي شيء آخر ، شغلت نفسها بالكتب ورتبتها في أكوام متساوية . في غضون ذلك شدت انتباهها صورة توضيحية في مجلةٍ مفتوحة ؛ التقطت من جيب معطفها الواقي من المطر علبة على شكل كُلية ، ولوت زوايا فمها نحو الأسفل ووضعت نظارة أنفيّة . «إنها تعود لسنة ست وعشرين» قال وهي تضحك . «منذ وقت طويل جدًا ، من الصعب حقا أن تصدّق هذا» .

(صورتين : في احدها رئيس الجزر وهو يصافح بابتسامة تظهر عبرها أسنانه يد الحفيدة الجليلة الكبرى لآخر المخترعين في محطة السكك الحديدية مانشستر ؛ والأخرى عجل مزدوج الرأس ولد في احدى قرى الدانوب) .

تنهدت دون سبب واضح ، ودفعت المجلد جانبا ، مما ألقى بقلم الرصاص بعيدا ، لم تلتقطه في الوقت المناسب وقالت «عفوا!» .

«دعيه كما هو» قال سنسيناتوس . «لا يمكن أن يحدث اضطراب هنا ، فقط يتجول حول المكان» .

«تفضل ، لقد جلبت لك هذا» . (سحبت كيسا من جيب معطفها ، ساحبة معه بطانته أيضًا) . هاك بعض الحلوى . استمتع بها حتى يرضى قلبك» .

جلست وهي تنفخ خديها .

«لقد صعدتُ ، وصعدتُ وأخيرا وصلت والآن أنا متعبة» قالت ، وهي تنفث الهواء بتروٍّ ثم تجمدت وهي تحدق بحنين غامض إلى بيت العنكبوت في الأعلى .

«لماذا أتيت؟» سأل سنسيناتوس وهو يتمشى في الزنزانة . «هذا لن يفيدك شيئا ، ولن يفيدني شيئا . لماذا؟ لأنه ليس لطيفا ، ولا مثيرا للاهتمام . لأنني أستطيع أن أرى بوضوح كامل أنك مجرد محاكاة ساخرة كالجميع وككل شيء آخر . ولو أنهم يخادعونني بمثل هذه المحاكاة الساخرة لأم . . .لكن تخيلي ، على سبيل المثال ، أنني علقت آمالي على أحد الأصوات البعيدة ، كيف لي أن أؤمن به ، إذا كنتِ حتى أنت زائفة؟ وتتحدثين عن «الحلوى!» لماذا ليس «أطايب الطعام»؟ ولماذا معطفك الواقي من المطر مبلل بينما حذائك جاف ، أرأيت؟ ، هذا اهمال . أخبري رئيس عمال الأكسسوار بالنيابة عنيّ»[1] .

---

(١) رئيس عمال الأكسسوار هو الفني المسؤول عن فريق العاملين في تجهيز وتوزيع وترتيب مُكمِّلات المَنظر أو الديكور وفقًا للأسلوب الذي يحدِّده لهم المدير =

قالت بسرعة وهي تشعر بالذنب «لكنني كنت أرتدي أحذية مطاطية طويلة ، لقد تركتها أسفل عند المكتب ، كلمة شرف منيّ» .

«أوه ، كفى ، كفى . فقط لا تبدئي الشرح . العبي دورك - امضي بتأنٍ في الثرثرة واللامبالاة- ولا تقلقي ، سيمر الأمر دون أن يلاحظه أحدٌ» .

«لقد جئت لأنني أمك» قالت بهدوء لينفجر سنسيناتوس ضاحكًا :

«كلا ، كلا لا تدعي الأمر يتحول إلى مهزلة . تذكري ، هذه دراما . بعض الكوميديا أمر لا بأس به ، لكن يبقى لزاما عليك ألا تبتعدي كثيرا عن المحطة ، فالدراما قد تغادر من دونك . من الأفضل عليكِ أن . . . أجل ، سأخبرك بماذا ، لماذا لا تخبرينني مجددا بالأسطورة عن والدي . هل يمكن أن يكون صحيحا أنه اختفى في ظلمة الليل ، ولم تكتشفي أبدا من كان أو من أين أتى . . . إنه لأمر غريب . . .»

«فقط صوته . . . لم أرَ الوجه» أجابت بهدوء كما فعلت من قبل .

«هو ذا ، هو ذا ، تلاعبي بي ، أنا أعتقد أننا سنجعله بحّارًا هاربا» واصل سنسيناتوس بحزن ، وهو يعضّ أصابعه ويتمشى ،

= الفني أو منسّق المناظر . تشمل مُكمّلات المَنظر ، أو الأكسسوارات ، الأثاث والمفروشات والستائر والسجاجيد واللوحات ، بالإضافة إلى المُكمّلات أو الأكسسوارات الشخصية التي يحتاجه إليها الممثلون ، مثل عصا السير ، أو العكاز الطبي ، أو الهواتف المحمولة أو ولاّعات وعلب السجائر . المترجم .

ويتمشى ، «أو لصّ غابات يتنكر بمظهر ضيف في حديقة عامة . أو حرفي عنيد ، نجّار . . . هيا ، بسرعة ، فكرّي في شيء ما» .

«أنت لا تفهم» ، صرخت (وفي غمرة حماسها وقفت ثم جلست على الفور مرة أخرى) . «هذا صحيح ، أنا لا أعرف من كان ؛ صعلوكًا ، هاربا ، كل شيء ممكن . . .لكن لماذا لا تستطيع أن تفهم . . .أجل ، كانت عطلة ، كانت الحديقة مظلمة ، وكنت لا أزال طفلة ، لكن هذا خارج الموضوع . والشيء المهم هو أنه من غير الممكن أن تُخطئ! فالرجل الذي يُحرق حيًا يعرف تماما أنه لا يأخذ غطسة في نهر سْتروب . عجبا ، ما أعنيه هو ، أن المرء لا يمكن أن يخطئ . .أوه ، ألا يمكنك أن تفهم؟»

«لا أستطيع أن أفهم ماذا؟»

«أوه ، سنسيناتوس ، لقد كان هو أيضا . . .»

«ماذا تقصدين بقولك 'هو أيضًا'؟»

«لقد كان هو أيضا مثلك ، سنسيناتوس . . .»

أخفضت وجهها جدا وأسقطت نظارتها الأنفية في يدها المقعرة .

مرت لحظة صمت .

«كيف عرفت ذلك؟» سأل سنسيناتوس بكآبة . «كيف أمكنك أن تلاحظي فجأة . . .»

«لن أخبرك بأي شيء أكثر من هذا» قالت دون أن ترفع عيناها .

جلس سنسيناتوس على السرير وانغمس في تفكيره . تمخطت والدته بصوت عال غير عادي كصوت البوق لا يتوقع المرء أن يصدر عن امرأة بمثل ضآلتها ثم نظرت أعلى إلى النافذة المجوّفة . من

الواضح أن الطقس أصبح صحوا ، لأن المرء بإمكانه أن يرى الحضور القريب لزرقة السماء ، والشمس رسمت شريطها على الجدار ، كان يبدو شاحبا حينا ومشرقا في حين آخر .

«هناك زهور التُرُنْجَان الآن في حقول الجودار» قالت وهي تتكلم بسرعة «وكل شيء جميل جدا ، السحاب يمر بسرعة ، كل شيء مشرق ولا يهدأ أبدًا . أنا أعيش بعيدًا عن هنا ، في دوكتورتون ، وعندما جئت إلى مدينتك هذه ، وعندما مضيت عبر الحقول في العربة الصغيرة العتيقة ، ورأيت نهر سْتروب يلتمع ، وهذا التل الذي فوقه القلعة ، وكل شيء ، لطالما بدا لي أن حكاية عجيبة تتلى مرارا وتكرارا ، وأنا إما أنني لا أملك الوقت لها ، أو أنني عاجزة على أن أفهمها ، ومع ذلك لا يزال شخص ما يعيدها عليّ ، بصبر لا حدود له! أعمل طيلة النهار في جناحنا ، وأنجز الأمور دون عناء ، لديّ عشّاق ، وأحبّ عصير الليمون المثلج ، على الرغم من أنني أُقلعت عن التدخين ، بسبب متاعب القلب ، والآن ها أنا ذا أجلس معك . . . أنا أجلس هنا ولا أدري لماذا جلست ، لماذا أصرخ ، ولماذا أخبرك بكل هذا ، والآن لا ينبغي عليّ أن أكدح مشيًا بهذا المعطف وهذا الفستان الصوفيّ ، فالشمس لا بد أن تكون شريرة بلا شك بعد عاصفة مثل هذه . . .»

«كلا ، فأنت لا تزالين مجردَ محاكاة ساخرة» غمغم سنسيناتوس .

ابتسمت على نحو مستفهم .

«تمامًا مثل هذا العنكبوت ، تماما مثل هذه القضبان ، تماما مثل دقات تلك الساعة» غمغم سنسيناتوس .

«إذًا» قالت وهي تتمخط مرة أخرى .

«إذًا ، هذا ما عليه الحال» كررت .

ظلّ كلاهما صامتا ، لا ينظران لبعضهما البعض ، بينما الساعة تدقّ برنين لا معنى له .

«عندما تغادرين» قال سنسيناتوس «لاحظي الساعة في الممر . القرص المُدرَّج فارغ ، على أية حال كل ساعة يُمحى العقرب القديم ويرسم برداءة العقرب الجديد ، وهكذا كيف نعيش ، بزمن فرشاة قَطْرَنَة ، وصوت الدقّات هو عمل الحارس ، وهذا سبب تسميته رجل 'الساعة'[1]» .

«لا يجدر بك أن تمزح هكذا» قالت سيسيليا س . «فهناك ، كما تعلم ، كل أنواع الحيلِ الميكانيكية الرائعة . أتذكر ، مثلا ، عندما كنت طفلة ، كانت هناك أشياء تدعى «نونّونس» كانت شعبية ورائجة ، ليس فقط بين الأطفال ، بل بين البالغين أيضا ، وكما تعرف ، كانت هناك مرآة خاصة تأتي معها ، لم تكن ملتوية فقط لكنها مشوّهة بالكامل . ليس باستطاعتك أن تستخلص منها أي شيء ، كانت كلها فجوات وفوضى ، ولا تمثل أي معنى للعين ، كما أن اعوجاجها لم يكن عاديًا أيضا ، لكنه محسوب بطريقة ما مثل . . . أو بالأحرى ، ليربطوا الاعوجاج الذي صنعوه . . .كلا ، انتظر لحظة ، أنا سيئة في الشرح . حسنا ، يكون لديك مرآة مجنونة مثل هذه ومجموعة كاملة من «النونّونس» المختلفة ، أشياء غريبة تماما ، بلا شكلٍ ، منقطة ، ذات ندوب ، وأشياء متكتلة ، تشبه

---

(١) تلاعب لغوي من نابوكوف باللغة الانجليزية فالحارس فيها watchman وعند فصلها watch man كما فعل في النص الأصلي ينتج لدينا رجل الساعة . المترجم

بعض الأحافير ، لكن المرآة ، التي كانت تشوّه الأشياء العادية كليًا ، الآن كما ترى ، تحصل على شيء حقيقيّ ، هو ذا ، عندما تضع احدى هذه الأشياء المشوهة المبهمة بحيث تنعكس في المرآة المشوهة المبهمة ، يحصل شيء عجيب ؛ ناقص ضرب ناقص يساوي زائد ، يعود كل شيء كما كان ، ويصبح كل شيء حسنًا ، وذلك الكيان المنقط البشع يصبح في المرآة صورة محسوسة رائعة : زهورًا ، سفينة ، شخصًا ، ومنظرا طبيعيا . تستطيع الحصول على بورتريه لك على مقاسك ، أقصد أنك ستتلقى نوعا من الفوضى الكابوسية وهذا الشيء هو أنت ، فقط مفتاح الوصول إليك يكون لدى المرآة . أوه ، أتذكر كم كان الأمر ممتعًا ، وكم كان مخيفا قليلا - ماذا لو أن شيئا لم يخرج فجأة؟- أن تلتقط «نونّون» جديدا مبهمًا ، وتقرّبه من المرآة ، وترى يديك تتشوه كليا وفي ذات الوقت ترى «النونّون» الذي لا معنى له يتحول إلى صورة جذّابة ، صافية جدًا ، جدًا . . .»

«لماذا تخبرينني بكل هذا؟» سأل سنسيناتوس .

بقيت صامتة .

«ما هو الهدف من كل هذا؟ هل تعرفين أنه في احدى هذه الأيام ، ربما غدا . . .»

فجأةً لاحظ التعبير في عيون سيسيليا س . -فقط للحظة ، لوهلة- لكنه كان شيئا حقيقيا لا شك فيه (في هذا العالم حيث كل شيء موضع تساؤل) ، كان قد مر خلالهما كما لو كانت طيّة من هذه الحياة الرهيبة قد التفّت ، وظهر منها لمحة من بطانتها . في نظرات والدته ، رأى سنسيناتوس فجأة البريق المطلق ، الآمن ، المفسّر كليًا ، والمحميّ من الجميع الذي كان يعرف كيف يدركه في

ذاته هو أيضًا . عمّا كان يعبر هذا البريق على نحو ثاقب الآن؟ لا يهمّ ذلك ، سمِّه رعبا أو شفقة . . .لكن بالأحرى دعونا نقل هذا : أن البريق أعلنَ نوعا من شغب الحقيقة جعلت روح سنسيناتوس لا يمكنها إلا أن تقفز فرحًا . مرت اللحظة بسرعة واختفى . نهضت سيسيليا س . وهي تقوم بإيماءة صغيرة لا تصدق ، أقصد أنها أبعدت يديها كلا على حدة واصبعيها الابهام ممتدان كما لو أنها تشير إلى حجم ، طول ، لنقل ، رضيع ما . . .ثم بدأت على الفور تنشط وهي تلتقط من الأرضية حقيبتها السوداء المنتفخة وتعيد بطانة جيبها إلى موضعها .

«ها نحن الآن» قالت بنبرتها السابقة الثرثارة «لقد مكثت لفترة من الوقت والآن سأذهب . كُل الحلوى . لقد أطلت المكوث هنا . سأذهب ، لقد حان الوقت» .

«أوه ، نعم ، حان الوقت!» رعد إيفانوفيتش رودريغ بمرحٍ شرس وهو يركلُ فاتحا الباب .

ورأسها منحنٍ ، غادرت الزنزانة . أما سنسيناتوس وهو يرتجف فقد كان على وشكٍ أن يخطو للأمام . . .

«لا تقلق» قال المدير وهو يرفع كفّه «هذه القابلة الصغيرة لا تشكل أي خطر علينا . تراجع!»

«ولكنني ما زلت أريد أن . . .» بدأ سنسيناتوس .

«إلى الخلف!» صخب رودريغ إيفانوفيتش .

في ذات الوقت ، ظهرت هيئة المسيو بيير بملابسه المخططة المتراصة في أعماق الممر . كان يبتسم بلطف من بعيد ، لكنه يكبح سرعته قليلا ، وعيناه تتجولان هنا وهناك خلسة كما يفعل الناس عندما يسيرون في طابور ، لكنهم لا يريدون أن يعززوا وعيهم

بذلك . كان يحمل لوحة شطرنج وصندوقا أمامه ودمية مُهَرِّج وشيئا ما آخر تحت ذراعه .

«هل كـان لديك ضـيـوف؟» سـأل بأدب سنسـيناتوس بينمـا تركهما المدير لوحدهما في الزنزانة . «هل زارتك الماما؟ لا بأس ، لا بأس . والآن ها أنا ذا ، المسكين ، الضعيف الضئيل مسيو بيير أتيت لأسليك وأسلّي نفسي لبعض الوقت . فقط أُنظر إلى دميتي كيف تنظر إليك . قُل مرحبًا لعمّو ألا يبدو أضْحوكة؟ اجلس هناك ، يا رفيقي . انظر ، لقد أحضرت لك الكثير من الألعاب الترفيهية . هل ترغب بلعبة الشطرنج أولاً؟ أو لعبة الورق؟ هل تلعب لعبة المراسي؟ إنها لعبة رائعة! تعالَ ، سوف أعلمك!» .

الفصل الثالث عشر

انتظر وانتظر ، والآن في الأخير في أهدأ ساعة من الليل ، تحركت الأصوات مرة أخرى . وحيدًا في الظلام ، ابتسم سنسيناتوس . أنا مستعد تماما للاعتراف بأنها خداع هي كذلك لكنني الآن أؤمن بها كثيرا حتى أني أصيبها بالحقيقة .

كانت لا تزال أكثر ثباتا ودقة من الليلة السابقة ؛ لم تعد حشرجة بعيدة على نحو أعمى ؛ كيف للمرء أن يشك في اقترابها ، حركتها المتقدمة؟ كم هي متواضعة! كم هي ذكيّة! يا لها من حريصة ومثابرة على نحو غامض! سواء أكان ذلك اختيار عاديا أو أحد الأدوات الغريبة المصنوعة من مادة عديمة الفائدة سبكتها ارادة انسانية كليّة القدرة ، أيا ما كانت ، فقد كان يعرف أن أحدهم ، بطريقة ما ، كان يقطع الممر .

كانت الليلة باردة ، والانعكاس الزيتي الرمادي للقمر وهو ينقسم إلى مربعات سقط على الجدار الداخلي للنافذة المجوفة ؛ وبدت القلعة كلها كما لو أنها ملئت حتى الحافة بظلام كثيف في الداخل ، وصقلت بضوء القمر من الخارج ، بظلال سوداء منكسرة انزلقت أسفل المنحدرات الصخرية وتعثرت بصمت في الخنادق المائية ؛ أجل ، كان الليل هادئا ومتحجرا ، لكن في داخله ، في عمقه ، في رحم الظلام ، مُقوضًا قدرته كان هناك شيء ما يشق طريقه عبر ما يبدو أمرا غريبا جدا لمادة الليل ونظامه . أو أن كل هذا ما هو إلا فساد رومانسي قديم ، يا سنسيناتوس؟ .

التقط الكرسي المذعن وطرحه بقسوة ، أولا على الأرض ، ثم عدة مرات على الجدار ، محاولا على الأقل عن طريق الايقاع ، أن يضفي معنى على الضجة التي يفتعلها . وفي الواقع فإن الذي كان يمضي في خضم الليل توقف لوهلة كما لو أنه كان يحاول أن يقرر ما إذا كانت الضربات المُجيبة عليه ودية أم لا ، وفجأة واصلَ نشاطه بصوت جذلان مفعم بالحيوية جعلت سنسيناتوس يتأكد من أن اجابته قد فُهمت حقا .

أصبح الآن مقتنعا أنه هو من كان ذلك الشخص قادما إليه ، أنه هو من يريد أحدهم انقاذه ، واستمر بالقرع على أشد الأجزاء حساسية من الصخر ، أثار -بسلّم ومفتاح مختلف ، أصواتً أكثر حيوية وتعقيدا وجذبا- مكررة للإيقاع البسيط الذي يقدمه .

كان قد بدأ يفكر بالفعل في كيفية إعداد أبجدية عندما لاحظ أنه ليس القمر بل ضوء مختلف غير مدعو كان يفتت الظلمة ، وبالكاد لاحظ أن هذا قد تم عندما توقفت الأصوات . بعد ذلك بمدة طويلة إلى حد ما ، كانت هناك أصوات تفتيت لكن شيئا فشيئا تلاشت هذه الأصوات أيضا ، وكان من الصعب تخيل أنه منذ فترة قصيرة فقط كان قد استبيح هدوء الليل بنشاط حماسي مثابر افتعله مخلوق ينخر ويلهث بخطمه على الأرض ، ومجددا يحفر في سُعار محموم ككلب صيد يشق طريقه إلى حيوان غُرَيْر .

عبر نعاسه الخفيف رأى روديون يدخل ؛ وقد كانت الظهيرة قد حلّت عندما استيقظ تماما ، وفكر كالعادة أن النهاية لم تكن اليوم كذلك ، وكان يمكن أن تكون اليوم ، تماما كما قد تكون غدًا ، لكن الغد لا يزال بعيدًا .

طيلة النهار أصغى للطنين في أذنيه ، وهو يعجن يديه كما لو

كان يبادل نفسه ذاتها بهدوء بقبضة ترحيب ؛ مشى قرب الطاولة ، حيث وضعت الرسالة ، لازالت لم ترسل بعد ؛ أو كان يتخيل نظرة ضيف البارحة ، خاطفة ، تحبس الأنفاس ، كثغرة في هذه الحياة ؛ أو يستمع في خياله إلى حفيف حركة إيمي . حسنا ، لماذا لا تشرب هذا القدر من الأمل ، هذا الشراب الخاثر الحلو . . . لا زالت آمالي حيّة . . .وأعتقد أنه على الأقل الآن ، على الأقل هنا ، حيث تبقى العزلة في مقام عالٍ من التقدير ، لربما تنقسم إلى جزئين فقط ، من أجلك ومن أجلي ، بدلا من التضاعف كما تفعل -صاخبة ، متشعبة ، غريبة ، لدرجة أنني لا أستطيع أن أقترب منك ، وأبوك الرهيب كاد أن يكسر رجليّ بعصاه . . .لهذا السبب أنا أكتب- هذه هي محاولتي الأخيرة لأشرح لك ما يحدث ، مارثا . . .ابذلي جهدا استثنائيا وافهمي ، حتى وإن بضبابية ، حتى وإن فهمت بجزء فقط من دماغك ، لكن افهمي ما الذي يحدث ، مارثا ، افهمي أنهم سيقتلونني -يمكن أن يكون ذلك صعبا جدا- لا أطلب منك رثاء وعويلا طويلا لأرملة ، أو أزهار سوسن للحداد ، لكنني أتوسل إليك ، أحتاج بشدة -الآن ، اليوم- فقط أن تصبحي خائفة كطفلة لأنهم ينوون القيام بشيء فظيع لي ، أمرا حقيرا يجعلك تمرضين ، وأن تصرخي في منتصف الليل حتى وأنت تسمعين بالفعل خطوات اقتراب الممرضة لتهمس لك «نامي ، نامي» ستستمرين في الصراخ ، هكذا كيف يجب أن تكوني خائفة ، مارثا ، على الرغم من أنك تحبينني قليلا ، لا بد عليك أن تفهمي ، حتى ولو للحظة فقط ، ومن ثم يمكنك أن تنسي ذلك . كيف يمكنني أن أستثيرك؟ أوه ، كانت حياتنا معا فظيعة ، فظيعة ، لكنني لا يمكن أن أستثيرك بهذا ، لقد حاولت جاهدا في البداية ، لكن ، كما

تعرفين ، ايقاعاتنا مختلفة ، وهكذا تراجعت على الفور . أخبريني ، كم يدًا جسّت الثمرة التي نمت بوفرة حول روحك الصغيرة المرّة القاسية؟ أجل ، كشبح عدتُ إلى خياناتك الأولى وأنا أعوي وأقعقع سلاسل قيودي مُشيتُ عبرها . القبلات التي تجسست عليها . أنت وقبلاته هو ، والتي تشبه في معظمها نوعا من التغذية ، مقصودة ، قذرة وصاخبة . أو عندما كنت ، وعيونك مغلقة بإحكام ، تلتهمين حبة خوخ منبجسة ثم وبعد أن انتهيت لكنك لا زلت تبتلعين ولا زال فمك مليئا يا آكلة لحوم البشر ، كانت عيونك اللامعتان تهيم ، وأصابعك منبسطة وشفتيك الملتهبتان تلتمع ، ذقنك يرتجف ، وكله مغطى بقطرات من العصير العكر الذي سيتقاطر على صدرك العاري ، بينما البريابس[1] الذي أطعمك ، سيستدير فجأة ، مطلقا سبّة لاارادية ، نحوي أنا الذي دخلت الغرفة في اللحظة الخاطئة .

«جميع أنواع الفاكهة مناسبة لمارثا» ستقولين وبعض البلل اللزج الحلو ينزلق في حلقك ، يتجمع كله في طيّة صغيرة رطبة ، عذبة ، وملعونة -وإذ أعود إلى هذا كله فذلك لأخرجه بعيدا عن نفسي ، كيّ أطهر ذاتي- وأيضا حتى يتسنى لك أن تعرفي ، كي يتسنى لك أن تعرفي . . .ماذا؟ لربما أخطأت وظننت شخصا آخر على أنه أنتِ ، فبعد كل شيء ، عندما أفكر أنك ستفهمينني ، كرجل مجنون يظن خطأً أن أقاربه الزوار ، مجرات ، ولوغاريتمات وضباعا عرجاء -لكن هناك أيضا مجانين- وهم محصنون-من أن

---

(١) Priapus (عند الرومان) إله الذُكورة (أو) الفُحولة = إله قوّة الجِماع للذَّكَر والجنائن والكُروم وهو يعبر عن القضيب والعضو الذكري أيضا . المترجم .

يعتبروا أنفسهم مجانين-وهنا تنغلق الدائرة . مارثا ، في مثل هذه الدائرة أنا وأنت ندور -أوه ، لو كنت تستطيعين فقط أن تنفكي منها للحظة!- بعدها يمكنك أن تعودي إليها ، أنا أعدك . . .لا أطلب منك الشيء الكثير ، فقط انفكيّ منها للحظة وافهمي أنهم يقتلونني ، أننا محاطون بدمى غبية ، وأنك أنت ذاتك دمية . أنا لا أعرف لماذا تعذّبت جدا بخياناتك ، بالأحرى أنا ذاتي أعرف لماذا ، لكنني لا أعرف الكلمات التي يجب أن أختارها لجعلك تفهمين لماذا عذّبني ذلك جدًا . فهذه الكلمات لا تأتي بحجم صغير يناسب حاجاتك اليومية . ومع ذلك عليّ أن أحاول مرة أخرى : «إنهم يقتلونني!» حسنا ، كل ذلك معًا مرة أخرى : «إنهم يقتلونني!» ومرة أخرى : «يقتلون!» . أريد أن أكتب هذا بطريقة تجعلك تغطين أذنيك ، أذنيك الغشائية القِرديّة التي تخفينها تحت جدائل شعرك الأنثوي الجميل ، لكنني أعرفها ، أراها ، أقرصها ، هذه الأشياء الصغيرة الباردة ، أنا أمسكها بأصابعي لكي أدفئها بطريقة ما ، أعيدها إلى الحياة ، أجعلها بشريّة وأجبرها على أن تسمعني . مارثا أريدك أن تحصلي على مقابلة أخرى ، وبالطبع ، تعالي لوحدك ، تعالي لوحدك! ما يسمى الحياة انتهى بالنسبة لي ، ولا يوجد أمامي سوى كتلة مصقولة ، وقد تمكن سجّانيَّ من ايصالي لحالة جعلت خط يدي -كما ترين- يشبه خط رجل مخمور- لكن هذا غير مهم . لدي ما يكفي من القوة ، يا مارثا ، لمثل هذا الحديث معك كما لم نتحدث من قبل ، لهذا السبب من الضروري جدا أن تأتي مرة أخرى ، ولا تظنّي أن هذه الرسالة مزوّرة -إنه أنا ، سنسيناتوس ، الذي يكتب ، إنه أنا ، سنسيناتوس ، الذي يبكي ، والذي كان في الحقيقة يتمشى قرب الطاولة ومن ثم عندما

أتى روديون بعشائه ، قال :

«هذه الرسالة . هذه الرسالة سوف أطلب منك أن . . . هذا هو العنوان . . .»

«من الأفضل أن تتعلم الحياكة مثل الناس» تذكر روديون «وهكذا تستطيع أن تحيك لي غطاء للركبة . كاتب ، بالطبع! لقد رأيتَ للتو زوجتك ، أليس كذلك؟» .

«سأحاول أن أطلب منك مجددا» قال سنسيناتوس «هل هناك ما عداي وعدا الفضوليّ بيير أي سجناء آخرين هنا؟» .

احمرّ روديون لكنه ظلّ صامتا .

«والجلاّد ، ألم يصل بعد؟» سأل سنسيناتوس .

كان روديون على وشك صفق الباب بعنف لكن الباب كان يصرّ بالفعل ومثل اليوم السابق دخل بنعاله المغربية التي كان يجرّها بصوت انزلاق ، كان الجسد الهلاميّ المخطط يرتعش ، واليدان تحملان رقعة شطرنج ولعبة ورق ولعبة الكوب والكرة .

«أسمى عبارات التحيّة لصديقي روديون» قال المسيو بيير ، بصوته المزماري ودون أن يتوقف عن المسير مرتعشا وهو يجرّ قدميه دخل الزنزانة .

«أرى أن» قال وهو يجلس «أن زميلي العزيز أخذ رسالة معه . لا بد أنها تلك التي كانت موضوعة هنا على الطاولة أمس ، إيه؟ لزوجتك؟ كلا ، كلا ، استنتاج بسيط فقط ، أنا لا أقرأ رسائل الناس الآخرين ، على الرغم من أنها كانت واضحة في مرمى البصر عندما كنا نلعب لعبة المراسي . ماذا عن قضاء بعض الوقت في لعب الشطرنج اليوم؟» .

بسط رقعة الشطرنج المصنوعة من الصوف بيده الممتلئة ،

وبإصبعه الصغير ، أعدّ الأماكن ، والتي كانت مبتكرة بالخبز المعجّن ، حسب وصفة سجين قديم وقد كانت قاسية جدا حتى أن الحجر يحسدها .

«أنا ذاتي أعزب ، لكنني أفهم بالطبع . . . العب . عليّ أن أتصرف بسرعة . . . فاللاعبون الجيدون لا يأخذون وقتا طويلا للتفكير . العب . . . لقد ألقيت نظرة خاطفة على زوجتك ، قطعة صغيرة غضّة ، لا يختلف اثنان في ذلك ؛ يا له من جِيد ، هذا ما أحبّه فعلا . . . هاي ، انتظر قليلا ، لقد فعلت ذلك سهوا ، اسمح لي أن أعيد حركتي . هكذا أفضل . أنا مولع كبير بالنساء ، والطريقة التي يحبنني بها ، تلكن اللئيمات ، ببساطة لن تصدّق ذلك . لقد كتبتَ لزوجتك عن عينيها وشفتيها الجميلتين . مؤخرا ، كما تعلم ، كان لدي . . . لماذا لا يمكن لبيدقي أن يأخذها؟ آه ، لقد فهمت . هذا ذكيّ ، ذكيّ . حسنا ، أنا أنسحب . مؤخرا ، حظيتُ بإتصال جنسيّ مع شخص رائع وفي تمام الصحة . أي متعة ستجدها ، عندما تقوم امرأة سمراء ضخمة . . .ما هذا؟ هذه حركة وضيعة منك . كان يجب عليك أن تحذّر خصمك ، هذا لن يجدي . هنا ، اسمح لي أن أغير آخر حركاتي . إذًا ، أجل ، كائن حسّاس رائع الجمال -وكما تعرف ، أنا لا أبخل نفسي ، لقد اغتنمت الفرصة- واو! عمومًا ، من بين كل المغريات الدنيوية المختلفة ، التي على نحو ساخر لكن أيضا بمنتهى الجدّية في الحقيقة ، أعتزم أن أقدم تدريجيا لاعتبارك ، اغراء الجنس . . .كلا ، انتظر لحظة ، لم أقرر بعد ما إذا كنت أريد أن أحرّك تلك القطعة هناك . نعم ، سأفعل . ماذا تقصد ، شاه مات؟ لماذا شاه مات؟ لا يمكنني الذهاب هنا ، لا يمكنني أن أذهب هناك ، لا يمكنني أن أذهب إلى أي مكان . انتظر لحظة ،

كيف كانت الوضعية؟ لا ، قبل ذلك . آه ، الآن هذه قصة مختلفة . مجرد سهو . لا بأس ، سأحرك القطعة هنا . أجل ، زهرة حمراء بين أسنانها ، جوارب سوداء مشبّكة تصل إلى ها هنا ، لا يوجد بها أي غرزة خياطة ، إنه لأمر مدهشٌ حقًا ، هذا أسمى . . . والآن ، بدلا عن مسرّات الحب ، الحجر الرطب ، والحديد الصدئ ، والأمام ، حسنا أنت تعرف بنفسك ماذا يوجد في الأمام . الآن ، هذا ما سهوت عنه . ماذا لو حركت قطعتي للجهة الأخرى؟ أجل ، هكذا أفضل . هذه الجولة لي ، على أية حال ، فأنت ترتكب الخطأ تلو الآخر . وماذا إن لم تكن مخلصةً لك ، ألم تحتضنها أنت أيضًا بين ذراعيك؟ عندما يطلب الناس مشورتي فدائما ما أقول لهم 'سادتي ، كونوا مبدعين . ليس هناك شيء أكثر امتاعا ، على سبيل المثال ، من أن يحيط المرء نفسه بالمرايا وأن يشاهد العمل الطيّب ينعكس فيها وهو يتم' رائع! هاي؟ الآن ، هذا أبعد ما يكون عن الروعة . كلمة شرف ، لقد ظننت أنني حركت قطعتي إلى هذا المربع ، وليس ذاك . وبالتالي أنت لا تستطيع أن . . .تراجع ، من فضلك . في ذات الوقت أود أن أدخن سيجارا وأتحدث عن قضايا تافهة ، وأنا أود أن تتحدث هي كذلك ، ليس هناك ما يمكن عمله ، لديّ مسحة من الانحراف فيّ . . . أجل ، كم هو موجع ، مخيف ومؤلم أن تودّع كل هذا ، وأن تفكّر أن الآخرين ، الذين يتمتعون بالشباب والحيوية سيواصلون العمل والعمل . . .آه! لا أعرف رأيك ، لكن عندما يتعلق الأمر بالمداعبات أعشق ما نسميه نحن المصارعون الفرنسيون «المَعكَرونات»[1] : تمنحها لطمة لطيفة على

---

(١) مَعكَرون : إصبع حلوى باللوز والسكّر مشبع بالقطر . المترجم .

عنقها ، وكلما كان الجسد أحكم . . . قبل هذا ، أولا أستطيع أن آخذ حصانك ، ثانيًا ، أستطيع ببساطة أن أحرك ملكي بعيدًا ، حسنا ، هناك . كلا ، توقف ، توقف ، أود أن أفكر لوهلة على أية حال . ماذا كانت آخر حركاتك؟ أعد تلك القطعة إلى مكانها ، ودعني أفكر . هراء ، ليس هناك أي شاه مات هنا . أنت ، كما يبدو لي -إذا كنت لا تمانع أن أقول هذا- تغشّ : هذه القطعة تقف هنا ، أو ربما هنا ، لكن ليس هناك ، أنا متأكد تمامًا . هيا ، أعدها إلى مكانها ، أعدها إلى مكانها . . .»

كما لو كان ذلك حدث خطأً ، خبط بيديه على عدة قطع ، وبما أنه لم يكن قادرا على كبح جماح نفسه ، أطلقَ تنهيدة وخلط كل القطع المتبقية . كان سنسيناتوس جالسا وهو يستند على أحد مرفقيه ، وقد كان ينظر بتأمل للحصان الذي كان في منطقة عنقه يبدو أنه لا يمانع العودة إلى الحالة الطحينية التي نشأ منها .

«دعنا نلعب لعبة أخرى ، فأنت لا تعرف كيف تلعب الشطرنج» هتف مسيو بيير باهتياج شديد وهو يفتح لوحا خشبيا ملوّنًا للعبة «الإوز» . رمى النرد ، وعلى الفور انتقل من ٣ إلى ٢٧ ، على الرغم من أنه تراجع عندما طار سنسيناتوس بسرعة من ٢٢ إلى ٤٦ . واستمرت اللعبة لمدة طويلة من الزمن . أصبح مسيو بيير أكثر حمرةً وهو يقرع الأرض بقدميه وينفث بغضب ويزحف تحت الطاولة وراء أحجار النرد ليظهر وهو يمسكها بين كفيه ويقسم أنها كانت هكذا تماما كما وجدها ملقاةً على الأرض .

«لماذا تنبعث منك مثل هذه الرائحة؟» سأل سنسيناتوس وهو يتنهد . التوى وجه مسيو بيير المكتنز بابتسامة متكلفة .

«إنها تجري في دم العائلة» شرح بكرامة . «قدمي تتعرقان

قليلا . لقد جرّبت الشبّ ، لكن لم ينفع معي في شيء . عليّ أن أقول هذا ، على الرغم من أني أصبت بهذا منذ طفولتي ، وعلى الرغم من أن أي معاناة يُنظر إليها عادة بعين الاحترام ، فإنه لا أحد كان من قبل عديم اللباقة . . .»

«لا أستطيع التنفس» قال سنسيناتوس .

الفصل الرابع عشر

لا تزال الأصوات أقرب ، والآن أصبحت متعجلة حيث أنه سيكون من الخطيئة أن تصرف انتباهها بنقر الأسئلة . وقد استمرت لوقت أطول من الليلة الماضية ، استلقى سنسيناتوس منبطحا على البلاط الحجري ، باسطا ذراعيه ورجليه كما لو أنه أصيب بضربة شمس ، منغمسا في عرض تمثيلي سخيف للحواس ، متصورا في خياله عبر طبلة الأذن المرور السريّ ، ممتدا مع كل خشخشة ، وشعر -كما لو أن الألم المُقبِض الأسود في صدره قد انزاح- كيف أن الأحجار كانت تنحلّ وقد بدأ بالفعل بالتخمين بينما هو يرمق الجدار حيث سينصدع وينفتح متفجرا من الاصطدام .

كانت أصوات الفرقعة والحفيف لا تزال مسموعة عندما جاء روديون . خلفه ، في حذاء راقصة باليه يحتوي قدميها العاريتين وفستانها من القماش الصوفيّ المقلم اندفعت إيمي وكما فعلت ذلك من قبل ، اختفت تحت الطاولة ، جاثمة على أليتيها وهكذا غطى شعرها الكتانيّ المجعد في أطرافه ، وجهها وركبتيها وحتى كاحلها . بالكاد غادر روديون عندما قفزت وذهبت مباشرة نحو سنسيناتوس الذي كان يجلس على السرير ، أسقطته وبدأت تناوشه في كل مكان . اندفعت أصابعها الباردة ومرفقاها الدافئان في جسده ، كشفت عن أسنانها ، لتظهر قطعة من ورقة شجرة خضراء عالقة بين أسنانها الأمامية .

«اجلسي بهدوء» قال سنسيناتوس «أنا مرهق -لم أبكِ خلسة

طيلة الليل- اجلسي بهدوء وأخبريني . . .»

بتذمر ، دفنت إيمي جبينها في صدره ؛ تراجعت خصلاتها وتعلقت بأحد الجوانب ، كاشفة الجزء الأعلى العاري من ظهرها الذي كان فيه فراغ يتحرك مع ألواح كتفيها وقد كان مغطى على نحو متساوٍ باللون الأشقر نحو الأسفل والذي يبدو كما لو أنه تم تمشيطه على نحو متناظر .

داعب سنسيناتوس رأسها الدافئ محاولا أن يرفعه . انتزعت أصابعه وبدأت في الضغط عليها بين شفتيها الحادتين .

«يا لك من حيوان أليف لصيق» قال سنسيناتوس وهو يشعر بالنعاس . «انتهى الأمر ، هذا يكفي الآن . أخبريني . . .»

لكنها كانت تحت سيطرة فورة صخب طفوليّ جامح . تدحرجت الطفلة الفتيّة حول سنسيناتوس مثل جرو صغير . «توقفي عن ذلك!» صرخ سنسيناتوس . «ألا تخجلين من نفسك؟»

«غدا» قالت فجأة وهي تضغط عليه وتحدّق إليه بين العينين .

«سأموت غدا؟» سأل سنسيناتوس .

«لا ، سوف أنقذك» قالت إيمي وهي تتأمل (كانت تجلس منفرجة الساقين فوقه) .

«هذا حسن جدا طبعا» قال سنسيناتوس «منقذون من جميع الأنحاء! هذا ما كان يجب أن يحدث من قبل ؛ أنا على حافة الجنون . رجاءً ، انزلي ، أنت ثقيلة وساخنة» .

«سوف نهرب بعيدا وسوف تتزوجني» .

«ربما عندما تصبحين أكبر قليلا ؛ فأنا بالفعل لدي زوجة» .

«زوجة مسنّة بدينة» قالت إيمي .

قفزت من السرير وجرت عبر الغرفة كما تجري راقصات

الباليه ، بخطوات سريعة واسعة تهزّ شعرها ، ثم قفزت كما لو أنها تطير وأخيرًا رقصت على قدم واحدة في مكان واحد ، وهي تلّوح بعنف بعدة أذرع .

«ستبدأ المدرسة مرة أخرى قريبا» قالت وهي تستقر في اللحظة التالية في حضن سنسيناتوس ؛ فجأة ناسية كل شيء آخر في العالم ، انهمكت في انشغال جديد ، بدأت تهرش قشرة الجرح الطويلة على مقدمة ساقها اللامعة ، كانت القشرة منتزعة بالفعل حتى النصف وبإمكان المرء أن يرى الندبة الوردية الرقيقة .

عبر عيون تكاد تنغلق ، حدق سنسيناتوس إلى صورتها المائلة وهي محاطة بزهور من ضوء الشمس ، وشعر أنه مغمور بالنعاس .

«آه ، يا إيمي ، تذكري ، تذكري ما وعدتني به . غدًا! أخبريني ، كيف ستفعلين ذلك؟»

«امنحني أذنك» قالت إيمي .

وهي تضع ذراعا حول عنقه ، أصدرت ضجة حارة ، رطبة ، غير مفهومة على الإطلاق في أذنه . «لا أستطيع سماع أي شيء» قال سنسيناتوس .

بنفاذ صبرٍ ، أماطت شعرها عن وجهها ومجددا آوت إلى حضنه .

«بو . . . بو . . . بو» ضجّت وتمتمت من ثم قفزت بعيدا وحلّقت لأعلى والآن كانت تستريح على الأرجوحة التي تتمايل بلطف ، بينما اجتمعت رؤوس أصابعها في شكل وتد حاد .

«مع ذلك ، أنا أعوّل على ذلك كثيرا» قال سنسيناتوس في خضم نعاسه المتزايد ؛ وببطء ضغط أذنه المبللة التي لا تزال تطنّ على الوسادة .

وبينما كان يغطّ في النوم كان لا يزال بإمكانه أن يشعر بها وهي تتسلقه ، من ثم بدا على نحو باهت أنها هي أو أحد ما آخر كان يطوي بلا نهاية نسيجا لامعا ما ، يمده عبر الأطراف ويطويه ، ويضربه براحة اليد ثم يطويه مجددا ، ولوهلة تناهى إلى سمعه نحيب إيمي بينما رودیون يجرّها خارج الزنزانة .

من ثم ظن أنه سمع الأصوات الثمينة خلف الجدار تبدأ نشاطها بحذر مرة أخرى . . .يا لها من مخاطرة! ففي النهاية ، لقد كان وضح النهار . . .لكنها لم تتمكن من كبح جماح نفسها ، وقد كانت تندفع بهدوء شديد أكثر من أي وقت مضى أقرب فأقرب إليه ، بينما هو ، خشية أن يسمعها الحرّاس ، بدأ بالتمشي في الزنزانة وهو يدقّ الأرض بقدميه ، يسعل ، يغمغم ، وعندما جلس إلى الطاولة وقلبه يدقّ بعنف توقفت الأصوات .

بعدئذ وعند اقتراب حلول المساء ، وكما أصبح معتادا الآن ، أتى مسيو بيير ، يعتمر طاقيّة مزركشة ؛ وبلا مبالاة ، وهو يشعر بالأريحية جلس على سرير سنسيناتوس ، أشعل غليونا طويلا مصنوعا من المرشوم[1] نُحتت عليه صورة حورية وأسند نفسه لأعلى بمرفقه في سحابة من الدخان الفاخر . جلس سنسيناتوس إلى الطاولة وهو يمضغ ما تبقى من عشائه ، ملتقطا ثمار البرقوق من عصيرها البنيّ .

«لقد وضعت عليها بودرة أقدام اليوم» قال مسيو بيير بسرعة «لهذا لا أريد شكوى أو تعليقات من فضلك . فلنواصل حديث الأمس . كنا نتحدث عن الملذات» .

---

(١) مَرْشوم - رَخْفَة البحر : صلصالٌ ناعِم جدًّا تُصنَعُ منه الغلايينُ . المترجم .

«لذة الحب» قال مسيو بيير «تتحقق عن طريق كل التمارين البدنية المعروفة الأكثر جمالا وصحيّة . قلت «تتحقق» لكن ربما «تُستخرج» ستكون أكثر ملائمة ، نظرا لأننا نتعامل هنا -لو شئنا الدقة- مع استخراج منهجي وصارم للذة المدفونة في عمق أحشاء الكائن الممارس . خلال ساعات الراحة يدهش ممارس الحب المشاهد على الفور بتعبير عينين تشبه الصقر وحالته المبتهجة وبشرته النضرة . ويلاحظ أيضا مشيتي المنزلقة . وهكذا يوجد أمامنا ظاهرة معينة ، مما قد نسميه بالمصطلح العام 'الحب' أو 'المتعة الجنسية'» .

عندئذ ، وهو يمشي على رؤوس أصابعه ويشير إليهم عبر ايماءات ألا يلقوا له بالا ، دخل المدير للزنزانة وجلس على مقعد جلبه معه .

التفت مسيو بيير نحوه بنظرة تشع طيبة .

«تابع ، تابع» همس رودريغ إيفانوفيتش «لقد أتيت لأستمع - عذرا ، لحظة فقط- سأضعه هنا فقط لأستطيع الاستناد على الجدار . فوالا . على الرغم من أني متعب جدا . وأنت؟»

«ذلك لأنك لست متعودا عليه» قال مسيو بيير . «اسمحوا لي إذًا أن أكمل . كنا نناقش يا رودريغ إيفانوفيتش ، متع الحياة ، وقد بحثنا للتو الإيروس بشكل عام» .

«فهمت» قال المدير .

«وقد وصلت للنقاط التالية واعذرني يا زميلي العزيز لأنني أكرر نفسي ، لكنني أود أن أجعلها مثيرة للاهتمام لرودريغ إيفانوفيتش أيضا . لقد وصلت إلى نتيجة ، يا رودريغ إيفانوفيتش ، أن الانسان المحكوم عليه بالإعدام يرى أن أصعب شيء عليه هو نسيان المرأة ، جسد المرأة اللذيذ .

«وشاعرية الليالي تحت ضوء القمر» أضاف رودريغ إيفانوفيتش

وهو يلقي نظرة صارمة على سنسيناتوس .

«كلا ، أرجوك لا تتدخل مع تقدم شرحي للموضوع ؛ إذا كان لديك شيء تضيفه ، يمكنك أن تدلي به فيما بعد . حسنا ، دعوني أكمل . بالإضافة إلى متع الحب هناك عدد كبير من المتع الأخرى والتي سنمر إليها الآن . لربما شعرتَ ، أكثر من مرة أن صدرك يتسع في يوم ربيعيّ رائع ، عندما تتفتح براعم الأزهار وتفعِم الطيور المغرّدة البساتين وهي ترتدي باكورة أوراقها الخضراء النديّة . بينما تطلّ أول الزهور البسيطة بغنج من العشب ، كما لو أنها تود اغراء العاشق المولع بالطبيعة وهي تهمس على استحياء : 'أوه ، كلا ، لا تقطفنا ، فحياتنا قصيرة' يتسع الصدر ويتنفس بعمق في مثل هذا اليوم ، عندما تغرد العصافير وتظهر باكورة الأوراق المتواضعة على أول الأشجار . كل شيء مسرور ، كل شيء مبتهج» .

مكتبة

«وصفٌ بارع لأبريل» قال المدير وهو يهزّ لغديه .

«أعتقد أن الجميع قد جرّب هذا» واصل مسيو بيير «والآن في اليوم الذي سنرتقي فيه إلى المشنقة فإن الذكرى التي لا تنسى لهذا اليوم الربيعي تجعل المرء يصرخ عاليا : 'أوه ، عُد ، عُد ؛ دعني أعشك مرة أخرى' .

«'أعشك مرة أخرى'» كرر المسيو بيير وهو يختلس النظر بوضوح من قصاصة ملفوفة مليئة بكتابة دقيقة .

«التالي» قال المسيو بيير «سنمضي إلى متع المجال الروحيّ . تذكرون تلك الأوقات ، في معرض صور رائع أو متحف ، عندما تتوقفون فجأة عاجزين عن اشاحة نظركم عن جذع تمثال جذاب مصنوع ، وحسرتاه ، من البرونز أو الرخام . هذا ما يمكن أن نسميه متعة الفن ، وهي تحتل مكانة هامة في الحياة» .

«أنا أقول أنها كذلك» قال رودريغ إيفانوفيتش بصوت أخنف ونظر إلى سنسيناتوس .

«ملذات أطايب الطعام» واصل مسيو بيير . «رؤية أفضل أنواع الفاكهة المختلفة وهي تتدلى من أغصان الشجر ، رؤية الجزار ومساعديه وهم يجرّون خنزيرًا وهو يقبع وكأنه يُذبح ؛ أن ترى ، في صحن جميل ، قطعة أصيلة من شحم الخنزير الأبيض ؛ أن ترى نبيذ الطاولة والبراندي الأحمر ، أن ترى السمك ؛ لا أدري ماذا عنكما ، لكنني مربّي هاوٍ لسمك الابراميس[1]» .

«أوافقك» قال إيفانوفيتش رودريغ كأنه صدى للصوت .

«لا بد أن تُنبذ هذه الوليمة المترفة . والعديد من الأمور الأخرى لا بد أن تُنبذ كذلك : الموسيقى الاحتفالية ، أغراض المنزل المفضلة ، مثل آلة تصوير أو غليون ؛ والمحادثات الودية ؛ ونعمة قضاء الحاجة ، والتي يضعها البعض على قدم المساواة مع لذة الحب ؛ والنوم بعد العشاء ؛ التدخين . . .ماذا أيضا؟ الأغراض المنزلية المفضلة . . .أجل ، لقد مررنا بها» (ومرة أخرى ظهرت قصاصات الغشّ) «لذة . . .لقد قلتُ هذا أيضا . حسنا ، عدة تفاهات أخرى . . .» .

«هل لي أن أضيف شيئا؟» قال المدير بتملّق ، لكن مسيو بيير هزّ رأسه بالنفي :

«لا ، هذا يكفي تماما . أعتقد أنني قد فتحت من قبل عينَ رفيقي العقلية على آفاق تلك العوالم الحسيّة . . .»

«أود فقط أن أقول شيئا بخصوص موضوع المأكولات» قال

---

(١) ابراميس = نوعٌ من سَمَك الشبُّوط . المترجم .

المدير بصوت منخفض . «أعتقد أن بعض التفاصيل يمكن أن تُذكر هنا . على سبيل المثال ، فيما يخص الحساء . . .حسنا ، حسنا ، لن أنبس بكلمة» خلص إلى قول ذلك في ذعر عندما لمح نظرة مسيو بيير .

«حسنا» خاطب مسيو بيير سنسيناتوس «ماذا ستقول عن كل هذا؟»

«ما الذي يُفترض بي قوله؟» قال سنسيناتوس : «عمل ، هراء مزعج»

«إنه ميؤوس منه» هتف رودريغ إيفانوفيتش .

«إنه مجرد تكلّف منه» قال مسيو بيير مع ابتسامة مصطنعة مشؤومة . «صدقني فهو يتمتع بإحساس كافٍ للجمال الكامل للظواهر التي وصفتها» .

« . . .لكنه يعجز عن فهم بعض الأمور» اعترض عليه إيفانوفيتش رودريغ بنعومة . «هو لن يفهم هذا إذا لم يعترف الآن بنزاهة أن أساليبه خاطئة ، وأن يعترف بصدق بأنه مولع بنفس الأشياء كما أفعل أنا وأنت -على سبيل المثال ، حساء السلاحف للوجبة الأولى- يقولون أنه جيد على نحو مثير- مما يعني ، أنا أريد فقط أن أرى ما إذا كان بصدق سيعترف ويندم -أجل ، يندم-هذه هي فكرتي- من ثم يستطيع أن يحظى بأملٍ- لا أود أن أقول بعيد ، لكن مع ذلك . . .»

«لقد غفلت عن الجزء المتعلق بالتمارين الرياضية» تمتم مسيو بيير وهو يتحقق من لفافته الصغيرة . «يا للأسف!» .

«كلا ، كلا ، لقد تحدثت بشكل جيد جدا ، جيد جدا» تحسّر رودريغ إيفانوفيتش . «ليس هناك ما هو أفضل . لقد استثرت فيّ

بعض الرغبات التي كانت تقبع نائمة لعقود . هل ستبقى لفترة أطول؟ أو ستأتي معي؟» .

«معك فهو عابس كعادته اليوم . لا ينظرُ حتى إليك . قدّم له ممالكا بأكملها وسيعبس في وجهك . وأنا لم أطلب الكثير ، كلمة واحدة فقط أو ايماءة . حسنا ، لا شيء هنا لفعله . لنذهب يا رودريغو» .

بعد فترة قصيرة من مغادرتهما ، أُشعلت الأضواء وحوّل سنسيناتوس نفسه في سريره تجاه الظلام (كم هو قذر أن تجد بقايا شخص آخر ، لكن لا يوجد مكان آخر للاستلقاء فيه) وهو يحرّر نفسه من سوداويته بفرقعة غضاريفه وفقرات ظهره ، تمطّى وتمدد وسحب نفسًا ، واحتفظ به لربع دقيقة وأكثر . لربما كانت مجرد أصوات عمال بناء . يقومون بترميمات . خداع سمعيّ : لربما كانت كلها تجري في مكان بعيد ، بعيد جدًا . (زفر نَفَسًا) استلقى على ظهره ولوى رؤوس أصابعه التي برزت من تحت البطانية ، وحوّل وجهه نحو الخلاص المستحيل تارة ، ونحو المصير المحتوم تارة أخرى . أومض الضوء مرة أخرى .

وهو يهرش صدره ذا الشعر الأحمر تحت قميصه ، أتى روديون ليأخذ المقعد ثلاثي الأرجل . وعندما رأى الغرض الذي أتى من أجله ، جلس بسرعة عليه وبنخير عال ، عجن أسفل وجهه براحته الضخمة وكان من الواضح أنه مستعد لأخذ غفوة .

«ألم يصل بعد؟» سأل سنسيناتوس .

وعلى الفور نهض روديون وغادر مع مقعده .

طقطقة . ظلام .

ربما لفترة زمنية معينة مكمّلة -أسبوعين- تنقضي بعد

المحاكمة ، ربما بسبب اقتراب الأصوات الصديقة التي تعده بتغيير حظه ، قضى سنسيناتوس هذه الليلة في مراجعة عقلية للساعات التي قضاها في القلعة . وهو ينساق لاإراديا لإغراء التطوّر المنطقي للأحداث ، لاإراديًا (حذارِ يا سنسيناتوس!) وهو يصوغ على شكل سلسلة كل الأمور التي كانت غير مؤذية تماما طالما هي غير مرتبطة ببعض ، استوحى اللامعنى من المعنى ، واللاحياة من الحياة . عبر الظلام الصلد للخلفية سمح الآن للشخوص المسلطة عليها الأضواء لجميع الزوار المألوفين له أن تظهر ، وهي المرة الأولى على الاطلاق التي تنازل فيها خياله لهم . كان هناك رفيقه في السجن الضئيل المزعج ، بوجهه المشرق ، الذي يشبه التفاحة الشمعية التي جلبها صهر سنسيناتوس الظريف معه ذلك اليوم . وكان هناك المحامي العصبيّ ، النحيل ، وهو يفكّ أكمام قميصه من ردني معطفه الفْراك ، وهناك أمين المكتبة المكتئب ، وبشعره المستعار الأسود الناعم ، هناك البدين رودريغ إيفانوفيتش ، وإيمي ، وجميع عائلة مارثا ، ورورديون ، والآخرون ، الحرّاس الغامضون والجنود - وباستحضارهم- وليس بالإيمان بهم ، ربما ، لكن باستحضارهم سمح لهم سنسيناتوس بالحقّ في الوجود ، ودعمهم ، وغذّاهم من نفسه . أضف إلى كل هذا ، امكانية أنه ، في أي لحظة قد تستأنف تلك الدقات المثيرة نشاطها ، وهي امكانية تحمل تأثير التوقع المُسكر للموسيقى -وهكذا كان سنسيناتوس في حالة غريبة ، مخيفة وخطرة- وضربت الساعة البعيدة بنوع من الابتهاج المتزايد- والآن ، وهي تبرز من الظلمة ، أمسكت الشخوص المضيئة بأيدي بعضها وشكلت حلقة- وببطء تأرجحت نحو أحد الجوانب ، وهم يتمايلون ويتراجعون بدأوا حركة دائرية ، والتي كانت في البداية متيبسة

ومتراخية لكنها أصبحت بعدئذ أكثر انتظاما شيئا فشيئا ، حرة وسريعة ، والآن ها هم يدورون بجديّة ، وظلالهم الوحشيّة لأكتافهم ورؤوسهم تمر وتعاود المرور بسرعة أكبر عبر حجارة السقف ، والمهرّج المحتوم الذي كان يدور معهم وهو يركل برجليه عاليا ليمتع رفاقه الأكثر تأنقا وهو يعكسُ على الجدران الخطوط المتعرجة السوداء الضخمة لوثبته البشعة .

الفصل الخامس عشر

مرّ الصباح بهدوء ، لكن في حوالي الخامسة بعد الظهيرة بدأت حينئذ ضجة تحطيم قوية ؛ أيا كان فقد كان يعمل بشراسة ويصدر ضوضاء دون تحرج ، لكنه في الواقع لم يقترب أكثر منذ الأمس .

فجأةً حدث شيء غير عادي : انهارت احدى العراقيل الداخلية ، والآن أصبحت الضجة بصوت أكثر حدة وحيوية (جاعلة في لحظة الانتقال من الخلفية إلى المقدمة ، أعلى أضواء المسرح) كان قربها واضحًا : كانت هناك بالضبط ، مباشرة وراء الجدار ، الذي كان يذوب مثل الجليد ، وسيتحطم في أية لحظة .

من ثم قرر السجين أن الوقت قد حان للعمل . بتسرع رهيب وهو يرتجف ولكن مع محاولة مستمرة منه لضبط أعصابه ، خرج وارتدى أحذيته المطاطية ، وسراويله الكتانية ومعطفه الذي كان يرتديه عندما اعتقل ؛ وجد منديلا ، منديلين ؛ ثلاثة مناديل (لمحة خاطفة لأوراق مربوطة مع بعضها) ؛ وتحسبًا ، وضع في جيبه قطعة عشوائية من سلسلة بمقبض خشبي لحمل المتاع الذي كان لا يزال مربوطا بها (لم يكن ليذهب كليا ، فطرفه لا يزال معلقًا) ؛ هرع إلى السرير ، وهو ينتوي نفش الوسادة وتغطيتها بالبطانية على نحو يجعلها تبدو وكأنها رجل نائم ؛ لم يقم بذلك ، لكنه بدلا من ذلك اندفع نحو الطاولة وهو عازم على أن يأخذ معه ما كتبه ؛ لكنه غيّر اتجاهه هنا أيضا في منتصف الطريق ، بسبب أن ضوضاء التدمير المنتصرة ، المجنونة كانت تشوش أفكاره . . .كان يقف منتصبا تماما

مثل سهم ، ويداه على ندوبه ، عندما ، في تحقق كامل لأحلامه ، انصدع الجدار الأصفر حوالي ياردة فوق الأرضية على نحو يشبه البرق ، انتفخ على الفور جرّاء الضغط الذي فيه وفجأة انفجر منفتحا بصدع عظيم .

برزت منً الحفرة السوداء ، في سحابة من الحطام ، يدٌ كانت مغبّرة كلها بالبياض ، تلتوي وتتخبط كسمكة بدينة وسط الغبار ، وهو يرتج من الضحك ، صعد المسيو بيير ، وخلفه تماما ، لكن في زي سلطعون ، حيث المؤخرة السمينة في المقدمة ، تكشف عن شق برزت منه قطع من القطن الأبيض ، بلا ستر ، ومغطاة أيضا بكل أنواع بقايا الحطام ، وهو ينفجرُ مرحا كذلك ، قدم رودريغ إيفانوفيتش . بعد خروجهما من الحفرة ، جلس كلاهما على الأرضية وأطلقا العنان لنفسيهما في نوبة ضحك صاخبة ، بجميع أنواعها من القهقهة إلى الضحك المكتوم وهكذا دواليك ، مع صراخ بائس في الفترات بين الضحك الصاخب ، وفي خضم كل ذلك كانا يدفعان بعضهما البعض ويسقطان على بعضهما البعض . . .

«إنه نحن ، إنه نحن ، إنه نحن» تمكن مسيو بيير أخيرا أن ينطق بجهد جهيد ، وهو يدير وجهه الملطخ بالبياض الطباشيري نحو سنسيناتوس ، بينما ارتفع شعره المستعار الصغير الأصفر مع صفير هزليّ ليستقر مجددا .

«إنه نحن» قال رودريغ إيفانوفيتش بصوت عالٍ متكلف على نحو غير معتاد ومرة أخرى انخرط في القهقهة ، وهو يرفس بساقيه اللينتين التي كانت ترتدي طماقات[1] أوغوست البشعة .

---

(١) طِماق قصير (من قُماش) يُغَطّي الكعبَين وأعلى القَدَم (فوق الحِذاء) . المترجم .

«أوف!» هتف مسيو بيير الذي هدأ فجأة ؛ ونهض من الأرض و هو يضرب كفا بكفّ ، نظر إلى الوراء للحفرة : «لقد قمنا بعمل صغير حقا يا رودريغ إيفانوفيتش! تعالَ ، انهض ، يا صديقي الطيّب ، هذا يكفي . يا له من عمل! حسنا ، يمكننا الآن استخدام هذا النفق الرائع . . . اسمح لي أن أدعوك ، يا جاري العزيز ، أن تأتي لتحظى بكوب شاي معي» .

«إذا كنت تود ذلك بقدر ما تود ملامستي . . .» غمغم سنسيناتوس ، بينما في احدى الجوانب ، وقف مسيو بيير الأبيض المتعرّق جاهزا ليحتضنه ويعتصره وفي الجانب الآخر وقف رودريغ إيفانوفيتش وذراعاه مفتوحتان كذلك ، وكتفيه عاريان ، وبصديرية فضفاضة ومائلة ، استجمع كلاهما قواه للحظة قبل أن يتكدسوا فوقه ، عندما أخذ سنسيناتوس الاتجاه الوحيد الممكن له ، أعني الاتجاه المحدد له . كان المسيو بيير يدفعه برفق من الخلف ليساعده على الزحف عبر الفتحة . «تعال معنا» قال لرودريغ إيفانوفيتش ، لكن الأخير رفض ذلك وهو يشير إلى حالة ملابسه الفوضوية .

على مستوى الأرض وعيناه مغلقتان بإحكام ، زحف سنسيناتوس على أطرافه الأربعة وزحف مسيو بيير ورائه ، بينما كانت الحفرة المظلمة المليئة بالفتات والحطام تعتصر سنسيناتوس من كل الجوانب ، تضغط على عمود الفقري ، وتخز راحتا يديه وركبتيه ؛ وعدة مرات كان سنسيناتوس يجد نفسه في نهاية مسدودة ، وعندئذ كان مسيو بيير يزحف راجعا على ساقيه ، مما يسمح له بالخروج من الطريق المغلق ، وكانت كل زاوية أو نتوء أو لا يدري ما هو كان يحتك برأسه على نحو مؤلم ، وفي كل ما تجاوزه بكآبة رهيبة وقاسية لو أنه ليس هناك لهاث رفيقه ودفعه له من

الخلف ، لكان قد اضطجع ومات هنا للتو . ومع ذلك ففي الأخير وبعد الزحف لمدة طويلة عبر الضيق والظلام الأسود كالفحم (في احدى الأماكن ، أمام أحد الجوانب ، أرسل فانوس أحمر بريقا باهتا للعتمة) ، وبعد الضيق والعمى والاختناق ، انتشر نور شاحب من على بعد : كان هناك منعطف ، وأخيرا ظهر المخرج ، وعلى نحو مرتبك ومتهالك سقط سنسيناتوس إلى الأرضية الحجرية في زنزانة مسيو بيير المغمورة بضوء الشمس .

«مرحبا» قال مضيفه وهو يخرج من بعده ؛ وبسرعة استخرج فرشاة ملابس وبدأ بمهارة ينظف سنسيناتوس الذي كان يطرف بعينيه ، كان ينظف وهو يراعي بتعقل وإحكام في ضربات الفرشاة أي منطقة قد تكون حسّاسة . وبينما كان يفعل ذلك انحنى عليه ، وكما لو أنه يشبكه في شيء ما ، ظلّ يتمشى حول سنسيناتوس الذي وقف تماما ومع ذلك بقي مندهشا من فكرة بسيطة غير عادية : مندهشا بالأحرى ليس من الفكرة بل من حقيقة أنه لم يفكر بها من قبل .

«بعد إذنك سوف أغيّر ملابسي» قال المسيو بيير وخلع سترته المغبرة ؛ ولوهلة باستهتار واضح ، ثنى ذراعه وألقى نظرة جانبية سريعة على عضلاته البيضاء المزرقة وانبعثت رائحة نتانته المميزة . كان هناك حول حلمته اليسرى وشم خياليّ -ورقتا شجر خضراء- وهكذا تبدو الحلمة نفسها برعم وردة (مصنوعة من حلاوة اللوز ، وحشيشة ملاك[1] محلاّة بالسكر) . «تفضل بالجلوس ، من

---

(١) مُترجمة ؛ من اللّاتينيّة angelus : ملاك ، إلماعًا إلى الخواصّ المفيدة لهذه النّباتات ، وهي من التّوابل وتزرع . المترجم .

فضلك» قال وهو يرتدي ثوبا مزركشا بزخارف عربيّة لامعة . «هذا كل ما لديّ ، لكنه ملكي . مسكني ، كما ترى ، يبدو تقريبا مثل مسكنك . فقط أنا أحافظ عليه نظيفا ومزينًا . . أنا أزينه بأفضل ما أستطيع» . (لهث بعض الشيء كما لو كان ذلك جرّاء حماسٍ لم يستطع ضبطه) .

أنا أزيّن . تقويم الجدار بلون مياه القلعة عند غروب الشمس يعرض أرقاما قرمزية . بطانية مزركشة تغطي السرير . فوقه ، علّقت بدبابيس تثبيت الورق صور فوتوغرافية اباحية وصورة رسمية لمسيو بيير ؛ ومروحة ورقيّة مطرزة ألصقت طياتها المتغضنة من وراء حافة الإطار . وعلى الطاولة وضع ألبوم مغلف بجلد تمساح ، ولمع وجه ساعة سفر ذهبية ، ونصف دزينة من الأزهار الناعمة ملتفة في اتجاهات مختلفة فوق الحافة المصقولة للقدح الخزفي المزين بمنظر طبيعي ألماني . وفي زاوية الزنزانة تقف حقيبة كبيرة لربما تحتوي احدى الآلات الموسيقية .

«تغمرني السعادة لرؤيتك هنا في منزلي» كان مسيو بيير يقول بينما يتمشى جيئة وذهابا ، مارا كل مرة بشعاع مائل من ضوء الشمس كان لا يزال يتراقص فيه غبار الجبس . «أشعر بأنه منذ الأسبوع الماضي قد أصبحنا أصدقاء جيدين ، وقد تلائمنا مع بعض بشكل ممتاز ، وودي جدا ، الأمر الذي لا يحدث إلا نادرا . أرى أنك مهتم لمعرفة ماذا يوجد في الداخل . اسمح لي فقط [وحبس نَفَسه] ، دعني أنتهي من ثم سوف أعرض عليك . . .»

«صداقتنا» واصل المسيو بيير وهو يخطو يلهث قليلا «أزهرت في جو السجن الذي يشبه الدفيئة ، حيث غذيت بنفس المخاوف ونفس الآمال . وأعتقد أنني أعرفك الآن أفضل من أي شخص

آخر في العالم ، وبالتأكيد أكثر حميمية مما تعرفك زوجتك . ولذلك أجد من المؤلم على وجه التحديد عندما تستسلم للشعور بالحقد أو الازدراء للناس . . . الآن فقط ، على سبيل المثال ، عندما قدمنا إليك فرحين ، أهنت مجددا رودريغ إيفانوفيتش بلامبالاتك المصطنعة نحو المفاجأة التي كان جزءاً منها بكل لطف وحيوية نشطة ، ولا تنسَ أنه لم يعد شابا الآن وأن لديه مشاكله العديدة هو أيضًا . كلا ، لا أود حقا أن أتكلم عن هذا الآن . . .أريد فقط أن أثبت لك أنه لا يعزب عني أدنى مسحة من شعور من جانبك ، ولذلك أنا شخصيا أشعر أن الاتهام الشهير ضدك ليس عادلا البتة . . . بالنسبة لي أنت واضح تماما مثل -وأعذرني عن التشبيه المعقد- وضوح عروس تتضرج حمرة تحت أنظار عريس متمرس . لا أعرف ، لكن هناك خللا ما في تنفسي ؛ اعذرني ، سينتهي هذا في لحظة . لكنني إذا كنتُ قد أجريت هذه الدراسة الوثيقة عنك و- ولماذا نبقي هذا سرا؟- أصبحت مولعا ، مولعا جدا بك ، فلا بد عليك أنت أيضا أن تعرف المزيد عنيّ ، وأن تعتاد أكثر عليّ ، وأكثر من ذلك ، أن تصبح متعلقا بي كما أنا متعلق بك . لتحقيق مثل هذه الصداقة ، كانت تلك أول مهامي ، ويبدو أنني قد أنجزتها بنجاح . بنجاح . والآن سنتناول الشاي . لا أفهم لماذا لم يحضروه بعد» .

ممسكا بصدره ، جلس على الطاولة قبالة سنسيناتوس ، لكنه نهض مجددا على الفور ؛ ومن تحت وسادته استخرج محفظة مغربية ، استخرج من المحفظة جرابا من جلد الشامواه ، ومن الجراب أخرج مفتاحا ؛ ومضى إلى الحقيبة الكبيرة التي كانت تقف في الزاوية .

«أرى أنك مندهش من نظافة مكاني» قال وهو يميل بعناية على الحقيبة المدعومة التي ظهر أنها ثقيلة ومتعبة . «لكن كما ترى ، النظافة تزيّن حياة أعزب وحيد ، الذي أثبت لنفسه . . .»

فتح الحقيبة . هناك ، فوق المخمل الأسود ، ظهر فأس كبير لامع .

« . . . أثبت لنفسه أن لديه حقا عشًا صغيرا . . .عشا صغيرا» نهض مسيو بيير وأغلق الحقيبة مرة أخرى ، وأسندها إلى الجدار ، واستند هو نفسه «عشا صغيرا استحقّه ، بناه ، ملأه بدفئه . . . عموما ، هناك ثيمة فلسفية مهمة هنا ، لكن يبدو لي من بعض الدلائل ، أنك مثلي ، لست في مزاج للثيمات الآن . هل تدري؟ إليك نصيحتي : سنتناول الشاي لاحقا ، أما الآن ، فعُد إلى مكانك واستلقِ لبعض الوقت ، أجل ، اذهب . كلانا شابٌّ ، لا يجب أن تبقى هنا لفترة أطول . غدا سيشرحون لك ، أما الآن فاذهب رجاءً . أنا أيضا متحمس ، وأنا أيضا لا أتمالك نفسي تمامًا ، عليك أن تفهم هذا . . .»

كان سنسيناتوس بهدوء يحاول عبثا فتح الباب المغلق .

«كلا ، كلا . . استخدم نفقنا . لم نكدح جاهدين فيه من أجل لا شيء . ازحف داخله ، ازحف داخله . لقد غطيت الحفرة وإلا فإنها لن تبدو جميلة . اذهب . . .»

«لوحدي» قال سنسيناتوس .

صعد إلى الفتحة السوداء ، ومسببا الألم لركبتيه مجددا ، بدأ الزحف على أطرافه الأربعة ، أعمق وأعمق في الظلمة الخانقة . صاح مسيو بيير بشيء ما عن الشاي بعد ذهابه ومن ثم أسبل الستارة على ما يبدو ، لأن سنسيناتوس شعر على الفور بانقطاعه

عن الزنزانة المضيئة التي كان فيها للتو .

متنفسا الهواء القاسي بصعوبة ، الذي كان يجري عبر النتوءات الحادة ، ومتوقعا ، دون خوف استثنائي ، أن النفق سينهار ، تلمس سنسيناتوس طريقه عن عمى عبر الممرات الملتوية ، ليجد نفسه في نهاية حجرية مسدودة ، وكحيوانٍ مريض متخاذل ، تحرك نحو الخلف ؛ ثم متحسسا بقية النفق ، زحف قُدما . كان نافذ الصبر لكي يسلتقي على شيء ليّن ، حتى لو كان مجرد سريره ، وأن يسحب الأغطية فوق رأسه ، وألا يفكر في أي شيء . طالت رحلة العودة هذه ، وهكذا سالخا كتفيه ، بدأ بالإسراع بقدر ما يسمح له القلق الدائم من الطريق المسدود . الضِيقُ جعله ثملا وكان على وشك أن يتوقف وأن يتمدد منبطحا ، ويتخيل أنه في فراشه وهكذا يغط في النوم ، عندما بدأ السطح الذي كان يزحف فوقه بالانحدار ، ولمح وميضا لصدع يميل للحمرة أمامه لينشق نفحة من الرطوبة والتعفن تماما كما لو أنه يعبر من أحشاء جدار القلعة إلى كهف طبيعي ، حيث كانت الخفافيش المتلفعة تتدلى من السقف المنخفض كفواكه مجعدة ، تنتظر دورها المسرحيّ ، كل منها معلّق بمخلب ورأسه لأسفل ، انفتح الصدع في لهيب من الضوء ، وهناك هبت نسمة من هواء المساء المنعش ، وزحف سنسيناتوس من صدع في الصخر إلى الحريّة .

وجد نفسه في احدى المنحدرات المعشوشبة والتي كانت تبدو كأمواج خضراء داكنة ، تتثنى بوضوح على مختلف المستويات بين الصخور وأسوار القلعة المدرجة . في البداية كان يشعر بدوار شديد من الحرية ، الارتفاع والمكان الذي وقف على عشبه الرطب وبالكاد لاحظ شيئا عدا الصرخات العالية المسائية للسنونوات وهي تقص

الهواء الملوّن بمقصاتها السوداء ؛ كان توهج غروب الشمس قد غمر نصف السماء ، وخلف رأسه تماما ، امتدت بميلٍ مروّع المنحدرات الحجرية السوداء للقلعة التي رشح منها كقطرة ماءٍ ؛ أما عند قدميه فقد كانت هناك جُرُف رائعة وضباب يعبق برائحة البرسيم .

استرجع أنفاسه واعتاد على السطوع الذي دوخه ، وعلى ارتجاف جسده وعلى أثر الحرية التي ترددت أصداؤها من بعيد وانبثقت من داخله . ألصق ظهره بالصخرة وتأمل المنظر الضبابيّ . أسفل بعيدا ، حيث كان الشفق قد استقر بالفعل ، بالكاد تمكن من استشفاف رابية الجسر المزخرفة عبر خصلات الضباب . بينما كانت هناك ، على الجانب الآخر ، المدينة الزرقاء الغامضة ، بنوافذها التي تتوهج مثل الجمر ، لا تعرف ما إذا كانت لا تزال تستمد وميضها من لهيبِ غروب الشمس أو أنها ربما مضاءة على نفقتها الخاصة ؛ تمكن من رؤية الصف التدريجي للكريات المنيرة لأضواء الشارع وهي تبث ضوئها على طول جادة سْتيب ، وهناك كانت تبرز بوضوح وروعة قنطرةٌ على طرفه العلويّ . ووراء المدينة بدا كل شيء يومض بخفوت ، ممتزجا وذائبا ؛ لكن أعلى الحدائق الخفيّة ، في الأعماق الوردية للسماء ، انتصبت سلسلة من السحب الصغيرة الملتهبة الشفيفة ، وهناك امتد صف بنفسجيّ طويل مع بيوت للإيجار تلتمع على طول حافته السفلى ، وبينما كان سنسيناتوس يحدّق ، بعيدا هناك ، بعيدا هناك ، تلألأ تل مغطى بأشجار السنديان باللون الأخضر البُنْدُقيّ وهو يغرق ببطء في الظلّ .

انزلق ثملا ضعيفا على العشب الخشن ، وهو يتمالك توازنه ، انطلق نحو الأسفل ، وعلى الفور من وراء انعكاس للسور ، حيث أجمة علّيق معتمة تبث حفيفها المُنذر ، اندفعت إيمي تجري نحوه ،

ووجهها وساقيها ملونة بالوردي جراء غروب الشمس ، وبإحكام تشبثت بيده ، وسحبته ورائها . فضحت جميعُ حركاتها حماسَها وتسرعها المبتهج . «إلى أين سنذهب؟ إلى الأسفل؟» استفسر سنسيناتوس بتلعثم وهو يضحك من نفاذ صبرها . قادته بسرعة على امتداد جدار القلعة . وانفتح باب صغير أخضر في الجدار . ومرّت درجات السلم ، المؤدي إلى أسفل ، بِصُورة تدريجية تحت الأقدام . ومرة أخرى صرّ أحد الأبواب ، وخلفه كان هناك ممر مظلم يوجد فيه سراويل قصيرة وخزانة ملابس وسلّم يستند على الجدار ، وكانت هناك رائحة الكيروسين ؛ وكان من الواضح الآن أنهم دخلوا شقة المدير من الجانب الخلفيّ ، والآن لم يعد يقبض على أصابعه بإحكام شديد ، بل أرخاهم وهو شارد الذهن ، قادته إيمي إلى غرفة الطعام حيث جلس الجميع وهم يشربون الشاي على طاولة بيضاوية مضاءة . كان منديل رودريغ إيفانوفيتش يغطي صدره على نحو كبير ، ؛ أما زوجته -النحيفة ، المنمشة ، برموش بيضاء- فقد كانت تمرر الفطائر المملحة إلى المسيو بيير ، الذي كان يرتدي قميصا روسيا مطرزا بأشكال ديوك ، بينما برزت كرات من الصوف الملون وإبر الحياكة الصقيلة من سلة قرب السماور[1] . وكانت هناك عجوز طاعنة في السنّ ، ضئيلة ، حادة الأنف ، تعتمر قلنسوة نسائية وشالا أسود تجلس محدودبة على أحد أطراف الطاولة .

وعندما رأى المدير سنسيناتوس تثاءب ، وسال شيء ما من أحد زوايا فمه .

---

(١) ساموفار أو سماوَر : وعاءٌ لغلي الشاي . المترجم

«بففف ، أيتها الطفلة الشقية!» قالت زوجة المدير لإيمي بلكنة ألمانية خفيفة .

أما المسيو بيير الذي كان يعتني بالشاي فقد أخفض عينيه بأدب .

«ما معنى هذه المغامرة الطائشة؟» قال رودريغ إيفانوفيتش من خلال عصير البطيخ المتقاطر . «ناهيك عن حقيقة أن هذا يخالف جميع القوانين!» .

«دعهم وشأنهم» قال مسيو بيير دون أن يرفع عينيه . «ففي النهاية ، كلاهما طفلين» .

«إنها نهاية عطلتها ، لذلك تريد أن تمرح بطيش» تدخلت زوجة المدير .

جلست إيمي إلى الطاولة وجعلت الكرسي يكشط الأرض عن عمد ، وهي تتململ وترطب شفتيها ، ومتجاهلة سنسيناتوس كليّة ، بدأت تنثر السكر (الذي أصبح فورا بلون برتقالي) على شريحتها القاسية من البطيخ ؛ وعندئذ بدأت بقضمها باهتمام بالغ ، ماسكة إياها من أطرافها ، التي وصلت حتى أذنيها ، وتدفع جارها بمرفقها . تابع جارها احتساء الشاي ، وهو يمسك الملعقة التي تبرز منه بين اصبعيه الثاني والثالث ، لكنه كان يمد يده اليسرى تحت الطاولة على نحو لا يثير الانتباه . «ويلي!» صرخت إيمي كما لو أنها تلقت وخزة مدغدغة ، ومع ذلك دون أن تبعد فمها عن البطيخة .

«اجلس هناك في الوقت الراهن» قال المدير وهو يشير نحو سنسيناتوس بسكين الفاكهة ، إلى كرسي أخضر ذي ذراعين مع غطاء واق ، كان يقف بمعزل في عتمة ضاربة للحمرة قرب طيّات ستائر النافذة . «عندما ننتهي سأعيدك إلى مكانك . لقد قلت لك

اجلس . ما بك؟ ما خطبه؟ يا له من رجل بليدا» .

انحنى مسيو بيير على رودريغ إيفانوفيتش وهو يتضرج قليلا ، همس له بشيء ما .

أرسلت حنجرة الأخير أصوات قصف رعد منتظمة :

«حسنا ، تهانينا ، تهانينا» قال وهو يكبح بصعوبة جماح صوته . «هذه أخبار طيّبة! -إنه الوقت المناسب لكي تخبره- جميعنا . . .» ألقى نظرة على سنسيناتوس وكان على وشك أن يبدأ التحدث برسميّة . . .

«لا ، ليس بعد ، يا صديقي ، لا تحرجني» غمغم المسيو بيير ، وهو يلمس كميّه .

«على أية حال ، لن ترفض قدحا آخر من الشاي» قال رودريغ إيفانوفيتش ممازحا ، ثم بعد لحظة من التأمل وبعض المضغ ، خاطب سنسيناتوس .

«هاي ، أنت هناك . يمكنك أن تتصفح الألبوم أثناء انتظارك . يا بنت ، أعطيه الألبوم» . «بالنسبة لها» (قال وهو يشير بالسكينة) «فإن العودة للمدرسة يا ضيفنا العزيز جعلها -جعلها- اعذرني ، يا بيوتر بيتروفيتش ، لقد نسيت ما سميّته به» .

«هاوية لكشف الطالع الفوتوغرافي[1]» أجاب المسيو بيير بتواضع .

---

(١) Photohoroscope كلمة اخترعها نابوكوف في اللغة الانجليزية وتعني : مجموعة من الصور الفوتوغرافية تمثل التقدم الطبيعي للحياة الكاملة لشخص معيّن . المرجع : حماسة المغامرة اللفظية : دراسة عن نثر فلاديمير نابوكوف الانجليزي . يورغن بودنستاين . المترجم .

«هل أترك الليمون بداخله؟» سألت زوجة المدير .

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

غمر مصباح الكيروسين المعلّق ، الذي كان ضوئه لا يصل إلى الجزء الخلفي من غرفة الطعام (حيث يلتمع هناك فقط وميض رقاص ساعة وهو يركل الثواني الصلبة) الطاولة المريحة الواسعة بنور عائليّ يحفّ أصوات الصلصلة لطقوس إعداد الشاي .

الفصل السادس عشر

دعنا نكن هادئين . امتص العنكبوت حتى آخر قطرة عشة صغيرة مزغبة بأجنحة أمامية مجزعة كالرخام ، وثلاثة ذبابات ، لكنه ظل جائعا واستمر يرقب الباب . دعنا نكن هادئين . أما سنسيناتوس فقد كان كتلة من الخدوش والكدمات . ابقَ هادئا ، لم يحدث شيء . في الليلة الماضية عندما عادوا به إلى الزنزانة ، كان اثنين من العمّال قد انتهيا للتو من تجصيص المكان الذي كان من قبل حفرة مفتوحة . ولا يدل على هذا المكان الآن سوى دوامات من الطلاء مستديرة قليلا وأكثر سمكا من بقية الأماكن ، وقد كان يشعر بإحساس خانق كلما لمح الجدار ، الذي عاد الآن مرة أخرى أعمى ، أصما ومصمتًا .

وقد كان أحد بقايا الأمس ، ألبوم التمساح بطرّته الكبيرة من الفضة السوداء أخذت برمتها على نحو تجريدي معتدل : فصور الطالع الفريدة هذه وضعت معا بواسطة واسع الحيلة مسيو بيير ، وصور الطالع هي مجموعة من الصور الفوتوغرافية تمثل التقدم الطبيعي للحياة الكاملة لشخص معيّن . كيف تم ذلك؟ كالتالي : لقطات فوتوغرافية معدلة بشكل كبير تمثل وجه إيمي في الوقت الراهن ألحقت بلقطات فوتوغرافية لأناس آخرين -من أجل الملابس ، الأثاث والمكان المحيط- وهذا لإنشاء الديكور الكامل والخصائص المسرحية لحياتها المستقبلية . على التوالي وهي عالقة في نوافذ صغيرة مضلّعة من الورق المقوى الصلب مذهّب الأطراف ،

ومزودة بتواريخ زمنية منقوشة بنعومة ، هذه الصور الحادة والتي تبدو من أول وهلة صور فوتوغرافية أصلية تصور إيمي أولا كما هي في الوقت الحاضر ؛ ثم في الرابعة عشرة ، وهي تحمل حقيبة أوراق مستطيلة في يدها ؛ ثم في السادسة عشر ، في لباس راقصة باليه ضيق وتنورة قصيرة منتفخة ، بأجنحة غازيّة تبرز من ظهرها ، وهي تجلس مستريحة على الطاولة ، وتحمل كأسا من النبيذ بين مجموعة من المعربدين ؛ ثم في سن الثامنة عشر ، على أرض عشبية طاغية الجمال عند درابزين فوق شلال ماء ؛ ثم . . .أوه ، في عدة هيئات ووضعيات أخرى ، حتى الصورة الأخيرة تماما ، الأفقية .

وبواسطة التعديل وحيل فوتوغرافية أخرى ، تم انجاز ما يبدو تغيرا تدريجيا على وجه إيمي (وبالمناسبة فإن منجز هذه الحيل قد استخدم صور والدتها الفوتوغرافية) ؛ لكن ليس على المرء إلا أن ينظر عن كثب ليبدو من الواضح له على نحو مثير للاشمئزاز كم هي مبتذلة هذه المحاكاة الساخرة لعمل الزمن . الفتاة إيمي التي كانت تغادر باب المسرح ، وهي ترتدي معطفا فرويا ، بزهور تضغط على كتفها ، وأطراف لم ترقص أبدا ، بينما في الصورة التالية ، تظهرها وهي ترتدي برقع زفافها بالفعل ، أما العريس إلى جانبها فقد كان طويلا ونحيلا ، لكنه يملك الوجه الصغير المستدير للمسيو بيير . في سن الثلاثين كان لديها بالفعل ما يفترض أن يبدو وكأنه تجاعيد ، رُسمت دون معنى ، دون حياة ، ودون معرفة بأهميتها الحقيقية ، لكنها تنقل شيئا ما غريبا للخبير ، كتحرك عَرَضي لأغصان شجرة يتطابق مع علامة اشارة يفهمها الأبكم . وفي سن الأربعين كانت إيمي تحتضر -وهنا اسمحوا لي أن أهنئكم على خطأ معكوس : فوجهها عند الموت لا يمكن أبدا أن يشبه وجه الموت!

حمل روديون هذا الألبوم بعيدا ، وهو يغمغم بكلام على أن السيدة الصغيرة على وشك المغادرة ، وعندما ظهر مرة أخرى اعتبر أنه من الضروري أن يعلن أن السيدة الصغيرة قد رحلت :

(تنهد) «ماتت ، ماتت . . .» (وهو يخاطب العنكبوت) «يكفيك ، لقد حصلت على ما يكفي . . .» (وهو يبسط راحته) «ليس لدي أي شيء لك» . (وهو يخاطب سنسيناتوس مرة أخرى) «سيكون الأمر مملا ، مملا للغاية في غياب ابنتنا الصغيرة . . .كيف كانت ترفرف هنا وهناك ، أيّ موسيقى ألفتها ، عزيزتنا المدللة ، زهرتنا الذهبية» . مرت لحظة صمت . ثم ، بنبرة مختلفة «ما الخطب ، يا سيدي الطيّب ، لماذا لم تعد تسأل تلك الأسئلة الجذابة؟ طيب؟ إذًا ، إذًا» كرر روديون على نحو مقنع لنفسه وانسحب بكرامة .

بعد العشاء ، كان جميع من في السجن يرتدي على نحو رسمي تماما سترة مخملية ، وبربطة عنق فراشية الشكل متكلفة المظهر وأحذية طويلة جديدة تطقطق بتأنق بسوقها الصقيلة (جاعلة إياه يشبه إلى حد ما حطّابًا أوبراليا) ، دخل مسيو بيير ، خلفه ، يأتي الخاضع له بجلال لأدنى اشارة منه في التنزه ، الكلام وكل شيء ، رودريغ إيفانوفيتش والمحامي مع محفظة أوراقه . استقر ثلاثتهم عند الطاولة على كراسي خيزرانية (جلبوها من غرفة الانتظار) ، بينما تمشى سنسيناتوس عبر الزنزانة ، في قتال فردي مع خجل مخز ؛ لكنه جلس هو كذلك الآن .

على نحو أخرق نوعا ما (بخُرق كان على أية حال متمرسًا ومألوفا) وهو يجذب المحفظة ، وهو يفكها فاتحا خدها الأسود ، ماسكا إياها جزئيا فوق ركبته ، وجزئيا يسندها إلى الطاولة -كانت

تنزلق من أحد النقاط ، ثم تنزلق من الأخرى- استخرج المحامي دفتر كتابة كبير ، وأغلق أو بالأحرى زرّر محفظة الأوراق ، التي خضعت لذلك بكل يسر ولذلك عندما حرّك برداءة مشبك أداة الربط ؛ اكتفى بوضعها على الطاولة ، لكنه غيّر رأيه وأمسكها من أعلاها ، وأنزلها نحو الأرضية وأسندها على أحد أرجل كرسيه ، حيث حاكت الوضعية المترنحة لإنسان سكران ؛ استخرج بعد ذلك من طية صدر سترته قلم رصاص صقيل ، ومن الغلاف الخلفي فتح الدفتر ، ومتجاهلا كل الأشخاص والأشياء ، شرع في تغطية الأوراق المنفصلة بخط منظم ؛ لكن هذه اللامبالاة ذاتها هي التي جعلت الصلة بين الحركة السريعة لقلمه واللقاء الذي جُمع فيه الكلّ ، أكثر وضوحًا .

كان رودريغ إيفانوفيتش مسترخيا في الكرسي المريح ، وهو يميل ظهره قليلا ، جاعلا الكرسي يصرّ جرّاء ضغط ظهره الصلب ، احدى يديه الأرجوانية كانت تستريح على مسند كرسيه والأخرى في حضن معطفه الفْراك ؛ ومن حين لآخر كان يهزّ ذقنه وخديه المترهلين ، اللذان كانا مطليان بالبودرة كالحلوى التركية ، كان يهزهم كما لو أنه يحررها من عنصر ما لزج ومُمتص .

أما مسيو بيير ، وهو يجلس في الوسط ، فقد صبّ لنفسه الماء من الدورق ، ثم وبعناية لم تُرَ من قبل وضع يديه على الطاولة وأصابعه متشابكة (لمع حجر زبرجد اصطناعي على اصبعه الصغير) ثم ، وهو يخفض رموشه الطويلة لعشر ثوانٍ ليتفكر بعمق على نحو وقور كيف سيبدأ خطابه .

«سادتي الطيبين» قال مسيو بيير أخير بصوت عالٍ ، دون أن يرفع عينيه «أولا وقبل كل شيء آخر ، دعوني ألخّص في بضع

نقاط سريعة بارعة ما الذي أنجزتُه بالفعل» .

«استمر ، رجاءً» قال المدير وهو يرجّع الصوت جاعلا كرسيه يصدر صريفًا حادا .

«أيها السادة ، أنتم تعرفون بالطبع أسباب الغموض المسليّ الذي تتطلبه تقاليد حرفتنا . ففي النهاية ، كيف سيبدو الأمر لو أنني أعلنت عن نفسي مباشرة منذ البداية وعرضتُ صداقتي على سنسيناتوس س .؟ كان سيؤدي هذا الأمر ، أيها السادة ، قطعًا إلى رفضه ، واخافته والاستعداء عليه ، وباختصار كنتُ لأرتكبَ خطأً فادحًا» .

أخذ المتحدث رشفة من كأسه ووضعه جانبا برفق .

ومضى في خطابه ، وهو يرمش : «لا داعي لأن أشرح كم هو مهم لنجاح مهمتنا المشتركة ، ذلك الجو من الصداقة الحميمة الذي ينشأ مع التحلي بالصبر واللطف ، شيئا فشيئا بين المحكوم عليه ومنفّذ الحكم . من الصعب بل من المستحيل أن نذكر ، دون احساسنا بقشعريرة ، وحشية الأيام الغابرة ، عندما كان هذين الاثنين وهما لا يعرفان بعضهما البعض على الاطلاق ، غرباء على بعضهما البعض ، لكنهما موثقان إلى قانون لا يرحم ، يلتقيان وجها لوجه فقط في اللحظة الأخيرة أمام السر المقدّس ذاته . كل هذا قد تغيّر تماما مثل حفل الزفاف البربري القديم ، الذي كان يشبه إلى حد بعيد قربانا بشريا -عندما كان والدا العذراء المطيعة يدعّانها دعًا نحو خيمة غريب- لقد تغيّر هذا بمرور الزمن» .

(وجد سنسيناتوس في جيبه قطعة من الغلاف المعدني الرقيق للشوكولاتة وشرع في عجنه) .

«وهكذا ، أيها السادة ومن أجل اقامة أوثق علاقة صداقة ممكنة

مع المُدان ، انتقلت إلى زنزانة كئيبة مثل هذه ، في زي سجين مثله ، إن لم يكن أكثر من ذلك . وهكذا لم يكن أمام خداعي البريء إلا أن ينجح ، ولذلك سيبدو غريبا بالنسبة لي أن أشعر بأي ندم ؛ لكني لا أريد لكأس صداقتنا أن يُسمم بأدنى قطرة من المرارة . وعلى الرغم من حقيقة وجود شهود حاضرين ، وأنني أعرف نفسي أنني على الجانب الصواب ، فإني أطلب (ومد يديه نحو سنسيناتوس) صفحك» .

«أجل ، هذه لباقة أصيلة منك» قال المدير بصوت منخفض ، وأضحت عيناه المتأججتان اللتان تشبهان عيون الضفادع رطبةً ، واستخرج منديلا مطويا وكان على وشك أن يمسح به جفونه المرتجفة عندما انتابته فكرة أخرى وبدل ذلك ثبّت نظرة حادة متوقعة على سنسيناتوس . ألقى المحامي أيضا نظرةً ، لكن بشكل عابر ، بينما يحرك بصمت شفتيه ، والتي بدأت تظهر مثل خط يده ، أعني ، دون أن يفصل علاقته بالسطر ، الذي كان قد انفصل عن الورقة لكنه كان جاهزا لاستئناف سيره عليه فورًا .

«يدك!» صخب المدير ، وضرب الطاولة بيده بشكل أَلم إبهامه .

«كلا ، لا تجبره إذا لم يكن يريد ذلك» قال مسيو بيير برفق . «ففي النهاية ، هو مجرد اجراء شكليّ . فلنواصل» .

«أوه ، يا لك من رجل صالح» ردد رودريغ إيفانوفيتش بابتهاج وهو يمنح مسيو بيير نظرة دبقة كقبلة .

«دعنا نواصل» قال مسيو بيير . «خلال هذا الوقت نجحتُ في ترسيخ صداقة وثيقة مع جاري . لقد قضينا . . .»

نظر سنسيناتوس تحت الطاولة . لسبب ما فقد مسيو بيير

ملامح وجهه وبدأ في التململ وألقى نظرة خاطفة جانبية إلى أسفل . أما المدير وهو يرفع زاوية من مفرش المائدة ، ألقى نظرة لأسفل ثم نظر بارتياب نحو سنسيناتوس . أما المحامي ، بدوره ، فقد أقحم رأسه لأسفل ، ثم ألقى نظرة على الجميع من حوله واستأنف الكتابة . نهض سنسيناتوس قائما . (لم يكن شيئا مميزا- فقد أسقط كرته الصغيرة من ورق الألمونيوم) .

«لقد قضينا» تابع مسيو بيير كلامه بصوتٍ مجروح «أماسي طويلة معا في أحاديث مستمرة ، وألعاب وتسالي مختلفة . ومثل الأطفال ، انخرطنا في منافسات للقوة ، أنا ، المسكين ، الضعيف الضئيل مسيو بيير بالطبع ، أوه ، بالطبع لم أكن في مستوى تِربي الجبّار . وناقشنا كل شيء ، مثل الجنس ومواضيع راقية أخرى ، وقد انقضت الساعات بسرعة مثل دقائق ، والدقائق مثل ساعات . وفي بعض الأحيان ، في صمت هادئ . . .»

وهنا ضحك رودريغ إيفانوفيتش فجأةً ضحكا مكبوتًا . «ظريفة هذه 'بالطبع'» همس وهو يفهم المزحة متأخرا قليلا .

«في بعض الأحيان ، في صمت هادئ ، كنا نجلس جنبا لجنب ، تقريبا وذراعينا حول بعضنا البعض ، كلّ منا غارق في أفكاره المعتمة ، وكانت أفكار كل منا تتدفق معًا مثل الأنهار عندما نفتح شفاهنا للتحدث . لقد شاركته تجربتي في الحب ، وعلمته فن الشطرنج ، وسليته بالطُرف في الوقت المناسب . وهكذا مرت الأيام . النتائج أمامكم . أصبحنا نحب بعضنا البعض ، وبِنية روح سنسيناتوس أضحت معروفة لي كبِنية عنقه . لذلك لن يكون انسانا غريبا ، رهيبا ، لكن صديقا لطيفا من سيساعده على ارتقاء الدرجات القرمزية ، وسيسلم نفسه لي دون خوف ، للأبد ، من

الموت برمته . فلتنفذ إرادة الشعب!» (ثم إنه نهض ، ونهض المدير كذلك ؛ أما المحامي ، المنهمك في كتابته ، فلم يرتفع إلا قليلا) .

«إذًا ، الآن ، يا رودريغ إيفانوفيتش ، سأطلب منك أن تعلن منصبي رسميا وتقدمني» .

وضع المدير نظارته على عجل ، وتفحص قصاصة ورق ، وفي صوت مضخم خاطب سنسيناتوس :

«حسنا ، هذا هو المسيو بيير . المهمة- منفذ الإعدام . . .أنا ممتن لتشريفي» أضاف ثم ومع تعبير اندهاش على وجهه ، جلس مرة أخرى على مقعده .

«طيب ، لم تقم بذلك على نحو جيد» قال مسيو بيير باستياء . «ففي النهاية ، هناك صيغ رسمية محددة للإجراء ويجب أن تُتبع . لستُ متحذلقا بالتأكيد ، لكن في لحظة هامة كهذه . . . لا ضرورة لعقد يدك على صدرك ، لقد أفسدت الأمر يا صديق . كلا ، كلا ، ابقَ جالسًا ، هذا يكفي . الآن فلنواصل . يا رومان فيساريونوفيتش ، أين البرنامج؟»

«لقد أعطيتك إياه» قال المحامي ببداهة . «ولكن . . .» قال وبدأ يفتش في محفظته .

«لقد وجدته ، لا تزعج نفسك» قال مسيو بيير «إذًا ، تمت جدولة التنفيذ بعد غد . . . في ميدان الإثارة . لن يجدوا مكانا أفضل منه . . . رائع!» (مضى في القراءة وهو يتمتم لنفسه) «سيتم قبول البالغين . . . ايصالات تذاكر السيرك سيتم تزيينها . . .الخ ، الخ ، الخ . . . منفذ الاعدام يرتدي سراويل حمراء . . . الآن هذا هراء ، لقد بالغوا في الأمر ، كعادتهم . . .» (وهو يخاطب سنسيناتوس) «بعد غد ، ثم . هل فهمت . . .؟ وغدا ، كما تتطلب

أعرافنا المجيدة ، يجب علينا أنا وأنت أن نذهب لزيارة مدينة الآباء ، أعتقد أن لديك تلك القائمة الصغيرة ، أليس كذلك ، يا رودريغ إيفانوفيتش؟»

شرع إيفانوفيتش رودريغ يربت على أجزاء مختلفة من جسمه المبطن بالقطن ، وهو يدير عينيه ولسبب ما نهض واقفا . وفي آخر الأمر تم العثور على القائمة .

«حسنا» قال مسيو بيير . «أضفها إلى ملفك ، يا رومان فيسياريونوفيتش . أعتقد أن هذا يحلّ الأمر . والآن ، وفقا للقانون ، نحيل الكلمة إلى . . .»

«أوه ، كلا ، ليس من الضرورة حقا . . .» قاطعه رودريغ إيفانوفيتش على عجالة . «في النهاية ، هذا قانون قديم جدا» .

«وفقا للقانون» كرر مسيو بيير بحزم ، وهو يلتفت نحو سنسيناتوس «الكلمة لك» .

«يا لك من رجل نزيه!» قال المدير بصوت منكسر وخداه الهلاميان يهتزان .

تبع ذلك فترة صمت . كان المحامي يكتب بسرعة كبيرة جدا لدرجة أن وميض قلمه كان يؤلم العين .

«عليّ أن أنتظر دقيقة كاملة» قال مسيو بيير وهو يضع ساعته السميكة على الطاولة قبالته .

استنشق المحامي الهواء وهو يهتز وشرع في جمع الأوراق المملوءة بغزارة .

مرت الدقيقة .

«انتهت الجلسة» قال مسيو بيير . «دعونا نذهب ، أيها السادة . يا رومان فيساريونوفيتش ، ستسمح لي بالاطلاع على المحاضر

الرسمية قبل أن تستنسخها ، صح؟ كلا ، بعد قليل ، فعيناي الآن متعبتان» .

«يجب أن أعترف» قال المدير «على الرغم من نفسي أشعر بالأسف أحيانًا أننا لم نعد نستخدم نظا . . .» ومال على أذن مسيو بيير عند المدخل .

«ما الذي تقوله يا رودريغ إيفانوفيتش؟» استفسر المحامي وهو يشعر بالغيرة . همس المدير له أيضا .

«أجل ، أنت محق» وافقه المحامي . «على أية حال ، يمكن التحايل على القانون العزيز الصغير . على سبيل المثال ، لو مددنا ضربات القطع لعدة مرات . . .»

«الآن ، الآن» قال مسيو بيير «يكفي هذا ، أيها المهرّجان ، أنا لا أقوم بحزوزٍ أبدا» .

«كلا ، لقد كنا نتحدث فقط من الناحية النظرية» ابتسم المدير بتملق ؛ «فقط في الأيام الخوالي ، عندما كان من الجائز استخدام . . .» أغلق الباب بإحكام ، وتلاشت الأصوات من بعيد .

وعلى الفور تقريبا ، نادى ضيف آخر على سنسيناتوس ، أمين المكتبة ، الذي أتى لجلب الكتب . وجهه الطويل الشاحب بهالته من الشعر الأسود المغبر حول بقعة الصلع ، قوامه الطويل المرتجف في سترته الزرقاء ، ساقاه الطويلتان في سراويله المبتورة ، كل هذا معا خلق انطباعا مرضيًا غريبا كما لو أن الرجل طُرح على الأرض وتم سحقه . مع ذلك بدت لسنسيناتوس ، مع غبار الكتاب ، طبقة رقيقة من شيء انساني بعيد تكمن في أمين المكتبة .

«لا بد أنك سمعت» قال سنسيناتوس «أنه بعد غد سيتم اعدامي . لن أطلب المزيد من الكتب» .

«لن تفعل» قال أمين المكتبة .

مضى سينسيناتوس في كلامه : «أود التخلص من بعض الحقائق المؤذية . هل لي بدقيقة من وقتك؟ أريد أن أقول هذا الآن ، بينما أعرفه بالضبط . . . كم كان مبهجا هذا الجهل ذاته لدرجة أنه أحزنني جدا . . .لا مزيد من الكتب . . .»

«هل تريد شيئا عن الآلهة؟» اقترح أمين المكتبة .

«لا ، لا تزعج نفسك . لا أشعر برغبة في القراءة عنها» .

«البعض يفعل» قال أمين المكتبة .

«أجل ، أعرف ذلك ، لكنها فعلا لا تستحق الاهتمام» .

«في الليلة الأخيرة» أنهى أمين المكتبة فكرته بصعوبة .

«أنت اليوم ثرثار إلى حد بعيد» قال سنسيناتوس وهو يبتسم . «كلا ، خذ كل هذا بعيدا . لم أستطع انهاء السنديانة! أوه ، أجل ، بالمناسبة ، لقد جلبت لي هذه خطأً . .هذه المجلدات الصغيرة . . . باللغة العربية ، أليست كذلك؟ . . .للأسف لم يكن لدي الوقت لأدرس اللغات الشرقية» .

«للأسف» قال أمين المكتبة .

«لا بأس بذلك ، سوف تعوّض عنه روحي . انتظر لحظة ، لا تذهب الآن . على الرغم من أني أعرف بالطبع ، أنك مُحاطٌ فقط بجلد انسان ، إن جاز التعبير ، إلا أنه . . .سأقنع بقليل من . . .بعد غد . . .»

لكن ، وهو يرتجف ، غادر أمين المكتبة .

الفصل السابع عشر

يقتضي التقليد أن يقوم المشاركون السلبيون والفاعلون معًا ، عشية التنفيذ ، بزيارة وداع قصيرة لكل كبار المسؤولين ؛ ومع ذلك ، من أجل اختصار الطقوس ، اتخذ قرار بأن يجتمع هؤلاء الأشخاص في بيت من بيوت الضواحي هو منزل نائب مدير المدينة (أما المدير نفسه ، وهو ابن أخت النائب ، فقد كان بعيدا ، يزور أصدقاء في بريتومسك) وهكذا سيكتفي سنسيناتوس ومسيو بيير بعشاء غير رسميّ .

كانت ليلة مظلمة ، والرياح الدافئة تهب بقوة ، عندما مرّ شخصان يرتديان قبعات متماثلة ، يسيران على الأقدام ، يرافقهم ستة جنود يحملون رماح طبر[1] والقناديل ، عبروا الجسر ودخلوا المدينة النائمة ، وهم يتجنبون الشوارع الرئيسية شرعوا في تسلق الدرب الصواني بين الحدائق التي كانت تصدر حفيفًا .

(قبل ذلك مباشرة ، على الجسر ، استدار سنسيناتوس ، وحرر رأسه من غطاء عباءته : ارتفعت الكتلة الضخمة الزرقاء ، متقنة البناء ، متعددة الأبراج ، للقلعة في السماء القاتمة ، حيث حجبت سحابةٌ القمرَ مِشْمِشيَّ اللون . بينما أومض الهواء المعتم فوق الجسر واهتز بسبب الخفافيش . «لقد وعدت . . .» همس مسيو بيير وهو يضغط برفق على مرفقه ، فارتدى سنسيناتوس مرة أخرى غطاء رأسه) .

---

(١) رُمح طَبَر = سلاحٌ مؤلّف من فأس حَرْب (أو طَبَر) مُرَكّبة على رُمح . المترجم .

هذا المتنزه الليلي الذي كان يتوقع أنه سيكون ثريا جدا بالانطباعات الحزينة والمبهجة والغنائية والمتذمرة -فما هي الذكرى إذًا ، إن لم تكن روح انطباع ما؟- تبين في الحقيقة أنه غامض وعديم المعنى ومر بسرعة خاطفة شديدة كما يحدث فقط وسط بيئة مألوفة جدا ، في الظلام ، عندما تُستبدل الكسور الملونة للنهار بالأعداد الصحيحة لليل .

وعند نهاية الدرب الضيق القاتم ، حيث تسمع صوت جرش الحصى وتشم عبق شجر العرعر ، ظهرت فجأة شرفة معدّة ومضاءة بشكل مسرحيّ بأعمدة بيضاء ، مزينة بإفريز على القوصرة ، ونباتات الغار موضوعة في أصص ، وبالكاد كانت هادئة في المدخل ، حيث كان الخدم يحلقون ذهابا وإيابا كطيور الفردوس ، ويتساقط الريش على البلاط الأبيض والأسود ، دخل سنسيناتوس ومسيو بيير الصالة التي تعج بأصوات تجمع هائل . كان الجميع قد حضر هنا .

هنا حافظ نوافير المدينة الذي يمكن التعرف عليه فورا عبر تسريحته المميزة للشعر ؛ وهنا الزي الرسمي لمدير التلغراف يلتمع بميداليات ذهبية ، وهنا بأنفه الداعر ، كان المدير الأحمر الداكن للمؤن ؛ ومروض الأسود باسمه الايطالي ؛ والقاضي ، الأصم والموقر ؛ أما ذلك الذي يرتدي أحذية جلدية خضراء ، فهو مدير الحديقة ؛ والعديد من الأشخاص الآخرين المتأنقين ، المحترمين ، ذوي شعور شائبة ووجوه بغيضة . لم تحضر أي سيدات هنا ، إلا إن احتسب المرء تلك المرأة العجوز ، الحازمة جدا ، مديرة التعليم في المقاطعة ، التي كانت ترتدي معطف فْراك مخيطا كمعطف رجل ، بخدين منبسطين واسعين ، وتسريحة شعر لامعة لمعان الفولاذ .

انزلق أحدهم على أرضية الصالة الفسيفسائية ، تبعه ضحك صاخب من الجميع . بينما أسقطت الثريا أحد شموعها . هناك من وضع باقة زهور في النعش الصغير الذي أخرج للعرض . وهو يقف إلى جانب سنسيناتوس ، دعا مسيو بيير هذا الجمهور للانتباه له .

عندئذ ، قام المضيف وهو رجل عجوز أسمر البشرة بلحية تيس ، بالتصفيق بيديه . فتحت الأبواب بقوة على مصراعيها واتجه الجميع نحو غرفة الطعام . كان المسيو بيير وسنسيناتوس يجلسان جنبا لجنب على رأس طاولة باهرة الأضواء ، وبدأ الجميع بالنظر ، بتحفظ أول الأمر ، لكن بفضول حسن النية بعدئذ -تحول لدى البعض منهم إلى حنان خفيّ- نحو الزوجين ، اللذان كانا يرتديان معاطف إلزينور متطابقة ؛ ثم وبينما بدأت تظهر تدريجيا ابتسامة لامعة على شفتي المسيو بيير وشرع في الحديث ، أضحت عيون الضيوف أكثر انفتاحا نحوه ونحو سنسيناتوس ، الذي كان يوازن بتأن وجدية واهتمام -كما لو أنه يبحث عن حل لمشكلة- سكينة السمك خاصته بمختلف الطرق ، حينا يوازنها على الملحة ، وحينا آخر على تقَوُّس الشوكة ، وتارة أخرى يميلها على مزهرية البلور الرفيعة التي تطل منها زهرة بيضاء زينت المكان بجلاء .

أما النُدل والذين جلبوا من بين أكثر غنادرة المدينة تأنقا وحذقا -أفضل من يمثل شبابها الأرجواني- فقد قدموا الطعام بخفة (حتى أنهم أحيانا كانوا يقفزون عبر الطاولة بأحد الأطباق) ولاحظ الجميع الاهتمام اللطيف الذي كان يمنحه مسيو بيير لسنسيناتوس ، والذي كان ينتقل فورا من ابتسامة وسط محادثة إلى جدية خاطفة ، بينما هو يضع بعناية أفضل القطع على طبق سنسيناتوس ؛ من ثم كان مع ذلك الملمح المألوف اللعوب على وجهه الأمرد الوردي ، يستأنف

حديثه البارع ، الموجه لكل المائدة ، وفجأة وهو ينحني قليلا فقط ليلتقط وعاء المرق أو رجّاجة الفلفل ، وينظر إلى سنسيناتوس مستفهما ، لكن الأخير على أية حال لم يكن قد مس أي جزء من الطعام ، واستمر بنفس الهدوء والانتباه والجدية ، يتلاعب بالسكينة هنا وهناك .

«تعليقكم» قال مسيو بيير بابتهاج ، وهو يلتفت إلى مدير المرور بالمدينة الذي كان قد أدلى بكلمة منه وينتظر الآن باستمتاع ردًا متألقا ، «تعليقكم يذكرني بتلك الطرفة الشهيرة عن قَسَم أبقراط» .

«أخبرنا بها ، نحن لا نعرفها ، رجاءً أخبرنا بها» توسلت له الأصوات من جميع الجوانب .

«أمتثلُ لرغبتكم» قال مسيو بيير . «أتت إلى طبيب نساء هذه . . . .»

«اعزرني على المقاطعية» قال مروض الأسود (وهو رجل أشيب الشعر بشوارب ، مع شريط قرمزي يزين صدره) «لكن هل السيد مقتنع أن الحكيوت الطريفة مفيدة لآذان . . . .؟»[1] وأشار إلى سنسيناتوس بحدة بعينيه .

«تماما ، تماما» أجاب مسيو بيير بحزم «لم أكن لأسمح لنفسي بأدنى ابتذال في حضرة . . .كما كنت أقول ، أتت إلى طبيب نساء هذه السيدة العجوز الضئيلة» (وشدّ مسيو بيير شفته السفلى قليلا) . وقالت 'الدي مرض فظيع أيها الدكتور ، أشعر بخوف شديد من أن أموت بسببه . . .' ؛ 'ما هي الأعراض التي تحسين بها؟'

---

(١) النص ورد محرفا في الأصل وحاكيناه باللغة العربية قدر الامكان لتوضيح الشخصية كما هي وأنها لا تجيد اللغة الانجليزية بشكل جيد . المترجم .

سأل الطبيب . «رأسي يهتز ، أيها الطبيب! تمتم مسيو بيير وهو يهز رأسه مقلدا المرأة العجوز الضئيلة .

قهقه الضيوف بصخب . أما على الجانب الآخر من الطاولة فقد كان القاضي الأطرش ، وملامح وجهه في التواءات معذبة كما لو يعاني من إمساك عن الضحك ، يقحم أذنه الكبيرة الرطبة في وجه جاره المقهقه الأناني وهو يجذبه من كمه ويناشده أن يعيد حكاية المسيو بيير الذي كان في تلك الأثناء يتابع بغيرة مصير طرفته عبر كامل امتداد الطاولة ، ولم يرضَ إلا عندما خفف أحدهم فضول ذلك المعذَّب .

«قولكم المأثور الرائع بأن الحياة سر طبيّ» قال حافظ النوافير وهو يبث رذاذا من اللعاب الناعم حتى أن قوس قزح تشكل قرب فمه «يمكن أن ينطبق على نحو ملائم جدا على الأمر الغريب الذي حدث ذلك اليوم في عائلة سكرتيري . هل تتصور ذلك . . .»

«حسنا ، يا صغيري سنسيناتوس ، هل أنت خائف؟» سأله أحد الندل المتأنقين وهو يصب له النبيذ ، نظر سنسيناتوس لأعلى ، لقد كان صهره الظريف . «خائف ، ألستَ كذلك؟ تفضل ، تناول الخمر قبل انقضاء الأمر» .

«ما الذي يجري هنا؟» قال مسيو بيير ببرود وهو يعرّف الثرثار بمكانته ، بينما ابتعد هذا الأخير بسرعة ، ثم انحنى بزجاجته على مرفق ضيفه المجاور .

«سادتي!» هتف المضيف ، وهو ينهض من على كرسيه ويحمل كأسه الذي يحتوي مشروبا أصفر شاحبا مثلجا إلى مستوى صدره المُنَشَّى . «اقترحُ نخبَ . . .»

«مُرّ ، مُرّ ، حلّيه بقبلة» قال رجل كان إشبينا مؤخرا ، وانضم

إليه بقية الضيوف في الهتاف .

«اسمح لي . . .أخي . . .أتوسل إليك . . .» قال مسيو بيير لسنسيناتوس بصوت متغير بينما شكلت ملامح وجهه تعبير تضرّع «لا ترفض مني هذا ، أتوسل إليك ، هذه هي الطريقة التي يتم بها الأمر دائما ، دائما . . .»

كان سنسيناتوس يعبث بأطراف البتلات المجعدة للزهرة البيضاء الدبقة التي كان قد سحبها بشرود من المزهرية المنقلبة .

« . . .لدي الحق ، أخيرا في طلب» همس مسيو بيير بتشنج وفجأة مع لهاث ضحك قاهر سكب قطرة من النبيذ من كأسه على قمة رأس سنسيناتوس ومن ثم رشّ نفسه أيضا .

تعالت صرخات «برافو!» أتت من جميع الأنحاء ، وكان الجار يلتفت لجاره ، وهو يعرب على نحو إيمائي درامي عن دهشته وسروره ، وقرعت الكؤوس غير القابلة للكسر ، ولمعت أكوام من التفاح الضخم كل واحدة منها بحجم رأس طفل ، بين العناقيد الزرقاء المغبرة من العنب على سفينة فضية تمخر الجو ، وكانت الطاولة تبدو وهي تميل علوًا كأنها جبل من الماس ، بينما كانت الثريا متعددة الأذرع ترتحل عبر ضباب زخارف السقف الفنية ، وهي تذرف الدموع ، وهي تذرف أشعة الضوء في بحثٍ عبثي عن هبوط .

«أنا متأثرٌ ، متأثرٌ» كان مسيو بيير يقول وهم يأخذون أدوارهم في القدوم إليه لتهنئته . وبينما هم يفعلون ذلك ترنح بعضهم وغنّى البعض . كان والد رجال مطافي المدينة في حالة سكر مخزية ، وحاول اثنين من الخدم خلسة أن يأخذوه بعيدا لكنه ضحى بذيول معطفه كما تفعل سحلية وظل ماكثا . أما المرأة المحترمة والتي كانت

تشرف على المدارس فقد تورد وجهها وهي تشيح بنفسها بعيدا بصمت وتوتر أثناء حماية نفسها من مدير المؤن ، الذي كان يستهدفها على نحو هزلي بإصبعه الذي يشبه الجزرة ، كما لو كان يريد وخزها أو دغدغتها وهو يكرر في خضم كل ذلك «تي-تي-تي!» .

«أصدقاء ، فلنخرج إلى الشرفة» أعلن المضيف ، عندها سحب شقيق مارثا وابن الدكتور الراحل سينيوكوف الستائر مع صوت خشخشة للحلقات الخشبية ؛ وكشف الضوء المتمايل للقناديل الملونة عن شرفة حجرية ، يحدها من بعيد أعمدة درابزين تشبه قوارير البولنغ يتجلى عبرها ظلام الساعات الرملية لليل .

أما الضيوف المتخمين ، وكروشهم تبقبق فقد جلسوا على أرائك منخفضة . تسكّع بعضهم حول الأعمدة الحجرية ، وآخرون قرب الدرابزين . بالقرب منه كذلك ، وقف سنسيناتوس وهو يبرم بين أصابعه ورق سيجار ، وبجانبه ، دون أن يلتفت نحوه لكنه يمسه بظهره أو بجانبه باستمرار ، كان المسيو بيير يتحدث ترافقه هتافات الموافقة من مستمعيه :

«التصوير الفوتوغرافي وصيد الأسماك ، تلك هي اهتماماتي الرئيسية . قد يبدو ذلك غريبا لكم ، لكن الشهرة والشرف لا تمثل لي شيئا مقارنة مع الريف الهادئ . أرى أنك تبتسم متشككا ، أيها السيد اللطيف» (قال عند مرور أحد الضيوف الذي تخلى عن ابتسامته فورًا) «لكنني أقسم لكم أن الأمر كذلك ، وأنا لا أقسم عبثًا . ورثتُ حب الطبيعة عن والدي ، الذي لم يكذب قط هو كذلك . والعديد منكم ، يتذكرونه بالتأكيد ويمكنهم أن يأكدوا ذلك ، وحتى كتابيا إن تطلب الأمر ذلك» .

وهو يقف على الدرابزين ، حدق سنسيناتوس بغموض نحو الظلام ، وعندئذ ، وكما لو أنه طلب ذلك ، شحب الظلام على نحو مغرٍ ، بينما كان القمر في هذه الآونة ، واضحا وعاليا ، ينسل خارجا من وراء الندف السوداء للسحب الصغيرة ، ليزين الشجيرات ، ويلقي ضوئه ليتلألأ في البِرك . فجأة بانبعاثة مفاجئة للروح ، أدرك سنسيناتوس أنه في العمق المتوغل لحدائق تمارا التي كان يتذكرها على نحو ممتاز والتي بدت له متعذرة البلوغ للغاية ؛ أدرك أنه سار هنا مع مارثا عدة مرات ، ومر بهذا المنزل الذي هو فيه الآن والذي بدا له وقتئذ مثل فيللا بيضاء بنوافذ مؤطرة وهو يلمحها عبر أوراق أشجار الأكمة . . . الآن كان يستكشف ما يحيط به بعين مبتهجة ، وبسهولة انتزع الغشاء الليلي القاتم من على المروج المألوفة وحذف منها أيضا الأتربة القمرية الزائدة ، وهذا ليجعلها تبدو تماما كما هي في ذاكرته . وبينما هو يستعيد اللوحة الملطخة بسخام الليل ، رأى البساتين والدروب والجداول الصغيرة وهي تتشكل حيث كانت من قبل . . . ومن بعيد ، كانت لا تزال تلك التلال الساحرة تنتصب وهي تستند قبالة السماء المعدنية ، تلمع باللون الأزرق وتنطوي في العتمة . . .

«الشرفة ، وتوهج القمر ، وهو ، وهي» تلى مسيو بيير وهو يبتسم لسنسيناتوس ، الذي لاحظ أن الجميع كان ينظر إليه بحنان وتعاطف متوقع .

«يعجبك المنظر؟» قال له مدير الحديقة على نحو خاص وهو يشبك يديه وراء ظهره . «أنت . . .» ثم توقف لوهلة وكما لو أنه شعر بالحرج نوعا ما ، التفت نحو مسيو بيير : «عفوا . . .هل لك أن تسمح لي؟ فعلى أية حال لم يتم تقديمي . . .»

«رجاءً ، رجاءً ، ليس عليك أن تطلب الاذن مني» رد مسيو بيير بتهذيب ، وهو يمس مرفق سنسيناتوس ويقول بصوت خفيض «هذا السيد يود أن يتحدث معك يا عزيزي» .

نظف مدير الحديقة حنجرته في قبضة يده وكرر «المنظر . . . هل أعجبك المنظر؟ لا يمكنك رؤية الكثير في هذا الوقت . لكن انتظر فقط ، عند حلول منتصف الليل بالضبط ، كما وعدني مدير مهندسينا . . .نيكيتا لوكيش! تعال هنا ، يا نيكيتا لوكيش» .

«قادم» أجاب نيكيتا لوكيش في صوت خفيض مبتهج ، وخطى إلى الأمام بلطف ، وهو يلتفت بوجهه الفتي البدين المزين بشارب أبيض ، ليحيي بابتهاج أحدهم في مرة ، والآخر مرة أخرى ، ويضع يدا بلطف على كتف مدير الحديقة وأخرى على عاتق مسيو بيير .

«لقد كنت أقول له ، يا نيكيتا لوكيش ، أنك وعدت ، بالضبط عند منتصف الليل ، وعلى شرف . . .»

«عجبي! ، بالطبع» قاطعه مدير المهندسين . «سننجز المفاجأة دون فشل . لا تشغل نفسك بالأمر . بالمناسبة ، كم هي الساعة الآن يا أولاد؟» .

أراح كتفي الآخرين من ضغط يديه الضخمتين وبملامح منشغلة بالتفكير ، مضى للداخل .

«حسنا ، في غضون ثمان ساعات أو نحو ذلك ينبغي أن نكون في الميدان بالفعل» قال مسيو بيير وهو يضغط مغلقا غطاء ساعته . «لا ينبغي علينا أن ننام كثيرا . ألا تشعر بالبرد ، أليس كذلك يا عزيزي؟ الرجل الطيب يقول أنه ستكون هناك مفاجأة . عليّ أن

أقول أنهم يدللوننا . فذلك السمك الذي تناولناه على العشاء لا مثيل له حقا» .

« . . .توقف عن ذلك ، دعني وشأني» قال الصوت الأجش للسيدة المديرة ، بينما كانت كعكة ضخمة رمادية اللون قادمة مباشرة نحو مسيو بيير أثناء تجنبها سبابة مدير المؤن . «تي-تي» زقزق ممازحا «تي-تي» .

«هوني عليك يا سيدتي» نعب مسيو بيير . «أجنابي ليست ملكية عمومية» .

«سيدة جذّابة» قال مدير المؤن بشكل عابر ، دون أي تعبير على وجهه البتة ، ثم وهو يتقافز بمرح توجه نحو مجموعة من الرجال تقف قرب الأعمدة ؛ من ثم اختفى ظله بين ظلالهم ، بينما جعل نسيم هوائي القناديل اليابانية تتمايل ، وفي الظلام هناك انكشفت يد تشذب بتأنق أحد الشوارب تارة ، وتارة أخرى يُرفع كأس لعجوز خرف وهو يحاول أن يتصيد بشفتيه السكر من القاع .

«انتباه!» صرخ المضيف وهو يمر مثل زوبعة بين الضيوف .

بداية من الحديقة ، ثم ما بعدها ، ثم حتى أبعد من ذلك ، على طول الممرات ، في البساتين ، والفُسح وعلى المروج ، بشكل منفرد وفي تجمعات ، أشعلت مصابيح الياقوت الأصفر وشيئا فشيئا رُصّع الليل بالأحجار الكريمة . بدأ الضيوف بالهتاف بـ«أوه!» و«آه!» ، استنشق مسيو بيير الهواء بحدة وأمسك سنسيناتوس من معصمه . كانت الأضواء تغطي مساحة تتزايد باستمرار ، والآن امتدت على طول الوادي البعيد ، والآن امتدت حتى الجانب الآخر منه ، في شكل دبوس مزخرف ممتد ، وفي هذه الأثناء كانت قد رصعت بالفعل أول المنحدرات ؛ وبعدئذ عبرت من تل لآخر ، لتعشش في

أكثر الطيّات خفاءً ، وتتلمس طريقها إلى القمم ، وتتجاوزها! «أوه ، كم هي جميلة» همس مسيو بيير ، وهو يضغط خده لوهلة على خد سنسيناتوس .

صفق الحضور . ولمدة ثلاثة دقائق توهج مليون مصباح من مختلف الألوان ، كانت قد زرعت بطريقة فنية بين العشب وأغصان الشجر وعلى المنحدرات وقد رتبت جميعها بطريقة تجعلها تحتضن المشهد الليلي برمته بطغراء فخمة مميزة من حرف P وحرف C التي ، على أية حال ، لم تكن واضحة تماما . حينئذ أطفئت جميع الأضواء مرة واحدة ووصل الظلام الحالك إلى الشرفة .

وعندما عاود المهندس نيكيتا لوكيتش الظهور مجددا أحاطوا به وأرادوا أن يحيوه بقذفه في الهواء . على كلٍّ ، لقد حان الوقت للبدء في التفكير في راحة مستحقة عن جدارة . وقبل أن يغادر الضيوف ، اقترح المضيف أن يصور مسيو بيير وسنسيناتوس عند الدرابزين . ومع أن المسيو بيير كان هو الشخص الذي سيتم تصويره فقد قاد عملية التصوير هذه . أنارت ومضة من الضوء الهيئة البيضاء لسنسيناتوس والوجه الأعمى بجانبه . سلمهم المضيف بنفسه عباءاتهم وخرج لتوديعهم . في الردهة كان الجنود العابسين يتحركون مصدرين أصوات قعقعة وهم يشعرون بالنعاس بينما يرتبون رماحهم الطبرية .

«أشعر بإطراء لا يمكن وصفه لزيارتكَ» قال المضيف لسنسيناتوس عند المغادرة . «غدا ، أو بالأحرى ، هذا الصباح ، سأكون هناك ، بالطبع ، ليس فقط بصفتي الرسمية بل سأحضر بصفة شخصية كذلك . أخبرني ابن أخي أنه من المتوقع أن يحضر جمع كبير» .

«حسنا ، أتمنى لك حظا طيبا» قال لمسيو بيير بين القبلات الثلاث التقليدية على الخدين .

وغاص سنسيناتوس ومسيو بيير رفقة الجنود ، في الزقاق .

«على العموم أنت رجل طيّب» قال مسيو بيير بعدما قطعوا مسافة قصيرة «فقط لماذا تقوم دائما . . . خجلك يخلق انطباعا سلبيا تماما لدى الناس الجدد . لا أدري بشأنك» أضاف «لكن على الرغم من أني استمتعت بالإضاءة وما إلى ذلك ، ينتابني الأسى والشك في أنه لم يتم طهو كل الأطباق بالزبدة القشدية» .

ساروا لمدة طويلة . كان الجو مظلما جدا وضبابيًا .

أتى صوت دقّ حاد متكرر من مكان ما جهة اليسار بينما كانوا ينزلون على جادة سْتيب . دقّ-دقّ-دقّ .

«الأوغاد» غمغم مسيو بيير . «ألم يقسموا بأنهم قد انتهوا من انجازه؟»

وأخيرا عبروا الجسر وبدأوا في الصعود . كان القمر قد اختفى بالفعل وامتزجت الأبراج المظلمة للقلعة بالسحب .

عند البوابة الثالثة ، كان رودريغ إيفانوفيتش ينتظر مرتديا مبذله المنزلي وقلنسوة النوم .

«حسنا ، كيف كان الأمر؟» سأل بنفاذ صبر .

«لم يفتقدك أحد» قال مسيو بيير بفظاظة .

الفصل الثامن عشر

«حاولت أن أنام ، لكني لم أستطع ، لم أشعر سوى بقشعريرة تجتاح كل جسدي ، والآن لقد حل الفجر» (كتب سنسيناتوس سريعا ، وبخط غير مقروء ، تاركا الكلمات غير منتهية ، كرجل هارب يترك أثر قدم غير مكتمل) «الآن ، أصبح الجو شاحبا ، وأنا متجمد للغاية لدرجة يبدو لي فيها أن المفهوم المجرد «للبرد» لا بد أن يكون شكله الملموس هو شكل جسدي ، أما هم فسوف يأتون من أجلي في أية لحظة الآن . أشعر بالخجل لأنني خائف ، لكنني خائف على نحو ميؤوس منه ، الخوف لا يتوقف أبدا ، يندفع عبري بهدير مشؤوم ، مثل سيل ، وجسدي يرتجف كجسر فوق شلال ماء ، وعلى المرء أن يتحدث بصوت عال جدا ليتمكن من سماع نفسه وسط الهدير . أشعر بالخجل ، وروحي فضحت نفسها -لهذا لا ينبغي علي أن أشعر به ، نِي دولزهنو بيلو بي بييت- لا يمكن لهذه الحفنة الفطرية من الأفعال أن تنمو إلا بالصياح بها باللغة الروسية- أوه ، كم أشعر بالخزي لأن بالي منشغل ، وروحي محجوبة بهذه التفاصيل المترددة ، إنها تندفع عبرها ، بشفاه رطبة ، لتودعني ، جميع أنواع الذكريات أتت لتودعني : أنا كطفل أجلس مع كتاب تحت الشمس الحارقة على ضفة نهر هادر ، والماء يلقي بانعكاسه المتموج على سطور قصيدة قديمة ، قديمة -'الحب في منحدر سنواتنا'- لكنني أعرف أنه لا ينبغي عليّ أن أخضع -'أصبحَ أكثر حنانا وخرافيةً'- لا للذكريات ، ولا للخوف ، ولا لهذه الترخيمات

الوسطية العاطفية : ' . . . وخرافية' . . .وقد كنت آمل كثيرا أن كل شيء سيكون منظمًا ، وجميعه بسيط وأنيق . لأنني أعرف أن رعب الموت لا شيء في الحقيقة ، مجرد تشنج غير ضار ؛ بل هو ربما شيء صحيّ للروح -الصراخ المختنق لطفل حديث الولادة أو الرفض الغاضب لترك لعبة- ولقد عاش هناك مرة ، في الكهوف حيث تسمع صوت تساقط قطرات الماء على الدوام ، وترى الهوابط الكلسية ، عاش هناك حكماء ابتهجوا عند وفاتهم وكانوا - متخبطين في معظم الأحيان ، هذا صحيح- لكنهم بطريقتهم الخاصة ، تغلبوا عليه-وعلى الرغم من أنني أعرف كل هذا ، وأعرف كذلك شيئا جوهريا عظيما آخر لا يعرفه أي أحد هنا- على الرغم من ذلك ، انظروا ، أيها الحمقى ، كم أنا خائف ، وكيف أن كل شيء فيّ يرتجف ، ويضجّ ويندفع ، وفي أي لحظة الآن سوف يأتون لأخذي ، وأنا لست مستعدا ، أنا أشعر بالعار . . .» .

نهض سنسيناتوس ، واتخذ وضعية ركض واصطدم بتهور بالحائط ؛ سنسيناتوس الحقيقي ، على أية حال ، ظل جالسا إلى الطاولة ، وهو يحدق في الجدار ، ويمضغ قلمه ، والآن حوّل قدمه تحت الطاولة وتابع الكتابة ، على نحو أقل سرعة :

«احتفظوا بهذه الملاحظات -لا أعرف من أطلب منه ذلك ، لكن احتفظوا بهذه الملاحظات- أؤكد لكم أنه يوجد قانون ما بهذا الشأن ، ابحثوا عنه ، وسوف ترون! -دعوها تبقى في مكان ما لفترة من الزمن ، ما الذي سيؤذيكم إن فعلتم؟- وأنا أطلب منكم ذلك بأقصى درجات الجدية- أمنيتي الأخيرة - أنى لكم ألا تسمحوا لي بها؟ ويجب أيضا أن يكون لدي على الأقل الامكانية النظرية لوجود قارئ ، وإلا فإنني حقا سأمزق كل شيء بنفسي . هنا ، هذا

ما كنت بحاجة لقوله . والآن حان الوقت للاستعداد» .

وتوقف مرة أخرى . كان الضوء قد ازداد بالفعل داخل الزنزانة ، وكان سنسيناتوس يعلم عبر موضع الضوء أن الساعة الخامسة والنصف على وشك أن تدق . انتظر حتى سمع دق الساعة البعيد ، ومضى في الكتابة ، لكنه الآن كتب على نحو هادئ بطيء ومتردد ، كما لو أنه قد استنفذ كل قوته في احدى الصرخات الاستهلالية .

«تدور جميع كلماتي حول نقطة واحدة» كتب سنسيناتوس . «الغيرة من الشعراء . كم هو رائع أن تمضي بسرعة على امتداد الصفحة ، ومباشرة من الصفحة ، حيث لا يوجد سوى ظل يستمر بالركض ، تقلعُ نحو السماء الزرقاء . عدم ترتيب وارتباك الإعدام ، من بين جميع التلاعبات ، قبل وبعد . إلى أي مدى برودة الشفرة ، وإلى أي مدى نعومة مقبض الفأس . مع ورق الصنفرة . أعتقد أن ألم الرحيل سيكون أحمر وصارخًا . الفكرة ، عندما تكتبها على الورق ، تصبح أقل قهرا ، لكن بعض الأفكار تشبه الورم السرطاني ، تعبر عنها ، تستأصلها ، لتنمو مرة أخرى أسوأ من ذي قبل . من الصعب أن تتصور أنه في هذا الصباح بالذات ، في غضون ساعة أو ساعتين . . .»

مرت الساعتان ، وأكثر ، ومثل المعتاد تماما ، جلب روديون طعام الإفطار ، ونظف الزنزانة ، وبرى القلم ، وأفرغ سطل المرحاض ، وأطعم العنكبوت . لم يسأله سنسيناتوس عن شيء ، لكن عندما غادر روديون ، ومضى الزمن في هرولته المألوفة ، أدرك أنه خدع مرة أخرى ، وأنه أرهق روحه من دون داعٍ ، وأن كل شيء ظل كما هو غير مؤكد ، لزجا وبلا معنى .

أنهت الساعة للتو دقتها الثالثة أو الرابعة (كان قد غفا ثم استيقظ نصف يقظة ولهذا لم يحصِ عدد الدقات لكنه احتفظ فقط بانطباع تقريبي لمجموع أصواتها) عندما فُتح الباب فجأة ودخلت مارثا . كان خداها متوردين ، وتسريحة شعرها خلف رأسها طليقة ، والصدار الضيق لفستانها المخملي الأسود يهتز ، شيء ما لم يكن على ما يرام ، وهذا الأمر جعلها تبدو غير متوازنة ، واستمرت تحاول تعديل فستانها ، وتجذبه هنا وهناك ، أو تلوي بسرعة كبيرة شفتيها كما لو أن هناك شيئا ما خاطئا وغير مريح تحتها .

«بعض أزهار الترنشاه من أجلك» قالت وهي ترمي باقة زهور زرقاء فوق الطاولة ، وفي نفس الوقت رفعت برشاقة طرف تنورتها فوق ركبتها ، ووضعت على الكرسي ساقا بضة صغيرة في جورب أبيض ، وسحبتها إلى الموضع حيث ترك رباط الجورب أثره على جسدها البض المهتز . «يا إلهي ، كم هو صعب أن تحصل على إذن! بالطبع ، كان عليّ أن أقدم تنازلا صغيرا ، القصة المألوفة . حسنا ، كيف حالك ، يا صغيري المسكين سن-سن؟» .

«لا بد أن أعترف أنني لم أتوقع قدومك» قال سنسيناتوس . «اجلسي في مكان ما» .

«لقد حاولت بالأمس ، لم يحالفني الحظ ، واليوم قلت لنفسي ، سآتي حتى لو كان ذلك آخر شيء أفعله . لقد أبقاني مديرك معه لساعة . وبالمناسبة لقد أشاد بك كثيرا في حديثه . أوه ، كم كنت مستعجلة اليوم ، وكم خشيت أن يفوتني الوقت . ويا له من تجمهر هناك في ميدان الإثارة صباح هذا اليوم!» .

«لماذا ألغوه؟» سأل سنسيناتوس .

«حسنا ، لقد قالوا أن الجميع متعب ولم يحصل على قسط

كاف من النوم . هل تعرف ، لم يشأ الحشد أن يغادر هكذا . يجب أن تكون فخورا بهذا» .

تساقطت دموع كبيرة صقيلة على نحو رائع على خدي مارثا وذقنها ، وانسابت بعناية على ملامح وجهها ، حتى إن احداها جرت أسفل عنقها حتى نقرة ترقوتها . . . عيناها ، على أية حال ظلت تحدق باستدارتها كما هي ، وظلت أصابعها القصيرة ببقعها البيضاء على أظافرها منبسطة ، واستمرت شفتاها الرقيقتان المتحركتان تنبسان بالكلمات :

«هناك من يصرّ أنه قد تم تأجليه الآن لفترة طويلة من الزمن ، لكنك لا تستطيع حقا أن تتأكد من كلام أي شخص . لا تستطيع أن تتصور كل تلك الشائعات ، وكل ذلك الالتباس . . .»

«لماذا تبكين؟» سأل سنسيناتوس وهو يبتسم .

«أنا لا أعرف نفسي -أنا متعبة فقط . . .» (وبصوت صدريّ خفيض) : «أنا مريضة ومتعبة منك . سنسيناتوس ، سنسيناتوس ، أي ورطة أوقعت فيها نفسك! . الأمور التي يقولها الناس عنك ؛ مروعة! أوه ، اسمع» بدأت تتكلم فجأة بوتيرة مختلفة ، وهي تبتسم بابتهاج ، وتمس شفتيها برفق وتزين من نفسها . «ذلك اليوم -متى كان؟- أجل ، أول أمس ، أتتني سيدة ضئيلة ، امرأة طبيبة أو شيء من هذا القبيل ، شخص غريب تماما ، اعذرني لكنها كانت ترتدي معطفا مطريا فظيعا وبدأت في الهذر والثرثرة . 'بالطبع' قالت 'لقد فهمت' . فقلت لها 'لا ، حتى الآن لم أفهم شيئا' . فقالت لي 'أوه ، أنا أعرف من أنت ، أنت لا تعرفينني' . . .قلتُ لها . . .» (وافتعلت مارثا وهي تحاكي محدثتها نبرة منمقة وخرقاء ، وهي تتباطأ في كلامها عن عمد ، كلما أتت بحديث الأخرى المديد بعد

لفظة «قالت» أما عندما كانت تحكي كلامها فقد كانت تصور نفسها على أنها هادئة كالثلج) . «وباختصار ، حاولت أن تخبرني أنها أمك ، على الرغم من أنني أعتقد أن عمرها لا يتناسب مع ذلك ، لكن دعنا نتغاضى عن الأمر . قالت أنها خائفة جدا من التعذيب لأنه كما تعلم قد قاموا باستجوابها واخضاعها لجميع أنواع الأشياء . قلت لها : 'ما الذي عليّ فعله مع كل هذا ولماذا أردت رؤيتي؟' فقالت : 'أوه ، أعرف أنك لطيفة إلى أقصى حد ، وأنك ستفعلين كل ما في استطاعتك' . قلت لها : 'ما الذي يجعلك تعتقدين أنني لطيفة؟' فقالت : 'أوه ، أنا أعرف' وطلبت مني ما إذا كنت أستطيع أن أعطيها ورقة ، شهادة ما ، وأوقعها بيدي تنص على أنها لم تأتي قط إلى منزلنا وأنها لم ترك أبدًا . . .هذا ، كما تعرف ، بدا مضحكا للغاية لمارثا ، مضحكا للغاية! «أعتقد» (قالتها بصوت متشدق منخفض جدا) «أنها لا بد مخبولة أو مجنونة ، ألا تظن ذلك؟ على أي حال ، فأنا بالطبع لم أعطها شيئا . قال فيكتور والآخرون أن ذلك قد يعرضني للخطر ، لأنه سيبدو أنني أعرف كل تحركاتك ، إن لم أكن أعلم أنك تعرفها حتى ، وهكذا غادرتْ - كنتُ لأقول- وهي حزينة جدًا» .

«لكنها حقا أمي» قال سنسيناتوس .

«ربما ، ربما . في النهاية ، الأمر ليس مهما جدا . ولكن قل لي ، لماذا تبدو كئيبا متجهما يا سن سن؟ لقد تصورت أنك ستكون سعيدا جدا لرؤيتي ، لكنك . . .»

ألقت نظرة على السرير ، ثم على الباب .

«لا أعرف ما هي القواعد المتبعة هنا» قالت وهي تنهج «لكنك إن كنت تريدني بشدة ، سن سن ، لك ذلك ، فقط افعلها سريعا» .

«أوه ، كلا ، ما هذا الهراء» قال سنسيناتوس .

«حسنا ، كما تريد . فقط أردتُ أن أمنحك هدية لأنه اللقاء الأخير وما إلى ذلك . أوه ، بالمناسبة ، هل تعرف من يريد الزواج مني؟ خمّن من هو ، لن تخمنه أبدا . هل تتذكر ذلك العجوز المتذمّر الذي يعيش في البيت المجاور لنا ، والذي كان ينفث دخانه الكريه من غليونه عبر السياج واعتاد دائما التلصص عليّ عندما أتسلق شجرة التفاح؟ هل تتصور ذلك؟ والمدهش هو أنه جاد تماما! هل يمكنك أن تتخيلني أتزوج منه ، هذه الفزاعة العجوز؟ «تبًا!» على أية حال أشعر بأنه الوقت المناسب لأحظى براحة طيبة طويلة ، أنت تعرف ، أغلق عيني ، أتمدد ، لا أفكر بأي شيء ، وأسترخي ، لوحدي تماما وإلا مع شخص ما يهتم بي حقا ، ويفهم كل شيء ، كل شيء . . .»

طرفت رموشها القصيرة الغليظة مرة أخرى ، وانسابت الدموع لتزور كل نقرة على خديها بلون التفاح الورديّ .

أخذ سنسيناتوس أحد هذه الدموع وتذوقها ، لم تكن مالحة ولا حلوة ، كانت مجرد قطرة من الماء الفاتر . سنسيناتوس لم يفعل هذا .

فجأة صرّ الباب وانفتح بمقدار انش ؛ وأومأ اصبع ذو زغب أحمر نحو مارثا . ذهبت بسرعة نحو الباب .

«حسنا ، ماذا تريد ، لم ينتهِ الوقت بعد ، أليس كذلك ، لقد وُعدت بساعة كاملة» همست بسرعة . قيل شيء ما ردا على ذلك .

«محال البتة!» قالت بسخط . «يمكنك أن تقول له ذلك . الاتفاق كان أن أفعله فقط مع المدير . . . .»

تمت مقاطعتها ؛ وأصغت بعناية إلى الغمغمة الملحة ؛ نظرت لأسفل ، مقطبة ، وهي تفرك الأرضية بطرف نعلها .

«حسنا ، لا بأس» قالت مبادرة ، وبمرح برئ التفتت نحو زوجها : «سأعود في غضون خمس دقائق يا سن سن» .

(وعندما ذهبت أدرك أنه لم يشرع في حديثه العاجل معها وحسب ، بل أنه لم يعد يستطيع حتى أن يصيغ هذه الأمور المهمة . . .في ذات الوقت آلمه قلبه ، وأنّت نفس الذكرى القديمة في احدى الزوايا ، لكن حان الوقت ، لقد حان الوقت كي يفطم نفسه من كل هذا العذاب) .

لم تعد إلا لما مضت ثلاثة أرباع الساعة وهي تنخر بازدراء . وضعت قدما على الكرسي ، وقطعت رباط الجورب ، وعدلت بغضب الطيات تحت خصرها ، وجلست إلى الطاولة ، بالضبط حيث جلست من قبل .

«كل هذا من أجل لا شيء» قالت بصوت نخير ساخر وبدأت تداعب بأناملها الأزهار الزرقاء على الطاولة . «حسنا ، لماذا لا تقول لي شيئا ما ، يا صغيري سن سن ، يا فَرُّوجي؟ . . .هل تعرف أنني التقطتهم بنفسي ، لم آخذ أزهار الخشاش ، ولكن هذه الزهور جميلة . لا ينبغي عليك أن تحاول وأنت لا تستطيع تولي الأمر» أضافت على نحو غير متوقع بنبرة مختلفة من الصوت وهي تضيّق عينيها . «كلا ، يا سن سن ، لم أكن أتحدث إليك» (تنهدت) «حسنا ، قل لي شيئا ، سليني» .

«رسالتي ، هل . . .» بدأ سنسيناتوس الحديث ثم نظف حنجرته . «هل قرأت رسالتي بعناية؟»

«أرجوك ، أرجوك» تباكت مارثا وهي تمسك صدغيها «لنتكلم عن أي شيء سوى تلك الرسالة!»

«كلا ، لنتحدث عنها» قال سنسيناتوس .

قفزت للأرض ثم عدّلت فستانها بتشنج وبدأت تتحدث على نحو مفكك ، وهي تلثغ قليلا كما كانت تفعل عندما تكون غاضبة . «لقد كانت رسالة فظيعة ، نوعا من الهذيان ، لم أفهمها ، على أية حال ، يظن المرء أنك تجلس هنا لوحدك مع الكتابة وقنينة الشراب . لم أكن أريد التحدث عن تلك الرسالة ، لكن بما أنك . . . اسمع ، هل تعرف أن المراسلين قرأوها ، لقد استنسخوها ، وقالوا لأنفسهم 'اوهو! لا بد أنها متواطئة معه إذا كان يكتب لها بهذا الشكل' . ألا تفهم ، أنا لا أريد أن أعرف أي شيء عن أمورك ، ليس لك الحق أن ترسل لي مثل هذه الرسائل ، أن تجرني إلى جريمتك الـ . . .»

«لم أكتب لك أي شيء اجراميّ» قال سنسيناتوس .

«هذا ما تعتقده أنت ، لكن الجميع ذُعر من رسالتك ، لقد ذعروا حقًا! عنيّ ، أنا غبية ربما ، ولا أعرف أي شيء عن القوانين ، مع ذلك فغريزتي تخبرني بأن كل كلمة منك مستحيلة ولا يصح ذكرها . . . أوه ، يا سنسيناتوس ، أي وضع وضعتني فيه - والأطفال- فكّر في الأطفال . . .اسمع ، أرجوك اسمعني لدقيقة فقط . . .» مضت في كلامها بحماسة حتى أن خطابها أصبح غير مفهوم تماما «أنكر كل شيء ، كل شيء . قل لهم أنك بريء ، وأنك لم تكن إلا تتبجح ، أخبرهم ، تُب ، قم بذلك -حتى لو لم ينقذ ذلك رأسك ، فكّر بي- فهم يشيرون الآن بأصابعهم نحوي يقولون «إنها هي ، الأرملة ، إنها هي!» .

«مهلا ، يا مارثا ، أنا لا أفهم . أتوب عن ماذا؟»

«حسنٌ! ورطني في الأمر ، اطلب مني النصيحة . . .لو كنت أعرف كل الأجوبة ، عجبي ، سأكون شريرة . . .شريكتك! هذا

واضح تماما . كلا ، كفى ، كفى . أنا خائفة جدا من كل هذا . . .أخبرني للمرة الأخيرة ، هل أنت متأكد من أنك لا تريد التوبة ، من أجلي ، من أجلنا جميعًا؟»

«وداعا ، يا مارثا» قال سنسيناتوس .

جلست واستغرقت في أفكارها ، وهي تستند على مرفقها الأيمن ، وترسم عالمها على الطاولة بيدها اليسرى .

«كم هو فظيع ، كم هو كئيب» قالت وهي تأخذ نفسا عميقا متحسرًا . عبست ورسمت نهرا بظفرها . «ظننت أننا سنلتقي على نحو مختلف تماما . كنت مستعدة لأن أعطيك كل شيء . وهذا ما تلقيته مقابل جهودي! حسنا ، قُضي الأمر» (تدفق النهر في البحر -هناك خارجا ، على حافة الطاولة) «هل تعرف ، سأغادر بقلب مثقل . أجل ، ولكن كيف سأخرج؟» تذكرت فجأة ببراءة وبمرح حتى . «لن يأتوا من أجلي لفترة من الوقت ، لقد تحدثت معهم ليمنحوني فترة طويلة جدا من الزمن» .

«لا تقلقي» قال سنسيناتوس «كل كلمة نقولها . . . سيفتحونه الآن» .

لم يكن مخطئا .

«وداعا ، وداعا» غردت مارثا . «مهلا ، توقف عن مضايقتي ، دعني أودع زوجي . وداعا . إن احتجت إلى أي شيء بشأن القمصان أو أي شيء . . . أوه أجل ، طلب مني الأطفال أن أمنحك قبلة كبيرة ، كبيرة جدا . هناك شيء آخر . . .أوه ، كدت أنسى ، لقد أخذ بابا كأس النبيذ الذي أهديتك إياه ، لقد قال أنك وعدته . . .»

«اسرعي ، اسرعي ، أيتها السيدة الصغيرة» قاطعها روديون وهو يجرها على النحو المعتاد تجاه الباب .

الفصل التاسع عشر

صباح اليوم التالي أحضروا له الصحف ، وهذا ما ذكّره بالأيام الأولى لحبسه . انتبه على الفور للصورة الملونة : تحت سماء زرقاء ، كان الميدان مزدحما للغاية بحشد متعدد الألوان لدرجة أنه لم يظهر من المنصة الحمراء سوى حافتها . كانت نصف السطور في العمود الصحفي عن الإعدام مشطوبة ، ومما تبقى منه لم يستطع سنسيناتوس أن يستخلص سوى ما كان يعرفه بالفعل عبر مارثا ، أن المايسترو لم يكن يشعر أنه على ما يرام ، وأن التنفيذ قد تم تأجيله ، ومن المرجح لفترة طويلة أيضًا .

«أي هدية حصلت عليها اليوم» قال روديون ، مخاطبا ليس سنسيناتوس بل العنكبوت .

بكلتا يديه ، وبعناية فائقة ، لكن في نفس الوقت على نحو مغث (العناية دفعته ليضغطه على صدره ، والغثيان جعله يبعده عنه) حمل منشفة ملفوفة على بعضها بشكل كتلة تحتوي شيء ما كبيرا يتحرك ويخشخش .

«أمسكت به عند نافذة زجاجية في البرج . هذا الوحش! انظر كيف يخفق ويرفرف ؛ بالكاد تستطيع الاحتفاظ به . . .»

كان على وشك سحب الكرسي كما يفعل دائما من أجل أن يقف عليه ويقدم الضحية للعنكبوت المفترس في بيته المصمت (كان الوحش قد نفخ نفسه بالفعل ، وهو يحسّ بالفريسة) عندما حدث شيء ما خاطئ ، فقد صادف وأن أطلقت أصابعه الخشنة

المتوترة الطية الرئيسية للمنشفة ، وعلى الفور صرخ بقوة وارتبك خوفا كما تصرخ الناس وترتبك خوفا ليس من خفاش بل من فأر منزل عادي يثير الرعب والاشمئزاز . شيء ما كبير وأسود ومزود بالمجسات ، حرر نفسه من المنشفة ، أطلق روديون صرخة عالية وهو يتخبط في مكان واحد ، خائفا من أن يترك الشيء يهرب لكنه لم يجرؤ أيضا على امساكه . سقطت المنشفة ، والتصق الأسير فاتح اللون بكُمّ روديون ، وتشبث به بكل أقدامه الستة اللاصقة .

لقد كانت مجرد عثة ، ولكن أي عثة! كانت كبيرة كيد رجل ، ولديها أجنحة سميكة بنية غامقة ببطانة زغبية وحواف رمادية مغبرة ؛ كل جناح مزين في وسطه بشكل عين كان تلمع مثل الفولاذ .

كانت أطرافها المجزأة ، بحركاتها العشوائية الرقيقة تلتصق تارة ، وتطلق نفسها تارة أخرى ، وريشات أجنحتها المنبسطة ، التي تظهر تحتها نفس البقع المحدّقة والأشكال الرمادية المتموجة ، كانت العثة تتذبذب ببطء ، وهي تتلمس طريقها ، وتزحف أعلى الكم بينما روديون الذي تجمد من الذعر ، كان يدير عينيه ، وهو يرمي ويمد ذراعه بعيدا ويصرخ «انزعوها عني! انزعوها عني!»

وعندما وصلت إلى مرفقه ، بدأت العثة برفرفة جناحيها الثقيلين دون صوت ؛ يبدو أنها توازن جسدها ، وعند مفصل كوع روديون ، انقلب الكائن ، وتدلت أجنحته نحو الأسفل ، وهي لا تزال تتشبث بإحكام بالكمّ ؛ والآن يمكن للمرء رؤية بطنها البني المنقط بالأبيض ، ووجهها السنجابي ، وكريات عيونها الصغيرة السوداء وقرون استشعارها الزغبية التي تشبه آذانا حادة .

«أبعدها!» توسل روديون ، وبسببه وبسبب حركاته المحمومة

سقطت الحشرة الرائعة ، وضربت الطاولة وتوقفت قليلا برفرفتها العظيمة وفجأة أقلعت من حافتها .

لكن بالنسبة لي نهارك مظلم ، لماذا أزعجتني في قيلولتي؟ لم يستمر طيرانها الثقيل المتعثر سوى وقت قصير . التقط روديون المنشفة ، وأرجحها بعنف ، وحاول أن يسقط الطيارة العمياء ، لكنها اختفت فجأة وكأن الهواء ابتلعها .

بحث روديون عنها لفترة ، لكنه لم يجدها ، وتوقف في وسط الزنزانة ، وهو يلتفت نحو سنسيناتوس وذراعاه على خصره . إيه؟ «يا لها من حقيرة!» هتف بعد صمت معبّر . بصق ، وهز رأسه وسحب علبة ثقاب تهتز بذبابات اضافية ينبغي على الحيوان الذي خاب أمله أن يرضى بها . أما سنسيناتوس فقد رأى بوضوح أين استقرت العثة .

وعندما غادر روديون أخيرا وهو يخلع لحيته بنزق مع شعره المستعار الأشعث ، مشى سنسيناتوس من السرير إلى الطاولة . شعر بالأسف لأنه أعاد جميع الكتب ، وجلس يكتب لتمضية الوقت .

«لقد تم ترتيب كل شيء» كتب «أعني ، أن كل شيء خدعني -جميع هذه الأمور المسرحية المثيرة للشفقة- وعود المقصلة الخاطفة ، نظرة الأم اللزجة ، القرع على الحائط ، صداقة الجار ، وأخيرا ، هذه التلال التي انبثقت في اندفاع مميت . خدعتني جميع الأشياء كما تم ترتيبها لذلك ، جميع الأشياء . هذا هو الطريق المسدود لهذه الحياة ، وينبغي علي ألا أبحث عن نجاة داخل حدودها . من الغريب أن أبحث عن النجاة . تماما مثل رجل يحزن لأنه قد فقد مؤخرا في أحلامه شيئا لم يملكه قط في الواقع ، أو أن يأمل بأنه سيحلم في الغد أنه يجده مرة أخرى . هكذا كيف

خلقت الرياضيات ، فلديها عيبها القاتل . وأنا اكتشفته . لقد اكتشفت الصدع الصغير في الحياة ، حيث تنتهي هناك لتلتحم مباشرة بشيء ما آخر ، شيء حيّ حقا ، مهم وشاسع ، كم هي كبيرة أوصافي كما ينبغي أن تكون من أجل أن أملئها بالحس البلوريّ . . .من الأفضل ألا أذكر بعض الأمور ، وإلا فإنني سأرتبك مجددا . داخل هذا الصدع الصغير المتعذر اصلاحه يستقر التفسخ- آه ، ظننت أني سأكون الآن قادرا على التعبير عنه بشكل كامل- الأحلام ، الالتحام ، التفسخ- كلا ، أنا مجددا خارج المسار- كل ما عندي من أفضل الكلمات جنود هاربون ولا يستجيبون لنداء النفير ، والبقية مقعدون . أوه ، لو كنت أعرف فقط أنني سأبقى هنا لفترة طويلة ، لكنت سأبدأ من البداية وتدريجيا ، على امتداد طريق سريع من الأفكار المترابطة منطقيًا ، لوصلت واكتملت ، وكانت روحي لتُحيط نفسها ببِنية من الكلمات . . .كل شيء كتبته هنا حتى الآن ما هو إلا زبد انفعالي ، هيجان تافه ، للسبب ذاته الذي يجعلني في عجلة من أمري . لكني الآن ، بينما أنا قوي ، بينما أنا بالكاد خائف من . . .»

هنا انتهت الصفحة وأدرك سنسيناتوس أن الورق نفذ منه . ومع ذلك تمكن من العثور على ورقة أخرى .

« . . . الموت» كتب عليها ، منهيا جملته ، لكنه شطب على الفور هذه الكلمة ؛ لا بد عليه أن يقولها بطريقة مختلفة ، بدقة أكبر : «الإعدام» ربما «الألم» أو «الرحيل» ؛ شيء من هذا القبيل ؛ وهو يبرم القلم القزم بين أصابعه ، توقف للتفكير ، لتسقط زغبة بنية صغيرة على حافة الطاولة حيث كانت ترفرف العثة منذ مدة قصيرة فقط ، وهو يتذكرها ، ابتعد سنسيناتوس عن الطاولة ، تاركا عليها

الورقة البيضاء التي تحتوي على كلمة وحيدة فقط ، وهذه الأخيرة مشطوبة ، وانحنى (متظاهرا أنه يصلح من نعليه) على السرير ، حيث استقرت على قدمه المعدنية قرب الأرضية تماما ، نائمة ، وأجنحتها الخيالية منبسطة في سباتٍ جليل منيع ، فقط كان يشعر بالأسف من أجل ظهرها الزغبي حيثُ انتزعت الزغبة تاركة بقعة جرداء ، تلمع مثل الكستناء -لكن الأجنحة السوداء الكبيرة ، بحوافها شاحبة اللون وعيونها المفتوحة على الدوام ، كانت منيعة- بينما كانت الأجنحة الأمامية وهي تنخفض قليلا تلتف على تلك الخلفيتين ، وهذه الوضعية المنحنية ، لربما كانت احدى نقاط ضعف الخدر ، إن لم يكن الاستواء المتجانس للهوامش العليا والتناظر الكامل لكل الخطوط المتباينة- وقد كان هذا فاتنا للغاية لدرجة أن سنسيناتوس ، عاجزا عن تمالك نفسه ، داعب بطرف اصبعه الطرف الزغبي قرب أساس الجناح الأيمن ، ثم طرف الجناح الأيسر (يا لها من متانة لطيفة! ويا لها من رقة قاسية!) أما العثة[1] وهي تتنهد

---

(١) جدير بالذكر لفائدة القارئ المطلع : «يُشْهَد لفلاديمير نابوكوف بتأثيره في الأدبين . . الروسي والإنجليزي . ويَعرِف كثيرون كذلك شغف هذا الروائي الدائم بالفراشات ، لكن إسهاماته البارزة في علم حرشفيات الأجنحة ، وفي علم الأحياء العام لم تكن معروفة بصورة كبيرة حتى وقت قريب . لم يكن نابوكوف عالِم حشرات هاوِيًا . لقد كان لست سنوات يعتني بمجموعة الفراشات في متحف علم الحيوان المقارن بجامعة هارفارد في كمبريدج في ماساتشوستس ، ونشر العديد من الأوراق العلمية ـ التي ما تزال مهمة حتى الآن ـ في علم التصنيف (العلم المهتم بوصف وتصنيف الكائنات الحية) . وقد مَهَّدَتْ ملاحظاته حول الشكل الظاهري للفراشات لبحوث مهمة في =

قليلا ، لم تستيقظ ، وانتصب سنسيناتوس ، وتنهد قليلا ، وتحرك بعيدا ، كان على وشك أن يجلس على الطاولة مجددا عندما شق المفتاح طريقه إلى القفل وفتح الباب ، وهو يطنّ ، ويصرّ ويئن تماشيا مع كل قواعد موسيقى إيقاع السجن . أدخل مسيو بيير المتورد ، وهو يرتدي زي الصيد باللون الأخضر الفاتح ، رأسه أولا من ثم دخل بكامل جسده ، وخلفه تبعه اثنين آخران ، بالكاد تستطيع معرفة أنهما المدير والمحامي : منهكين ، شاحبين ، كلاهما كان يرتدي قمصانا رمادية خشنة ونعلين رثين ، من دون أي مساحيق تجميل ، دون حشو مبطن ، دون شعر مستعار ، بعيون رطبة ، وأجساد هزيلة حتى أن المرء يستطيع أن ينظر عبر الضلوع البارزة ، وتبين أنهما يشبهان بعضهما البعض ، وكان رأسهما المتطابقان يتحركان بشكل مماثل فوق عنقيهما الرفيعان ، رؤوس شاحبة صلعاء كثيرة النتوء ، بنقطٍ زرقاء على الجوانب وآذان بارزة .

انحنى مسيو بيير المتضرج بالحمرة على نحو جذاب وهو يضم طرفي أحذيته الجلدية الطويلة ، ويقول بصوت مضحك عالٍ للغاية :

«العربة تنتظر ، إذا تفضلت ، يا سيدي» .

«إلى أين سنذهب؟» . سأل سنسيناتوس في حالة عدم فهم

= علم الأحياء التطورية ، وتم تأكيد الكثير من فرضياته المتعلقة بالجغرافيا الحيوية في السنوات القليلة الماضية . ويوضح كتاب «خطوط دقيقة» Fine Lines (جمع وتحرير : ستيفن بلاكويل ، وكيرت جونسون) أهمية أعمال نابوكوف العلمية ، ويتتبع أثرها في رواياته» . مجلة نيتشر عدد شهر ماي ٢٠١٦ . المترجم .

حقيقية أول الأمر ، لأنه كان مقتنعا جدا أن هذا سيحدث عند الفجر .

«إلى أين ، إلى أين . . .» حاكاه مسيو بيير بسخرية . «أنت تعرف إلى أين . للخارج هناك كي نقوم بالقطع» .

«ولكن ليس علينا أن نذهب الآن بالذات ، أليس كذلك؟» . سأل سنسيناتوس وهو بذاته مستغرب مما قاله «لم أجهز نفسي تماما بعد . . .» (سنسيناتوس هل هذا أنت الذي يتكلم؟) .

«أجل ، الآن بالذات . يا إلهي! ، يا صديقي ، لقد كان لديك نحو ثلاثة أسابيع لتهيئ نفسك . وسيفكر المرء أن هذا كاف . هؤلاء هم مساعديّ ، رود وروم ، رجاءً كن لطيفا معهما . قد يبدوان لك رجلين سقيمين ، لكنهما مجتهدين في العمل» .

«سنبذل قصارى جهدنا» دندن الرجلان .

«لقد كدت أنسى» تابع مسيو بيير . «وفقا للقانون لا يزال يحق لك . . .رومان ، أيها الولد ، هل لك أن تسلمني القائمة؟»

استخرج رومان وهو يسرع على نحو مبالغ فيه من تحت بطانة قبعته بطاقة مؤطرة بالأسود ، مطوية على اثنين ؛ وبينما هو يستخرجها ، استمر رودريغ بالنقر آليا على جوانبه ، وبدا أنه يبحث في جيوب صدره ، دون أن يأخذ عيناه البلهاء عن رفيقه .

«توخيًا للبساطة ،» قال مسيو بيير «إليك قائمة معدة سلفًا للأمنيات الأخيرة . بإمكانك اختيار واحدة لا غير . سأقرأها بصوت عالٍ . ها هي ذا : كأس من النبيذ ؛ أو زيارة قصيرة للمرحاض ، أو تفحص سريع لمجموعة السجن من البطاقات البريدية الفرنسية ؛ أو . . .ما هذا . . .رقم أربعة ، تأليف خطاب للمدير يعرب فيه عن . . . يعرب فيه عن امتنانه لعنايته . . . حسنا ، محال! رودريغ ، أيها

الوغد ، لقد أضفت هذا من عندك . لا أفهم ، كيف تجرأت . هذه وثيقة رسمية! عجبًا ، هذه اهانة شخصية خصوصا وأنا شديد التَّدقيق فيما يتعلق بالقوانين ، بينما أحاول جاهدًا . . .» .

في نوبة غضبه رمى مسيو بيير البطاقة على الأرض ؛ وعلى الفور التقطها رودريغ ، ومهدها ، مغمغما وهو يشعر بالذنب «لا تقلق . . . لم أفعلها أنا ، لقد فعلتها رومكا . . . أنا أعرف القواعد . كل شيء مرتب هنا . . . جميع رغبات هذا اليوم . . وما إليه في البطاقة . . .»

«هذا فظيع! لا يحتمل!» صرخ مسيو بيير وهو يخطو جيئة وذهابا في الزنزانة . «لستُ على مـــا يرام ورغم ذلك أنا أؤدي واجباتي . لقد قدموا لي سمكا فاسدا ، وعرضوا عليّ عاهرة مقرفة ، وعاملوني بقلة احترام لا نظير لها ، وبعد كل هذا ينتظرون مني عملا نظيفا . لا يا سيدي! كفى! لقد شربت كأس المعاناة المرير حتى آخر قطرة! أنا أرفض ببساطة ، قوموا بذلك بأنفسكم ، اقطعوا ، اذبحوا بأفضل ما تستطيعون ، حطموا آلتي . . .»

«الجمهور يعبدك» قال رومان المتملق . «نتوسل إليك ، اهدأ يا مايسترو . إن كان هناك شيء غير مضبوط ، فما هو إلا سهو ، خطأ أحمق ، خطأ أحمق مبالغ فيه ، ليس إلا! لذلك رجاءً سامحنا . ألن يدع ظريف النساء ، محبوب الجميع ، هذا التعبير الغاضب جانبا ليبتسم تلك الابتسامة التي تعود منحها لإلهاء . . .»

«هذا يكفي ، هذا يكفي ، أيها المتحدث البارع» قال مسيو بيير وهو يهدأ قليلا . «على أية حال أنا أؤدي واجبي بضمير أكثر من الآخرين الذين يمكن أن أسميهم . حسنا ، لقد صفحتُ عنك . لكن لا زال علينا اتخاذ قرار بشأن هذه الرغبة اللعينة الأخيرة .

حسنا ، ماذا اخترتَ؟» سأل سنسيناتوس (الذي كان يجلس بهدوء على السرير) . «هيا ، هيا يا رجل! أريد أن أنتهي من الموضوع ، وسريع الغثيان ليس عليه أنه ينظر» .

«أن أنهي كتابة شيء ما» همس سنسيناتوس بنصف استفهام ، لكنه عبس بعدئذ وشد زمام أفكاره وفجأة أدرك أن كل شيء ، فيّ الواقع ، قد كُتب بالفعل .

«أنا لا أفهم ما يقوله» قال مسيو بيير . «ربما يفهمه شخص ما ، لكنني لم أفهم» .

رفع سنسيناتوس رأسه . «إليك ما أرغب به» تحدث بوضوح «أطلب ثلاث دقائق ، انصرفوا عني لهذه المدة أو على الأقل ابقوا هادئين ، أجل ، فترة استراحة لثلاث دقائق ، بعد ذلك ، فليكن ، سأتصرف حتى النهاية حسب دوري في مسرحيتكم الحمقاء» .

«دعنا نتفق على دقيقتين ونصف» قال مسيو بيير وهو يخرج ساعته السميكة . «تنازل عن نصف دقيقة ، تستطيع ذلك ، يا صديق؟ ستفعل ، صحيح؟ حسنا ، فلتكن لصًا إذًا ؛ أوافق على الأمر»

استند إلى الجدار في وقفة مريحة ، وقلده رومان ورودريغ ، لكن قدم رودريغ التوت تحته وكاد يسقط وهو يلقي نظرة مذعورة على المايسترو .

«اهدأ ، يا بن العاهرة» همس مسيو بيير . «على كل حال ، لماذا تتخذان وضعية مريحة؟ أخرجوا أيديكم من جيوبكم! انتبها!» (جلس على الكرسي وهو يستمر بالتذمر) . «يا رود ، لدي مهمة لك ، يمكنك أن تبدأ التنظيف شيئا فشيئا هنا ؛ فقط لا تصدر الكثير من الضجة» .

سُلمت مكنسة لرودريغ عبر الباب وشرع في العمل .

في البداية ، أسقط بطرف المكنسة الحاجز المشبك للنافذة المجوفة برمته ؛ لتصل صيحة «مرحى» بعيدة وضعيفة كما لو أنها قادمة من الجحيم ، وتدخل هبّة نسيم من الهواء النقي للزنزانة ، وتتطاير الأوراق من على الطاولة ، ليجرها رودريغ بقدميه نحو احدى الزوايا . بعدئذ ، أسقط روديون بالمكنسة شبكة العنكبوت الرمادية السميكة ومعها العنكبوت ، الذي كان يُعامل بعناية ورفق من قبل . بعد فترة طويلة من الزمن التقط رومان العنكبوت . على نحو خشن لكن متقن ، كان يتكون من جسد مستدير فاره ، وسيقان مرتجفة مؤلفة من نوابض ، وكان يتصل بمنتصف ظهره ، شريطٌ مرن طويل كان رومان يمسكه من طرفه ليتدلى وهو يحرك رأسه لأعلى وأسفل وهكذا كان الشريط المرن ينقبض وينبسط بالتناوب والعنكبوت يرتفع وينخفض . ألقى مسيو بيير نظرة جانبية باردة على اللعبة ، عندما رفع رومان حاجبيه وبسرعة أدخلها لجيبه . في نفس الوقت كان رود يحاول أن يسحب درج الطاولة ، سحبه بكل قوته ، وزحزحه لتنقسم الطاولة إلى جزئين . في ذات الوقت أطلق الكرسي الذي يجلس عليه مسيو بيير صوتا حزينا ، وتداعى شيء ما ، وكاد مسيو بيير أن يسقط ساعته . بدأ الجص يتساقط من السقف . وتشكل صدع متعرّج عبر الجدار . لم يعد هناك حاجة بالزنزانة فقد كان من الواضح تماما أنها تتفتت .

« . . . ثمانية وخمسون ، تسع وخمسون ، ستون» عدّ مسيو بيير . «انتهى . قف ، من فضلك . إنه يوم جميل ، ستكون الرحلة أمتع ما يكون ، أي شخص في مكانك كان سيستعجل لكي يذهب» .

«أمهلني لحظة أخرى فقط . أجد أنه من السخيف والمشين أن يداي ترتعشان هكذا ؛ لكنني لا أستطيع ايقافها أو اخفائها ، أجل ، إنهما ترتعشان وهذا كل شيء . أوراقي ستتلفونها ، وإلى القمامة ستكنسونها ، والعثة ستطير بعيدا في الليل عبر النافذة المحطمة ، وهكذا لن يبقى مني شيء داخل هذه الجدران الأربعة التي هي على وشك الانهيار بالفعل . لكن الهباء والنسيان لا يمثلان لي شيئا الآن ؛ لا أشعر إلا بشعور واحد ؛ الخوف ، الخوف ، الخزي ، خوف عقيم . . .» في الحقيقة لم يقل سنسيناتوس كل هذا ؛ بل كان يغيّر أحذيته بصمت . انتفخ الوريد على جبهته ، وسقطت عليها خصلات شعره الأشقر ، وكان قميصه يحتوي على ياقة مطرزة مفتوحة على اتساعها ، كشفت عن طبيعة فتية غير عادية لعنقه ووجهه المتورد بشاربه الأشقر المهتز .

«لنذهب!» زعق مسيو بيير .

وضع سنسيناتوس قدميه وهو يحاول ألا يمسّ أحدا أو شيئا ، كما لو أنه يمشي على منحدر جليدي مكشوف ، وأخيرا وجد طريقه للخروج من الزنزانة ، التي لم تعد موجودة ، في الحقيقة ، هناك .

مكتبة

t.me/ktabpdf

الفصل العشرون

اقتيد سنسيناتوس عبر ممرات حجرية . تارة في الأمام ، وتارة في الخلف ، اندفع صدى صوت ليشتت الذهن ، جميع جحوره كانت تنهار . في الغالب كانت هناك مسافات مظلمة لأن المصابيح احترقت . طلب مسيو بيير أن يسيروا على مراحل .

والآن انضم إليهم عدة جنود يرتدون أقنعة الكلاب حسب التنظيم ، بعدئذ تقدم رودريغ ورومان بإذن من السيد نحو الأمام ، بخطوات واسعة مبتهجة وهما يؤرجحان ذراعيهما على نحو جديّ ويحاولان تجاوز بعضهما البعض . وهما يصيحان اختفيا عند احدى الزوايا .

أما سنسيناتوس الذي للأسف فقد فجأة القدرة على المشي ، فقد كان يسنده المسيو بيير وجندي آخر بوجه كلب بورزوي[١] . لفترة طويلة جدا تسلقا السلالم بجهد صعودا وهبوطا ، لا بد أن القلعة أصيبت بسكتة خفيفة لأن درجات السلم النازلة كانت في الحقيقة صاعدة والعكس صحيح . ومرة أخرى مضوا في ممرات طويلة ، لكنها كانت مأهولة أكثر ؛ أعني أنهم قد لاحظوا بوضوح – سواء عبر مُشمَّع الأرضيَّة أو ورق الجدران أو مَخْرَج المياه تجاه الجدار– أنهم قد حاذوا الأحياء السكنية . حتى أنهم عند احدى

---

(١) (حيوان) سَلُوقيٌّ روسيٌّ : سُلالَةُ كِلابٍ ضَخْمةٍ عدّاءَة تَصيدُ الذِّئابَ وغَيرَها . المترجم .

المنعطفات شموا رائحة حساء الكرنب . بعد ذلك مروا بجانب باب زجاجي مع لوحة منقوشة بكلمة «ffice» وبعد فترة أخرى من الظلام وجدوا أنفسهم على نحو مفاجئ في الساحة التي تنبض بالحياة مع شمس الظهيرة .

طوال هذه الرحلة برمتها كان سنسيناتوس مشغولا بمحاولة التأقلم مع خوفه الخانق ، المعذِّب ، القاسي . أدرك أن هذا الخوف كان يجره تحديدا إلى هذا المنطق الكاذب للأشياء التي كانت تنشأ تدريجيا من حوله ، لكنه من خلاله لا يزال قادرا على نحو ما أن يهرب هذا الصباح . الفكرة المحددة بأن هذا الصيّاد البدين ، أحمر الخدين كان سيقطعه ، كانت بالفعل نقطة ضعف كريهة ومرفوضة وتجر سنسيناتوس نحو نظام محفوف بالمخاطر بالنسبة له . إنه يفهم تماما كل هذا ، لكن مثل انسان عاجز عن مقاومة الجدال مع هلوسة ، على الرغم من أنه يعرف تماما أن الحفلة التنكرية برمتها تجري في دماغه فحسب ، حاول سنسيناتوس عبثا أن يتخلى عن الصراع مع خوفه ، على الرغم من ادراكه أن عليه أن يبتهج حقا عند الاستيقاظ الذي كان يبشر اقترابه بظواهر تكاد تُلحظ ، من الآثار الغريبة على الأغراض اليومية ، وتزعزع عام معين ، بخلل ما في كل العالم المادي المرئي ، لكن الشمس لا تزال واقعية ، والعالم لا يزال متماسكا ، والأشياء لا تزال مرئية في انسجام ظاهر .

كانت العربة تنتظر خارج البوابة الثالثة . لم يرافقهم الجنود أبعد من ذلك ، بل جلسوا على قطع الأخشاب المكدسة عند الجدار ، وبدأوا بخلع أقنعتهم القماشية . كانت عائلات موظفي السجن وحراسه تحتشد بخجل وجشع حول البوابة ، وكان الأطفال الحفاة يركضون ، محاولين أن يفهموا ما الذي يحدث وكانوا يعودون

على الفور لتُسكتهم أمهاتهم اللائي كن يرتدين الأوشحة على رؤوسهن ، كان الضوء الساخن يلون القش بلون ذهبيّ ، وكانت هناك رائحة نباتات القُرّاص الدافئة ، بينما كانت هناك عند احدى الجوانبِ دزينة إوز محتشدة ، تزدرد الطعام بتأنٍ .

«حسنا ، دعونا نذهب» قال مسيو بيير بمرح ووضع قبعته الخضراء الفاتحة المزينة بريشة تَدرُج على رأسه .

كانت هناك عربة قديمة بالية ، والتي صرّت بتذمر عندما ارتقى الناعم الضئيل مسيو بيير عتبتها ، مربوطة إلى فرس متهالك كستنائي اللون بأسنان مكشوفة ، وجروح تلمعُ من الذباب على أوراكه البارزة بوضوح ، كان كل شيء فيه هزيلا جدا وناتئ الضلوع لدرجة أن جذعه يبدو وكأنه محاط بمجموعة من الطارات . كان هناك شريط أحمر على عرفه . ضغط مسيو بيير نفسه أكثر كي يفسح المجال لسنسيناتوس وسأل ما إذا كانت الحقيبة الضخمة التي وضعت عند أقدامهم في طريقها . وأضاف «رجاءً ، يا رفيقي العزيز ، حاول ألا تضع قدمك عليها» صعد رودريغ ورومان إلى حجرة العربة . أما رودريغ ، الذي كان يلعب دور الحوذي ، فقد فرقعَ السوط الطويل ، حاول الفرس الذي كان عاجزا عن تحريك العربة على الفور ، أن ينطلق لكنه انخفض على كفليه . انبعث هتافٌ مضطرب وفي غير محله من الموظفين . وهو ينهض وينحني نحو الأمام ، جلد رودريغ أنف الفرس بالسوط ، وعندما تحركت العربة على نحو متشنج كاد يسقط إلى الوراء في حجرة العربة من الهزّة ، سحب اللجام بإحكام وصرخ «قِفْ!»

«مهلا ، مهلا» قال مسيو بيير بابتسامة ، وهو يمس ظهر رودريغ بيد بضة في قفاز أنيق .

التف الدرب الشاحب عدة مرات ، مع الغرابة الفاتنة الشريرة للمنظر حول قاعدة القلعة . عند بعض الأماكن كان الدربُ منحدرا تماما ، حينئذ كان رودريغ يلف بإحكام وبسرعة مقبض الكبح المكوّر . أما مسيو بيير الذي كانت يداه تستريحان على رأس البلدغ في عصاته ، فقد كان ينظر بابتهاج حوله إلى الأجراف الصخرية ، والمنحدرات الخضراء بينها ، ونباتات البرسيم والكروم ، وهبوب الغبار الأبيض ، وبينما كان يفعل ذلك كان يلقي بمحبة نظرته على هيئة سنسيناتوس الجانبية الذي كان لا يزال منغمسًا في صراعه الداخليّ . بينما كانت مساند ظهر الرجلين الهزيلتين الرماديتين المنحنيتين ، وهما يجلسان في حجرة العربة ، متطابقتين تمامًا . طقطقت حوافر الفرس على الدرب . وحلّقت ذبابات الخيلِ مثل الأقمار . وفي بعض الأحيان ، كانت العربة تتجاوز عابري سبيل مستعجلين (طبّاخ السجن على سبيل المثال مع زوجته) الذين كانوا يتوقفون ويغطون عيونهم عن الشمس والغبار ، من ثم يسيرون بعجلة . منعطف أخرى ليمتد الدرب باستقامة نحو الجسر ، بعد أن فصل نفسه من دوائر القلعة المتدرجة (التي كانت تنتصب على نحو بائس تماما ، وكان المنظر غير مرتب ، شيء ما أصبح مهلهلا ومتدليًا) .

«أنا آسف لأنني انفجرت غضبًا منذ حين» كان مسيو بيير يقول بلطف . «لا تغضب مني ، يا حَبُّوب . أنت ذاتك تعرف كم هو مؤلم أن ترى الآخرين مهملين بينما أنت تضع روحك كلها في العمل» .

قعقعت العربة وهي تعبر الجسر . أما خبر الاعدام فقد بدأ للتو فقط بالانتشار عبر المدينة . وركض أولاد يرتدون الأحمر والأزرق

خلف العربة . كان هناك رجل يدعيّ الجنون ، وهو عجوزٌ مسن من أصل يهودي كان يمارس لسنوات عديدة صيد أسماك لا موجودة في نهر بلا مياه ، يجمع متاعه ، وهو يهرع للانضمام إلى أول مجموعة من سكان المدينة تتجه نحو ميدان الإثارة .

« . . . ولكن ليس هناك أي معنى للحديث عن الأمر» كان مسيو بيير يقول . «الرجال الذين لديهم طبع مثلي مزاجيون لكنهم يتجاوزون ذلك سريعًا . بدلاً من ذلك فلنوجه اهتمامنا إلى تصرفات الجنس اللطيف» .

كانت هناك عدة فتيات ، حاسرات الرؤوس ، يتزاحمن ويصرخن وهن يشترين كل الزهور من بائعة زهور بدينة سمراء النهدين وتمكنت أجرأهن من رمي باقة ورد في العربة كادت أن تُسقط قبعة رومان من على رأسه . هز مسيو بيير أحد أصابعه .

أما الحصان فقد كان ينظر بعينيه الغائمتين بارتياب نحو الكلاب المنقطة والمستوية وهي تمد أجسادها بينما تتسابق عند حوافره وهي تتوجه نحو غَردن سْتريت ، كان الحشد قد وصل هناك بالفعل ، وضربت باقة أخرى العربة . والآن كانوا يستديرون نحو اليمين ، وهم يمرون على أنقاض هائلة لمصنع قديم ، ثم على طول تلغراف ستريت ، الذي كان يعجّ بالطنين والأنين والتزمير للآلات الموسيقية التي كانت تُضبط ، ثم عبر زقاق غير ممهد مفعم بالوشوشة ، ومروا على حديقة عامة حيث كان رجلان ملتحيان في ملابس مدنية ينهضان من على المقاعد عندما رأوا العربة ، وهما يومئان بشدة بدأ في الاشارة إليها لبعضهما البعض -كلاهما كان مبتهجًا للغاية ، وكتفاهما مربعي الشكل- والآن شرعا يركضان بحيوية ويرفعان سوقهما بشكل مائلٍ نحو نفس المكان مثل كل

الناس . أما وراء الحديقة العامة فقد كان التمثال الأبيض البدين قد قسم إلى نصفين ، بسبب صاعقة ، كما تقول الصحف .

«بعد لحظات سنمر على منزلك» قال مسيو بيير بهدوء بالغ .

بدأ رومان في التململ في حجرة العربة ويلتوي حول سنسيناتوس ويصرخ :

«بعد لحظات سنمر على منزلك» وعلى الفور استدار بعيدا عنه مرة أخرى وهو يتقافز صعودا وهبوطا ، مثل صبيّ مبتهج .

لم يرد سنسيناتوس أن ينظر ، لكنه نظر على أية حال . كانت مارثا تجلس على أغصان شجرة التفاح الجرداء وهي تلوح بمنديلها ، بينما كان هناك في حديقة البيت المجاور ، بين زهور عباد الشمس والخَطميَّة ، عجوز في ثياب رثة وقبعة مهروسة يلوح بكمّه . أما جدار المنزل ، ولا سيما في المواضع حيث كانت الظلال الورقية تتلاعب من قبل ، فقد كان مقشرا على نحو غريب ، وجزء من السقف . . .لكنهم كانوا قد تجاوزوا المنزل .

«لا شك أنك متحجر القلب فعلا» قال مسيو بيير وهو يتنهد بحسرة وبنفاذ صبر ألصق عصاه بظهر الحوذي ، الذي ارتفع قليلا ، وحققَ بجلدة مسعورة من سوطه ، معجزةً : فقد بدأ الفرس المتهالك يعدو سريعًا .

والآن كانوا يسيرون بالعربة على طول البوليفارد . واستمر الهياجُ في ازدياد في المدينة . كانت الواجهات المنزلية الملونة تتمايل وترفرف وقد زينت على عجل بملصقات ترحيبية . كان هناك منزل صغير قد زين على نحو ممتاز : فُتح بابه بسرعة ، وخرج منه شاب ، تبعته عائلته جميعا لتوديعه ، ففي هذا اليوم بلغ العمر الذي يسمح له بحضور الاعدام ؛ كانت الأم تبتسم وهي تدمع ، والجدة تقحم

شطيرة طعام في حقيبة ظهره ، وشقيقه الصغير يسلمه صولجانه . أما الجسور الحجرية القديمة التي كان تتقوس فوق الشوارع (والتي كانت من قبل نعمة للمشاة ، لكنها الآن حكر على المتفرجين ورؤساء الأحياء) فقد كانت مزدحمةً بالمصورين . ظل مسيو بيير ينقر على قبعته . مر الشباب الغنادرة على دراجاتهم اللامعة المنتظمة على العربة واشرأبوا بأعناقهم . خرج شخص يرتدي سراويل تركية من مقهى راكضا بدلو من القصاصات الملونة ، لكنه صبّ عن طريق الخطأ مطرهُ الورقي الملون على وجه رجل قصير الشعر خرج لتوه يجري من الرصيف المقابل وهو يحمل طبقا ترحيبيا كبيرا من كعكة «الخبز والملح» .

كل ما تبقى من تمثال الكابتن سومنس هو الساقين حتى الوركين ، كان محاطا بالورود ، لا بد أن صاعقة البرق قد ضربتها هي أيضًا . كانت فرقة موسيقية نحاسية تئز وتدق الأرض من مكان ما في الأمام على لحن مسيرة «غولبشيك» ، تحركت السحب البيضاء على نحو مرتعش عبر السماء كلها ، أظن أن ذات السحب مرت مرارا وتكرارا ، وأظن أن هناك ثلاثة منها فقط ، وأظن أن جميعها ترتيب مسرحيّ ، مع مسحةٍ خضراء مريبة . . .

«الآن ، الآن ، هيا يا رجل ، دونَ حماقات» قال مسيو بيير . «لا تقل لي أنه سيغمى عليك الآن . فهذا لا يليق بالرجال» .

وهاهم قد وصلوا الآن . لم يكن هناك حتى الآن إلا عدد قليل من المتفرجين ، لكنهم استمروا في التدفق إلى ما لا نهاية . في وسط الساحة -كلا ، ليس في الوسط تمام ، وهذا بالتحديد هو الأمر المفزع- انتصبت المنصة القرمزية للإعدام . بينما وقفت عربة الموتى القديمة التابعة للبلدية والتي تعمل بالكهرباء على نحو متواضع قريبا

منها . كانت هناك فرقة مشتركة من موظفي التلغراف ورجال الإطفاء تحافظ على النظام . على ما يبدو كانت هناك فرقة موسيقية تعزف بكل قوتها ، لأن قائدها ، وهو رجل معاق برجل واحدة كان يلوح بشراسة الآن لكن مع ذلك لم يكن هناك أي صوت مسموع .

عندئذ هز مسيو بيير كتفيه الممتلئين وقفز برشاقة من العربة واستدار على الفور ، وهو يرغب في مساعدة سنسيناتوس على النزول ، لكن سنسيناتوس خرج من الجانب الآخر . انطلقت بعض صيحات الاستهجان .

قفز رودريغ وروما ن خارج العربة ؛ وازدحم الثلاثة حول سنسيناتوس .

«لوحدي» قال سنسيناتوس .

كانت هناك حوالي عشرين خطوة حتى المنصة ، ولكي لا يسمحوا بأن يلمسه أحد ، اضطر سنسيناتوس للهرولة . نبح كلب من مكان ما وسط الحشد . وعند وصوله للدرجات القرمزية توقف سنسيناتوس . أمسكه مسيو بيير من مرفقه .

«لوحدي» قال سنسيناتوس .

صعد على المنصة حيث كان الوضم هناك ، أقصد قطعة ملساء مائلة من خشب السنديان الصقيل ، ذات حجم كافٍ بحيث يتمكن المرء بسهولة من الانحناء عليها وذراعاه ممتدان . ارتقى مسيو بيير المنصة أيضا . بدأ الجمهور يصدر الضجيج .

في حين كانوا يتجاذبون الدلاء ويلقون نشارة الخشب ، استند سنسيناتوس ، وهو لا يعرف ماذا سيفعل ، على القضيب الخشبي ، لكن رعشة خفيفة اجتاحت كل جسده وشرع أحد المتفرجين الفضوليين خلفه يجس كاحله ؛ ابتعد عنه ، وتنفس قليلا ، ورطب

شفتيه ، كان ذراعاه مطويان قليلا على نحو مرتبكٍ فوق صدره ، وكأنه يفعلها لأول مرة ، بدأ ينظر من حوله . حدث شيء ما للنور ، كان هناك شيء ما غير طبيعي في الشمس ، وكان جزء من السماء يهتز . كانت هناك أشجار حور مزروعة حول الساحة ، لكنها كانت يابسة ومتداعية ، واحداها كانت ببطء شديد . . .

ولكن مرة أخرى انتشرت موجة من الضوضاء عبر الحشد : كان رودريغ ورومان وهما يترنحان ويدفعان بعضهما البعض ، ينفخان ويشخران ، وهما يحملان على نحو أخرق الحقيبة الثقيلة أعلى الدرجات ليلقياها على الأرضية الخشبية . خلع مسيو بيير معطفه ليبقى بقميص تحتي فقط . كان هناك وشم يمثل امرأة بلون فيروزي على عضلات عضده ، بينما كانت تقف في الصفوف الأولى من الحشد ، والذي كان يزدحم حول المنصة تماما (بغض النظر عن توسلات رجال الإطفاء) ، ذاتُ المرأة بلحمها وشحمها ، وكذلك شقيقتاها الاثنتين ، بالإضافة كذلك إلى العجوز الضئيل مع صنارته ، وامرأة الزهور السمراء ، والشاب مع صولجانه ، وأحد أصهار سنسيناتوس ، وأمين المكتبة ، يقرأ صحيفةً ، وذلك الرجلُ القوي نيكيتا لوكيش المهندس ، ولمح سنسيناتوس كذلك رجلا اعتاد على رؤيته كل صباح في طريقه إلى حضانة الأطفال ، لكنه لم يكن يعرف اسمه . وراء هذه الصفوف الأولى تبعتها صفوف أخرى لم ترسم فيها الأعين والأفواه بوضوح تام ، وخلفها ، كانت هناك طبقات من الوجوه الضبابية المتطابقة في ضبابيتها ، وبعدها ، عند أبعدها ، رُسمت الوجوه على نحو رديء حقا على ستارة المسرح الخلفية . سقطت شجرة حور أخرى .

فجأة توقفت الفرقة الموسيقية ؛ أو بالأحرى ، الآن وبعد أن

توقفت ، يدرك المرء أنها كان تعزف طوال هذا الوقت . فكك أحد الموسيقيين ، الذي كان ممتلئًا ورائق البال ، آلته الموسيقية ، وهو ينفض اللعاب عن مفاصله اللامعة . وكان هناك خلف الأوركسترا مشهد مجازي أخضر مترهل : رواق مُعمّد ، منحدرات صخرية ، وشلال مياه صغير مزبد .

قفز نائب مدير المدينة برشاقة وحيوية (لدرجة أن سنسيناتوس تراجع لاإراديا) على المنصة ووضع عَرَضًا قدما مرفوعة عاليا على الوضم (كان خبيرا في بلاغة الطمأنة) وأعلن بصوت عال :

«يا أهل المدينة! ملاحظة موجزة واحدة . في الآونة الأخيرة ، لاحظنا في شوارعنا ميلا لبعض أفراد جيل الشباب إلى السير بسرعة كبيرة مما يضطرنا نحن الجيل الأكبر أن نتنحى جانبا ونتعثر في البرك الموحلة . كما أود أن أقول أنه بعد غد سيتم افتتاح معرض أثاث عند ناصية الفريست بوليفارد وبريغادير سْتريت وآمل بإخلاص أن أراكم جميعًا هناك . كما أذكركم أن هذه الليلة ، سيتم افتتاح العرض الناجح المثير للأوبرا الكوميدية الجديدة «لا بد أن ينقص سقراط» . وقد طلبوا مني أيضا أن أخبركم بأن مركز توزيع كيفر قد وصلته مجموعة كبيرة ممتازة من الأحزمة النسائية ، وقد لا يتكرر هذا العرض مرة أخرى . والآن سأفسح المجال للممثلين الآخرين وآمل يا أهل المدينة ، أن تكونوا جميعا في صحة جيدة وألا تحتاجوا لأي شيء» .

وهو ينسلّ بنفس الرشاقة بين القطع المتصالبة للدرابزين ، قفز لأسفل من المنصة تصاحبه همهمات مستحسنة . أما مسيو بيير الذي ارتدى مئزرا أبيضا (برزت من تحته أحذيته الثقيلة الطويلة) فقد كان يمسح يديه بالمنشفة بعناية وينظر من حوله بهدوء ومحبّة .

حالما انتهى نائب المدير ، ألقى المنشفة لمساعديه ، وتقدم نحو سنسيناتوس .

(تمايلت الفناطيس السوداء المربعة للمصورين ثم تجمدت) .

«لا للانفعال ، لا للضجيج ، رجاءً» قال مسيو بيير . «علينا وقبل كل شيء أن نخلع هذا القميص»

«بنفسي» قال سنسيناتوس .

«هذا هو الولد . خذوا هذا القميص الصغير بعيدًا أيها الرجال . والآن عليّ أن أبين لك كيف تستلقي» .

انحنى مسيو بيير على الوضم . ضجّ الجمهور .

«هل هذا واضح؟» سأله مسيو بيير وهو يثب واقفا ويعدل مئزره (كان قد انحلّ من الخلف وساعده رودريغ على ربطه) . «طيب . دعونا نبدأ . الضوء شديد بعض الشيء . . .هل لك أن . . . هكذا ، هذا جيد . شكرًا . أنقصه بعض الشيء فقط . . . ممتاز! والآن أطلب منك أن تضطجع» .

«بنفسي ، بنفسي» قال سنسيناتوس وأحنى وجهه لأسفل كما تم التوضيح له ، لكنه مباشرة غطى قفاه بيديه .

«يا لك من صبي سخيف» قال مسيو بيير من فوق . «إذا فعلت ذلك ، كيف لي أن . . . (أجل ، ضعه هنا ، ثم ، مباشرة بعد ذلك ، السطل) . وعلى أية حال لماذا كل هذه التشنجات العضلية؟ يجب ألا يكون هناك أي توتر البتة . استرخِ تمامًا . أبعد يديك ، رجاءً . . . (أعطيني إياها الآن) . ابق هادئا ومسترخيا وابدأ العد بصوت عال» .

«حتى العشرة» قال سنسيناتوس .

«ما هذا ، يا صديقي؟» قال مسيو بيير وكأنه يطلب منه أن

يكرر كلامه ، وأضاف بهدوء ، وهو يشرعُ بالفعل في الرفع . «تراجعوا قليلا إلى الوراء أيها السادة» .

«حتى العشرة» قال سنسيناتوس وهو يباعد بين ذراعيه .

«أنا لا أفعل أي شيء الآن» قال مسيو بيير كملاحظة غريبة وهو يلهث من الجهد ، كان ظل ميلانه يلوح بالفعل على امتداد الألواح الخشبية للمنصة ، عندما بدأ سنسيناتوس بحزم العد بصوت عال : واحد ، كان سنسيناتوس يعد ، لكن سنسيناتوس الآخر كان قد توقف بالفعل عن الانتباه لصوت العد غير الضروري والذي كان يتلاشى هناك من بعيد ؛ وبوضوح لم يخبَره من قبل ، في البداية كان مؤلمًا نوعا ما ، أتاه على نحو مُفاجئ تماما ، لكن غمره بعدئذ بالفرح ، وفكّر : لماذا أنا هنا؟ لماذا أنا مضطجع هكذا؟ وهو يسأل نفسه هَذه الأسئلة البسيطة ، أجاب عليها بالنهوض واقفا والنظر من حوله .

كل ما كان حوله كان فوضى غريبة . ظهر الدرابزين من بين فخذي الجلاد المائلتين . على بعد خطوات ، كان أمين المكتبة الشاحب منحنيا وهو يتقيأ . بدا المتفرجون بوضوح تام ، وبلا جدوى على الاطلاق ، واستمر جميعهم بالتلاطم والمضي بعيدا ، عدا الصفوف الخلفية ، كونها صفوفا مرسومة فقد بقيت في مكانها . انحدر سنسيناتوس ببطء من المنصة ومضى قدما بين الأنقاض المتداعية . تخطى رومان ، الذي أصبح الآن أصغر مرات عديدة من ذي قبل والذي كان في الوقت ذاته رودريغ أيضا : «ماذا تفعل!» نعب وهو يتقافز صعودا ونزولا . «لا يمكنك ، لا يمكنك! هذا خداع له ، خداع للجميع . . . عُد ، اضطجع ، ففي النهاية ، لقد كنتَ مضطجعا ، كل شيء جاهز ، كل شيء مكتملِ!» دفعه

سنسيناتوس جانبا وبصرخة كئيبة ، لاذ بالفرار وهو لا يفكر سوى بسلامته .

لم يتبق من الساحة سوى القليل . أما المنصة فقد انهارت منذ زمن طويل في سحابة من الغبار الأحمر . وكان آخر من تجاوزها وهو يركض ، امرأةً بوشاح أسود ، تحمل الجلاد الصغير مثل يرقة بين ذراعيها . انبسطت الأشجار الساقطة على الأرض دون بروز ، أما تلك التي ظلت واقفة ، والتي كانت ثنائية الأبعاد كذلك ، مع تظليل جانبي لجذوعها لكي يوحي بالاستدارة ، فقد كانت بالكاد متماسكة بأغصانها مع النسيج الممزق للسماء . كل شيء كان يتمزق . كل شيء كان يسقط . انبعثت ريح دوارة تلتقط وتدوّر : الغبار ، الخِرق ، ورقائق من الخشب الملون ، وقطعا من الجصّ المذهب ، وطوبًا من الورق المقوى ، والملصقات ؛ وحل ظلام كئيب بسرعة ؛ ووسط الغبار ، والأشياء المتساقطة ، والديكور المتداعي ، شق سنسيناتوس طريقه نحو اتجاه ، بالنظر إلى الأصوات ، توجد فيه كائنات تشبهه .

مكتبة

t.me/ktabpdf

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

مكتبة 419

قال كاتبي المفضل (1768–1849) ذات مرة في رواية نُسيت تماما الآن: "كان لديه كل شيء للجميع، لقد جعل الطفل يضحك والمرأة ترتجف، وسبّب للإنسان دوارا مفيدا، وجعل أولئك الذين لا يحلمون أبدا يحلمون". لا يمكن لـ"دعوة إلى جلسة قطع الرأس" أن تدعي أي شيء من هذا القبيل. إنها عزف كمان في فراغ. سيراها الدنيوي خدعة، وسوف يتحول الرجال المسنون عنها سريعا إلى الروايات الرومانسية المحلية وحيوات الشخصيات العامة، ولن تفتتن بها أي امرأة نوادي، وأولئك اللؤماء سيرون في الصغيرة إيمي أختا للصغيرة لوليتا، أما تلاميذ الطبيب المشعوذ الفيينيي فسيضحكون عليها ضحكا مكبوتا في عالمهم البشع المكون من الذنب المشترك والتربية التدريجية.

ولكن (كما قال كاتب خطابات عن الظلال في إشارة إلى ضوء مصباح آخر): أنا أعرف (je connais) بضعة (quelques) قراء سيقفزون، نافشين شعرهم.

فلاديمير نابوكوف

KALEMAT